الحَجُّ والعُمْرَةُ

فِي ضَوْءِ الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

تأليف

الدكتور/ محمد محمد أبو شهبة

جمع وإعداد وتقديم

الشيخ أحمد مصطفى فضلية

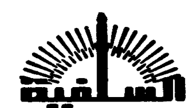
مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة - بالقاهرة

١٤٢٧ هـ = ٢٠٠٦ م

مكتبة السنة
بالقاهرة

رقم الإيداع : ٢٢٧٤٧ / ٢٠٠٦
دار نوبار للطباعة



مكتبة السنة
الدار السلفية لنشر العلم

القاهرة : ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين ،ناصية شارع الجمهورية،
تليفون : ٣٩٠٠٣١٨ - ٣٩١٣٥٣٢ فاكس : ٣٩١٣٥٣٢ - تلكس: ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب : ١٢٨٩ - الرمز البريدى : ١١٥١١

إهـــداء

إلـى عُـمَّـار وحُـجـاج بـيـت الـلّـه :

أرفع ما خطه يراع عالم حكيم في مناسك الحج والعمرة على ضوء الكتاب والسنة ، وبيان كيفية أداء المناسك وأدعيتها المأثورة ، وزيارة النبي ﷺ .

من الدستور الإلهي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال اللّه تعالى : ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

[البقرة : ١٩٦ ، ١٩٧] .

مِن هَدِيه ﷺ

* عَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَرَى الجِهَادَ أَفْضَلَ الأَعْمَالِ ، أَفَلَا نُجَاهِدُ ؟ قَالَ : لكِنَّ أَفْضَلَ الجِهَادِ وأَجْمَعَهُ حَجٌّ مَبْرورٌ .

[أخرجه البخاري]

* وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُلَبِّي إِلَّا لَبَّى مَا عَنْ يَمِينِهِ وشِمَالِهِ مِنْ حَجَرٍ أَوْ شَجَرٍ أَوْ مَدَرٍ حَتَّى تَنْقَطِعَ الأَرضُ مِنْ هَـٰهُنا وَهَـٰهُنا » .

[أخرجه الترمذي]

* وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ : قَالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ والعُمْرَةِ فَإِنَّهُمَا يَنفِيَانِ الذُّنُوبَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ » .

[أخرجه النسائي]

* وعَن أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « العُمرَةُ إلى العُمرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا ، والحَجُّ المَبْرورُ لَيسَ لَهُ جَزاءٌ إلاَّ الجَنَّةُ » .

[أخرجه الستة إلا أبا داود]

* وَعَن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ : « جِهَادُ الصَّغِيرِ والكَبِيرِ والمَرْأَةِ الحَجُّ والعُمْرَةُ » .

[أخرجه النسائي]

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تقــديم
بقلم فضيلة الأستاذ الشيخ
معوض عوض إبراهيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وصلّى الله وسلم على نبيه ومصطفاه سيدنا محمد بن عبد الله ، صلاة يرضاها ويرضى عنها صلوات الله عليه كِفاء ما أدّى وبلّغ من كلمات الله وهداياته إلى الناس أجمعين .

وبعـد :

فجزى الله أخانا الأستاذ أحمد مصطفى فضلية ، على مجهوداته الميمونة المباركة ، في إخراج آثار العلماء الذين أفضوا إلى الله عز وجل ، لتكون نورًا هاديًا كما أرادوها ، محتملًا في عمله المشكور كل صعب ومشقة ، وجلّ الله الذي لا يضيع أجرَ من أحسن عملًا .

وهذا السِّفْرُ لفقيد الإسلام الدكتور محمد بن محمد أبي شهبة ليس أول آثاره ، ولن يكون آخرها ، فلقد ترك أكرم الأمهات حول كتاب الله عز وجل ، وحول السنة النبوية المطهرة ، التي تشعشع الإيمان من إذاعة المملكة العربية السعودية من سنوات جاوزت العشرين إلى رصيد ممتد إلى ما شاء الله ، وليس المجال مجال حصر أو استقصاء لما أملاه القلب النير ، والفكر المُسفر ، وقاله اللسان وخطه البنان ، فلذلك مقام آخر .

وبين أيدينا حقائق الفريضة الخاتمة ، والركن الذي أكمل الله به الدين ؛ وهو الحج الذي وقف فيه الرسول ﷺ في حجة الوداع فوق عرفات ، وكان ذلك في يوم جمعة يخاطب البشرية في خطابه الجامع لكل حقائق الإسلام ، وشرائع الدين الذي استوعب كل ما تحتاجه البشرية لتكون أهلًا لقول الله عز وجل : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

ورضي الله عن الخليفة الراشد أبي حفص عمر بن الخطاب ، فقد قرأ هذه الآيات ثم

قال : « أيها الناس : من أراد أن يكون من أهل هذه الآية فليؤد شرط اللّٰه فيها » .

والدكتور محمد بن محمد أبو شهبة رحمه اللّٰه ؛ رُزق السداد وهُدي سبيل الرشاد ، فقدم لنا هذه القضية على نحو من الوفاء ؛ بالتعريف بها ، وبيان حكم اللّٰه عز وجل فيها ، وحكمته في أكثر أركانها ، في منهج يطمئن النفوس ويثير الشوق إلى أداء هذه الفريضة التي تثمر رضوان اللّٰه عز وجل وغفرانه لوفده الذي جاء البيت طائفًا ، واقفًا أمام الحجر الأكبر داعيًا ملبيًا منيبًا إلى ربه تائبًا من ذنبه ، سائلًا الكريم الرحيم في موقفه ذلك وفي شتى المواقف وفي عرفات بخاصة أن يجمع اللّٰه عز وجل شمل المسلمين ويوحّد منهم الصف ، ويرد عنهم الغفلات ، حتى يعودوا إلى أوطانهم وكأنهم على قلب رجل واحد ، وإن تباعدت الديار ، وشط المزار ؛ حتى يرد اللّٰه عنهم كيد من كاد ومكر من مكر ، وما أكثرهم في دنيا الناس اليوم .

جزى اللّٰه المحقق الفاضل خيرًا ، فقد أبرز لنا المؤلف الكريم في مواقفه في مشاهد الحج ، وفي زياراته للمسجد النبوي الشريف وتردده على الروضة الشريفة ، وكأنه رحمه اللّٰه أقرب ما يكون من ربه ومن هَدْي مصطفاه صلوات اللّٰه وسلامه عليه .

وقد عاش في مراحل حياته – كما رأيناه ورآه غيرنا – يستجيب للّٰه تعالى ولمصطفاه صلوات اللّٰه عليه فيما أمر اللّٰه ، ودعانا إليه مصطفاه ، مقبلًا على موارد العلم وحياض الدراسات الإسلامية ، والثقافات الهادية ، والمعرفة البانية ، والمستوى الأخلاقي الذي يؤهله لأن يكون سميًّا لسيدنا محمد صلوات اللّٰه وسلامه عليه ، وكأن القدر الرحيم الذي جمع إلى اسمه اسم أبيه محمد بن محمد ؛ قد نبه منا المشاعر والمدارك لذلك الشرف الذي ذهب به إلى آخر الزمان الشيخ الجليل رحمه اللّٰه .

والكتاب قمة في موضوعه ، ومثال رفيع في تناوله للأحكام والعبر والعظات ، التي يفيضها ذلك الركن من أركان الدين العظيم الذي كان من فضل اللّٰه عز وجل على من أدّوْه بإخلاص النية ، وحسن الطوية ، والحرص على اتباع الرسول ﷺ وتمثله للعبادة التي جمعت سائر العبادات ، ففيها الصلاة وفيها الصوم وفيها البر والإحسان وفيها ما يسفر عنه السفر القاصد من خشية اللّٰه عز وجل ، ورغبة جادة على العمل الذي نتمثل فيه قول رسول الله ﷺ : « خذوا عني مناسككم » . حتى يعود ضيوف الرحمن بقلب

طهور ، وذنب مغفور ، وتوبة متقبلة كيوم ولدتهم أمهاتهم ، وخليق بالمسلمين أن تكون بغيتهم ومرادهم رضوان اللَّه الذي يخلف توفيقه وهداه وعونه على إحقاق الحق وإزهاق الباطل .

وجزى اللَّه الدكتور محمد محمد أبا شهبة خيرًا بما ألَّف وعرَّف ، وأسعف الأمة التي تداخلت السبل أمامها حتى تعود مرة أخرى إلى النهج الذي عاش عليه الآباء والأجداد فكانوا سادة الدنيا ، وهداة البشرية إلى الحق في كتابه وسنة نبيه ﷺ .

وهو المسئول سبحانه أن يبارك في عقبه ، ويجزي الأستاذ أحمد مصطفى فضلية جزاء من طلبوا الخير واتخذوه سبيلًا ، وأعانه على مزيد من ذلك .

وهو سبحانه ولي من اتقاه ونصير من استهداه ودعا بصدق وإخلاص للتي هي أقوم ، آمين .

معوض عوض إبراهيم

المطرية - القاهرة

عصر الاثنين : ٣ من ربيع الآخر ١٤٢٧هـ

أول مايو ٢٠٠٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء : ١] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب : ٧٠- ٧١] .

أما بعد : الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام الأساسية ، التي بها يتحقق استسلام العبد وخضوعه لربه تعالى ، وهو جامع لما تضمنته الأركان الأخرى ، فهو عبادة بدنية كالصلاة والصيام ، وعبادة مالية يشبه الزكاة – لما يتطلبه من الإنفاق في سبيل الله – وهو أيضًا مجاهدة للنفس والبدن كالجهاد في سبيل الله .

والحج شريعة من شرائع الأنبياء والمرسلين – من لدن أبينا الخليل إبراهيم إلى عهد نبينا محمد عليهما الصلاة والسلام – وأصل من أصول الإسلام ، وفريضة محكمة باقية إلى يوم الدين . ولم يحافظ العرب على شريعة من شرائع الخليل إبراهيم وابنه الذبيح إسماعيل عليهما السلام مثلما حافظوا على شريعة الحج – وإن كانوا شابوه ببعض الوثنيات والتحريفات والتبديلات التي لم ينزل الله بها من سلطان – فلما جاء الإسلام أقرَّ ما هو حق وصدق ، وقضى على ما هو باطل وإثم .

وقد اهتم ببيان هذا الركن الخامس من أركان الإسلام كثير من العلماء ؛ فتحدثوا عن فرضيته وحكمة مشروعيته وأركانه وواجباته وغير هذا ؛ مما يتعلق بفقه الحج والعمرة .

ومن هؤلاء العلماء الأفاضل : الدكتور (**محمد بن محمد أبو شهبة**) – رحمه الله – وقد ترك لنا علمًا نافعًا ، فكتاباته ملأى بالفوائد الجمة ، والعلوم النافعة ، والمواعظ

الحسنة، وينهل منها العلماء، ويرتوي منها طلبة العلم الديني، فهو من علماء الأزهر القلائل الذين توافرت لهم بسطة في العلم والدين والخلق.

ومن كتاباته الممتازة ما كتبه من مقالات وبحوث ودراسات إسلامية تشرح صحيح الدين في أمهات الصحف والمجلات الذائعة لوقته، وقد وفق الله وأعان على جمع هذا التراث الجليل النافع بإذن الله من مظانه، فقمنا بجمعه وترتيبه ونشره في عدة كتب تضيف الجديد الطريف إلى مكتبة المسلم المعاصر، وقد خرج منها إلى فضاء الثقافة الإسلامية:

١- كتاب الصوم في ضوء القرآن والسنة.

٢- من هدي السنة في الدين والحياة.

٣- من أعلام الإسلام.

وها هو الكتاب الرابع عن «الحج والعمرة في ضوء القرآن والسنة» جمعنا مادته الغنية من مجلات (الأزهر، ومنبر الإسلام، ولواء الإسلام، والحج السعودية، والتضامن الإسلامي، والرابطة، والوعي الإسلامي)، فقد كان الشيخ - رحمه الله - فيما كتبه ونشره في هذه الدوريات يشرح أعمال الحج ومناسكه، وما فيها من ألوان التهذيب، وضروب التأديب؛ التي أخذ الله بها عباده؛ فيؤدي الحاج فريضة الحج والعمرة على أكمل الوجوه، مع القيام بجميع السنن والآداب على وفق المنقول من حج رسول الله ﷺ.

ليكون على بصيرة من أمره وبينة من ربه، ويزور جميع المشاهد والمواضع المعظمة وهي مشهورة ومعروفة. ولا يسع القارئ المؤمن - حين يطالع ما خطه يراع الشيخ الفاضل عن الحج والعمرة - إلا أن يكبر ما شَرَعَهُ الإسلام العظيم لبنيه؛ من مناهج وأساليب؛ كفيلة بأن تعالج في النفوس أدواءً شديدة، وأمراضًا وبيلة، وأن تمنحها من الصفاء ومن السمو حظًّا كبيرًا.

وهذا ما أوضحه الشيخ رحمه الله بقوله: «إن في كل نُسُك من المناسك حكمة، وفي كل شعيرة عبرة، فلتتفهموا أيها المسلمون الحكمة، ولتستفيدوا بالعبرة، ولا تقفوا بأفعال الحج ومناسكه عند الظواهر، بل غوصوا على الحكم، وتعرفوا الأسرار، وحينئذ؛ ستشعرون بلذة الحج وحلاوته، وحينئذ ستهون عليكم المشاق والمتاعب، إن في الحج تعميقًا لمعاني حب الله وطاعته في القلب، وتعميقًا لمعاني الإخاء، والمحبة،

والرحمة ، والتواضع ، وخفض الجناح للناس ، والبذل ، والإنفاق في نفس المسلم » .

وتحدث الشيخ رحمه الله عن أسرار الحج وفلسفته ، فقال :

« وللحج أسرار وحكم ، منها ما هي ظاهرة واضحة ، ومنها ما هي خفية تحتاج إلى أناة وروية وإعمال الفكر ، وإشراق النفس ؛ حتى إنها - لخفائها على كثير من الناس - اصطلح بعض العلماء على تسميتها أمورًا تعبدية تطاع وتنفذ وإن خفي علينا سرها وحكمتها .

ويُجَلي محاسن الإسلام في تشريعه لآداب الحج فيقول : « من محاسن الإسلام أنه يحيط شرائعه وتكاليفه بحدود وآداب تحقق الغرض الذي قصده الشارع الحكيم من هذه العبادات ، وترتفع بمؤديها إلى درجات من السمو النفسي والخلقي والاجتماعي ، فجعل للصلاة - التي هي عمود الإسلام وسنامه - آدابًا وسننًا ، وللزكاة - التي هي رأس العبادات المالية - آدابًا ومعالم ، وللصيام - الذي هو نصف الصبر - آدابًا وفضائل ، وكذلك جعل للحج - الذي هو الإرث الخالد عن أبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام - آدابًا وشعائر ؛ تحقق الحِكَم السامية التي أرادها الله من هذا الأصل من أصول الإسلام » .

هذه قبسات منيرة - من بيان الشيخ العذب - لا تغني عن مطالعة ما كتبه عن الحج والعمرة ؛ لهذا رأينا من الوفاء إصدار هذا الكتاب ليعم به النفع إن شاء الله .

ونود أن نقدم للقارئ العزيز في عجالة سريعة مضمون هذه الكتاب فأقول : قسمت الكتاب إلى أبواب كل باب يضم مجموعة من المقالات التي يجمعها موضوع واحد .

- **الباب الأول** : يتحدث عن تاريخ بيت الله الحرام وقصة بنائه ليكون أول بيت وضع للناس .

- **الباب الثاني** : ويضم تفسير الشيخ لبعض آيات الحج مثل :

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران : ٩٦] .
- ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة : ١٩٦] .
- ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج : ٢٧] .
- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ [الحج : ٣٤] .
- ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة : ١٩٧] .
- ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ﴾ [التوبة : ٣٦] .

– **الباب الثالث** : ويضم مجموعة من المقالات التي تتحدث عن الحج والعمرة في ضوء الحكمة القرآنية والسنة النبوية المحمدية .

– **الباب الرابع** : ويضم مجموعة من المقالات تتحدث عن الحج والعمرة من خلال شرح بعض الأحاديث النبوية الشريفة .

– **الباب الخامس** : وفيه مقالتان يتحدث الشيخ فيهما عن أسرار مناسك الحج وحكمتها .

– **الباب السادس** : وفيه ثلاث مقالات يتحدث فيها الشيخ عن يوم الحج الأكبر وحجة الوداع .

– **الباب السابع** : وفيه يبين الشيخ للحجاج كيف يحجون ويؤدون المناسك بسهولة ويسر مع بيانٍ شافٍ لآداب الحج .

– **الباب الثامن** : ويضم مقالات تتحدث عن أشواق ومواجيد الحجاج نحو البيت الحرام ، فيقدم الشيخ صورة وصفية لمشاعره وهو يؤدي مناسك الحج .

– **الباب التاسع والأخير** : ويضم مقالات يقدم فيها الشيخ النصائح والتوجيهات لحجاج بيت الله الحرام ، ليعود الحجاج من رحلتهم المباركة بأنفع الدروس وأبلغ العبر .

والحق أن ما كتبه الشيخ الدكتور محمد أبو شهبة هاهنا يعد موسوعة في الحج والعمرة ، ولا غنًى عنها لأي باحث أو مسلم يريد العلم النافع بالركن الخامس .

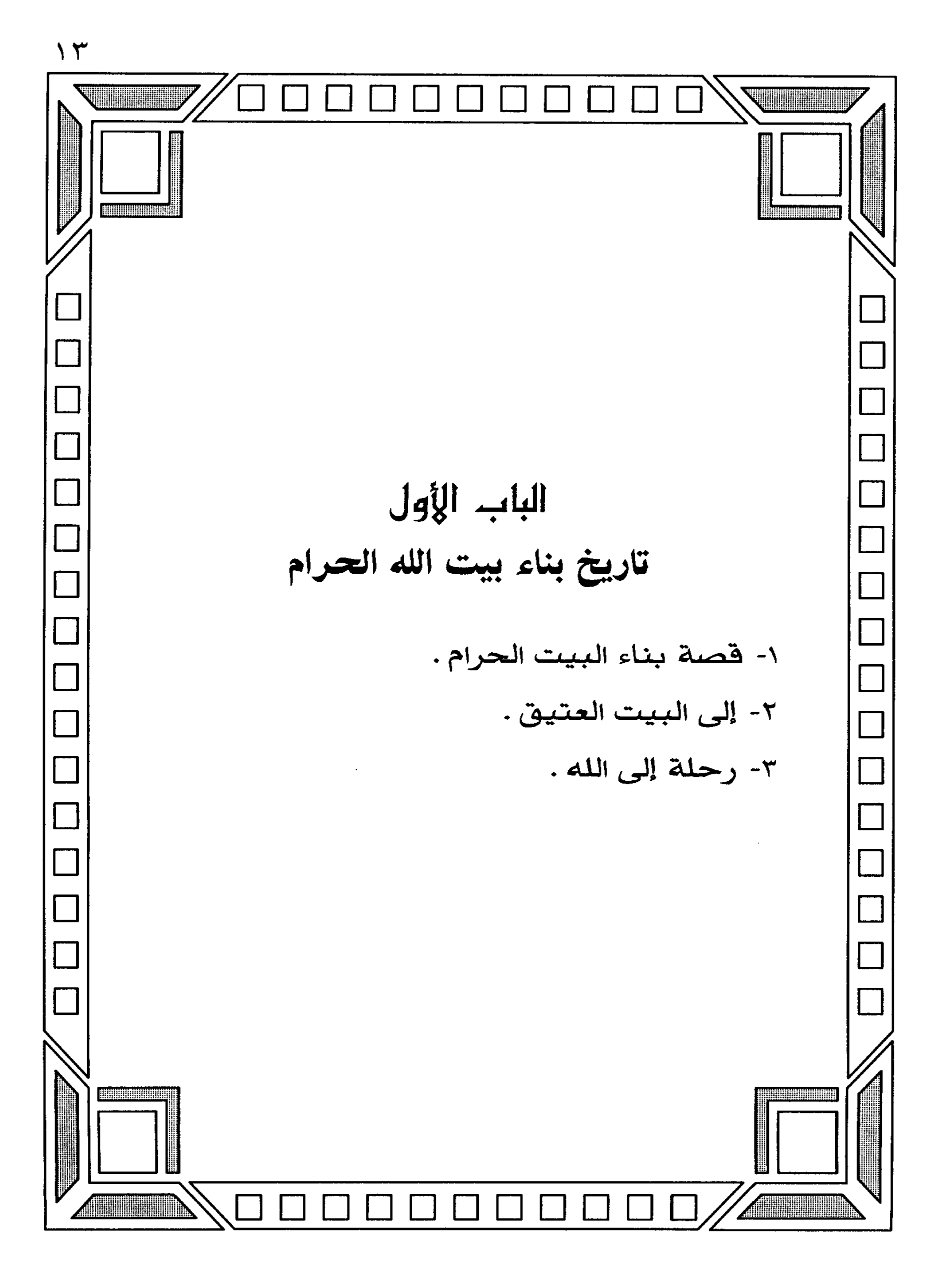
نسأل الله سبحانه أن يجزي الشيخ خير الجزاء على ما قدم من نصح وإرشاد وعلم نافع لأمته ، ونسأل الله أن يجعل عملنا في نشر تراث هذا العالم الجليل في ميزان حسناتنا . ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء : ٨٨، ٨٩] .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

كتبه الفقير إلى عفو الله
أبو عبد الرحمن
أحمد مصطفى عبد العزيز فضلية
شيخ معهد محلة دياي الأزهري

تحريرًا في محلة دياي– دسوق
١٠من ذي القعدة ١٤٢٦هـ
١٢من ديسمبر ٢٠٠٥هـ





الباب الأول
تاريخ بناء بيت الله الحرام

(١)

قصة بناء البيت الحرام[١]

المسجد الحرام هو أول المساجد المشرفة في الأرض ، وأولاها بالشرف ، وأرفعها في المنزلة ، وهذا هو ما صدع به القرآن الكريم حيث قال سبحانه : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٦، ٩٧] ، وقد كان المسلمون واليهود يتنازعون أيُّ المسجدين أفضل ، المسجد الحرام أم المسجد الأقصى ؟

فالمسلمون يقولون : المسجد الحرام ، واليهود يقولون : المسجد الأقصى ، وقد جاءت الآية الكريمة السابقة فيصلًا في محل النزاع ، وبينت أن الحق مع المسلمين ، وقد جاء في هذا حديث صحيح رواه الشيخان في صحيحيهما عن أبي ذر قال : « قلت : يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولًا ؟ قال : المسجد الحرام ، قلت : ثم أي ؟ قال : المسجد الأقصى ، قلت : كم بينهما ؟ قال : أربعون سنة ، وأينما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد » .

والمسجد الحرام هو مسجد مكة ، وسُمي حرامًا ؛ لأن الله عظمه وحرمه من يوم أن خلق السماوات والأرض ، وجعله مثابة للناس وأمنًا ، فلا يقتل عائذ به ، ولا يهاج فيه حيوان ولا طير ، ولا يقطع شجره ، ولا يجز عشبه ، حتى كان العربي في الجاهلية يجد قاتل أبيه أو أخيه فيه فلا يهيجه .

والثابت المعروف بالكتاب المتواتر ، والسنة الصحيحة المشهورة أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذي بنى الكعبة – البيت الحرام – وعاونه في ذلك ؛ ولده الذبيح إسماعيل عليه السلام ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٨] .

وقد روي في صحيح الإمام أبي عبد الله البخاري[٢] ، وغيره من كتب الحديث المعتمدة وكتب السير والتفاسير قصة بناء البيت الحرام على يد الخليل إبراهيم وابنه

---

(١) مجلة الحج – الجزء ٥ – السنة : ٢٢– ذي القعدة ١٣٨٧ هـ – فبراير ١٩٦٨م .

(٢) صحيح البخاري : كتاب أحاديث الأنبياء ، باب واتخذ الله إبراهيم خليلًا .

إسماعيل عليهما الصلاة والسلام بما لا يدع مجالًا للشك ولا للتشكيك في هذا ، وقد رويت روايات أخرى أغلبها موقوفة على بعض الصحابة والتابعين رواها أصحاب التواريخ ، كالأزرقي ، والفاكهي ، وبعض المفسرين ، بعضها يفيد أن أول من بنى البيت هم الملائكة ، وبعضها يقول : إن أول من بنى البيت آدم عليه السلام ، وقيل : ابنه شيث ، روى عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء قال : « إن أول من بنى البيت آدم » ، وقيل : بَنَتْهُ الملائكة قبله ، وعن وهب بن منبه : أول من بناه شيث بن آدم ، ووهب من أهل الكتاب الذين أسلموا ، وروى البيهقي في الدلائل من طرق أخرى عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا : « بعث الله جبريل إلى آدم فأمره ببناء البيت ؛ فبناه آدم ، ثم أمره بالطواف به ، وقال له : أنت أول الناس ، وهذا أول بيت وضع للناس[١] .

وقد قال ابن كثير في هذا الأثر الأخير : إنه من مفردات ابن لهيعة ، وهو ضعيف ، والأشبه - والله أعلم - أن يكون موقوفًا على عبد الله بن عمرو بن العاص ، ويكون من الزاملتين[٢] اللتين أصابهما يوم اليرموك من كتب أهل الكتاب ، وهذا ما أُرَجِّحُهُ وأميلُ إليه ، ومهما قيل في ثبوت هذه الروايات وما ماثلها فهي لا تقوى على معارضة ما دل عليه القرآن المتواتر ، والسنة الصحيحة ، والأخبار المستفيضة ، ويعجبني في هذا ما قاله الحافظ المفسر المؤرخ ابن كثير في بدايته ، قال : « ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنيًا قبل الخليل عليه السلام ، ومن تمسك في هذا بقوله : ﴿مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ فليس بناهض ، ولا ظاهر ؛ لأن المراد مكانه المقدر في علم الله المقرر في قدرته المعظم عند الأنبياء موضعه من لدن آدم إلى زمان إبراهيم[٣] .

وقد ساق إمام الأئمة البخاري قصة بناء البيت الحرام في صحيحه سياقًا حسنًا من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما بعضها مرفوع ، وبعضها موقوف ، وهو يعتبر شرحًا لما أجمل في آيات القرآن الكريم من مثل قوله سبحانه : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ

---

(١) فتح الباري ج٦ صـ ٣١٠، وتفسير ابن كثير والبغوي ج١ صـ١٣١٦ .

(٢) الزاملة : البعير الذي يحمل عليه المتاع أي : حمل بعيرين من الكتب .

(٣) البداية والنهاية ج١ صـ ١٦٣.

إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم : ٣٧] . وقوله : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ الآيتين [آل عمران : ٩٦، ٩٧] ، وقوله : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ﴾ [البقرة : ١٢٧] .
وسأذكر هذه القصة بطولها لما فيها من الإمتاع ، والحكم والأحكام ، والعبر والعظات ، وهي إلى ذلك قطعة من الأدب الحي ، والقصص الحق .

روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس قال : « أول ما اتخذ النساء المنطق[1] من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقًا لتعفي أثرها على « سارة » ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه ، حتى وضعها عند البيت -أي مكانه- عند دوحة فوق زمزم في أعلى المسجد[2]وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفى إبراهيم منطلقًا ، فتبعته أم إسماعيل ، فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ وقالت له ذلك مرارًا ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آلله الذي أمرك بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيعنا ! ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم ، حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ، ورفع يديه : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ ... ﴾ حتى بلغ ﴿ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] ، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت ، وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى -أو قال يتلبط[3]- فانطلقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا ؟ فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود[4] حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة

---

(١) المنطق ، والنطاق : ما تشد به المرأة وسطها .

(٢) وذلك أن سارة كانت وهبت هاجر لإبراهيم فحملت منه بإسماعيل ، فلما ولدته اشتدت بها الغيرة ، فأمره الله سبحانه - تطييبًا لخاطر سارة - أن يخرج بهاجر وابنها إلى مكان البيت ، ثم أمره ببناء البيت ، ثم كانت مكة ، وكان العرب ، وكان من نسله النبي العربي المبعوث رحمة للعالمين .

(٣) يتمرغ ويضرب بنفسه الأرض من العطش .

(٤) الذي أصابه الجهد والمشقة .

فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا ؟ فلم تر أحدًا ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فذلك سعي الناس بينهما » ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا ، فقالت : صه[١]- تريد نفسها- ثم تَسَمَّعت فسمعت أيضًا ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث[٢] فإذا هي بالملك -يعني جبريل- عند موضع زمزم فبحث بعقبه - أو قال بجناحه- حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا[٣] ، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعدما تغرف ، قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت أو قال : لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم عينًا معينًا[٤] » قال : « فشربت وأرضعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة ، فإن هذا بيت الله ، يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول ، فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة[٥] من جرهم - أو أهل بيت من جرهم - مقبلين من طريق كداء ، فنزلوا في أسفل مكة فوجدوا طائرًا عائفًا[٦] ، فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا جريًا أو جريين[٧] فإذا هم بالماء ، فرجعوا فأخبروهم بالماء ، فأقبلوا ، قال : وأم إسماعيل عند الماء ، فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء[٨] قالوا : نعم ، قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فألفى ذلك أم إسماعيل ، وهي تحب الأنس » ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم ، وشب الغلام ، وتعلم العربية منهم ، وأنفسهم[٩] وأعجبهم حين شب ، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم ، وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع

---

(١) صه : أي اسكتي تخاطب نفسها .

(٢) تعني فأغثني وهو جواب الشرط .

(٣) تحوضه : تجعله كالحوض بيديها ، وتقول بيدها : يعني تفعل هكذا .

(٤) أي ظاهرًا جاريًا على وجه الأرض .

(٥) جماعة .

(٦) يحوم حول الماء ويدور .

(٧) الجري : الرسول .

(٨) يعني في امتلاكه لا في الشرب منه .

(٩) أي رغبهم في مصاهرته نفاسته عندهم .

تركته[١] فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، ثم سألها عن عيشهم وهيأتهم، فقالت: نحن بِشَرٍ، نحن في ضيقٍ وشدةٍ، فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له: يغير عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئًا، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا في جهدٍ وشدة، قال: فهل أوصاكِ بشيء؟ قالت: نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غير عتبة بابك[٢] قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أُفارقك، الحقي بأهلك، فطلقها، وتزوج امرأة منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله، ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه». قال: فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، ومُريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنَّا بخير، قال: فأوصاكِ بشيء قالت: نعم هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وأنتِ العتبة أمرني أن أمسكها، ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبري نبلًا له تحت دوحة[٣] قريبًا من زمزم فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد، والولد بالوالد[٤] قال: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك

---

(١) ما تركه من أهله وولده، وفي رواية أخرى أن إبراهيم كان يزور إسماعيل وأمه كل شهر، فذكرت هذه الرواية ما أوجزته رواية الصحيح.

(٢) المراد بالعتبة: المرأة وهي من الكنايات البديعة فالعتبة تصون الباب، وتصون ما هو بداخله، وهي المعبر لبيت الإنسان الذي يؤويه ويقيه الحر والبرد، والمرأة تعف زوجها وتصونه وتصون ماله، وهي سكن النفس، وطمأنينة الروح، وإليها يفيء الزوج بعد العناء والتعب فيجد الروح والراحة، فما أبدعها من كناية.

(٣) هي الشجرة العظيمة.

(٤) يعني من المصافحة، والعناق، والتقبيل ونحو ذلك.

ربك ، قال : وتعينني ؟ قال : وأعينك ، قال : فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتًا ، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها ، قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت ، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة ، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر[1] فوضعه له ، فقام عليه وهو يبني ، وإسماعيل يناوله الحجارة ، وهما يقولان : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧] ، قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ، فلما بلغ موضع الحجر الأسود وضعه في موضعه الذي هو فيه ، فلما فرغ الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام من بناء البيت جاء جبريل فأرى الخليل المناسك كلها ، وأمر الله خليله أن يؤذن في الناس بالحج ، فقال : يا رب وما يبلغ صوتي ؟ فقال الله عز شأنه : أذن يا إبراهيم ، وعليَّ البلاغ ، فوقف الخليل على جبل أبي قبيس ، وصار ينادي : يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا ، فأسمع من في أصلاب الرجال ، وأرحام النساء ، فأجابه من آمن ، ومن كان سبق في علم الله أنه يحج إلى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك ، وصدق الله حيث يقول : ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ الآيات من سورة الحج [٢٧، ٢٨] .

وحج الخليل إبراهيم ، وحج إسماعيل ، وحج إسحاق وأمه سارة من بيت المقدس ، ثم رجع الخليل إلى الشام ومات هناك ، ومن يومها وأنبياء الله ورسله ، والمؤمنون الذين كتب الله سبحانه وتعالى لهم الحج يحجون هذا البيت الحرام ، قائلين : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

* * *

(١) يعني الحجر الذي قام عليه لما ارتفع البناء ، وهو ما يعرف بمقام إبراهيم .

(٢)

إلى البيت العتيق[1]

قال الله تعالى في كتابه الكريم : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[آل عمران : ٩٦- ٩٧] .

بيت لا كالبيوت ، وبنية لا كالبنيات ، وحرم لا كأي حرم ، شريف في نسبته ، عتيق في وضعه ، كريم بكرم بنائه ... هي الكعبة البيت الحرام ، بيت الله في الأرض ، ورمز عظمته ، وموئل كل مستجير وعائذ ، يجد فيه القادم إليه أمنًا وإيمانًا ، وبردًا وسلامًا ، أول بيت وضع مشرفًا في الأرض بشهادة القرآن ، وسنة خاتم الأنبياء ، روى البخاري ومسلم رضي الله عنهما بسندهما في صحيحيهما عن أبي ذر – رضي الله تعالى عنه – قال : قلت : يا رسول الله ، أي مسجد وضع في الأرض أولًا ؟ قال : « المسجد الحرام » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « المسجد الأقصى » ، قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة ، وحيثما أدركتك الصلاة فصل فهو مسجد » .

ولما أراد الله سبحانه وتعالى لبيته أن يقام وأن تشرف به الأرض أمر صفيه وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يرفع القواعد ، ويقيم البناء ، وعهد إليه وإلى ابنه الذبيح إسماعيل أن يطهراه من الرجس والوثنية ، ليكون مطافًا للطائفين ، ومُتَعَبَّدًا للعاكفين ، ومصلى للراكعين الساجدين ، فامتثل الخليلُ لأمر الجليلِ ، وشَرَعَ في البناء يعاونه إسماعيل ، يحدوهما الإخلاص لله ، ويرجوان منه المثوبة والقبول ، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة موحدة ، وأن يرسل فيهم رسولًا من أنفسهم يعلمهم الكتاب والحكمة ، ويزكي النفوس من مساوئها ، ويطهر القلوب من أحقادها وزيفها وباطلها وانحرافاتها ، فاستجاب اللهُ له الدعاء ، وحقق الرجاء ، فكانت الأمة المسلمة الموحدة هي الأمة المحمدية خير أمة أخرجت للناس ، وكان رسولها هو حامل اللواء وخاتم الأنبياء ، وصاحب الدين العام الخالد سيدنا ونبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) مجلة منبر الإسلام – العدد ١٢ – السنة ٢٣ – ذو الحجة ١٣٨٥ – مارس ١٩٦٦م .

قال – عز شأنه– : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧– ١٢٩] .

وما أن فرغ الخليل من بناء الكعبة البيت الحرام بمعاونة ابنه إسماعيل حتى أمره الله سبحانه أن يؤذن في الناس بالحج، فقال الخليل: وما يبلغ صوتي يا ربي؟ فقال الله سبحانه: «أذن يا إبراهيم وعليَّ البلاغ»، فصعد على جبل أبي قبيس –جبل بمكة– وقال: «يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا»، فبلغ صوته لأهل الأرض، ومن يوم أن أَذَّنَ الخليل، وحَمَلَتْ أصداء صوته أمواج الأثير إلى أهل الأرض، والناس يقصدون هذا البيت حاجين ومعتمرين، ليحظوا بالمنافع الدينية والدنيوية، ويقضوا حاجات النفس المؤمنة، والروح المشوقة.

إن في هذا البيت لآيات بينات، ودلائل واضحات على عظمة الله وقدرته، منها مقام إبراهيم عليه الصلاة والسلام، والمقام هو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم وهو يبني حين ارتفع عن قامته البناء، فأثرت قدماه فيه، وبقي على هذا آلاف السنين، وفي إلَانة الحجر للخليل – وغوص قدميه فيه إلى الكعبين، وبقاء هذا الأثر إلى يومنا هذا – عبرة وعظة؛ لمن يعتبر ويتذكر، وهذا الحجر هو الذي أمر الله الطائفين – بعد الفراغ من طوافهم حول الكعبة – أن يصلوا عنده ركعتين لله سبحانه، وهي إحدى الموافقات التي وافق فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ربه، روى البخاري في صحيحه عنه أنه قال: «وافقت ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فأنزل الله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن فقلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله ﷺ خيرًا منكن حتى أتيت إحدى نسائه، قالت: يا عمر أما في رسول الله ﷺ ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا

مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم : ٥] ، وقد كانت آثار قدمي إبراهيم في الحَجَرِ باقية إلى عهد الرسول حتى قال أبو طالب :

وموطئُ إبراهيمَ في الصخرِ رطبةً على قدميه حافيًا غيرُ ناعلِ

وفي مُوَطَّأ ابن وهب عن أنس ، قال : « رأيت المقام فيه أصابع إبراهيم وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم » ، وقال ابن جرير الطبري في تفسيره : ولقد ذَكَرَ لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيها فما زالوا يمسحونه حتى اخلولق وانمحى . وكان المقام مُلصقًا بالبيت من عهد إبراهيم واستمر هكذا حتى كان عهد النبي ﷺ وعهد الصديق رضي الله عنه فلما جاء الفاروق عمر أَخَّرَهُ إلى المكان الذي هو فيه الآن ، وكان سيدنا عمر رأى أن إبقاءه في مكانه ملتصقًا بالبيت فيه تضييق على الطائفين ، أو على المصلين ، فوضعه في مكان يرتفع به الحرج ، وتهيأ له ذلك لأنه الذي كان أشار باتخاذه مصلى ، وأول من عمل عليه المقصورة الآن ، ولا يزال هذا المقام موجودًا إلى يومنا هذا محاطًا بسياج من الحديد قبالة باب الكعبة يصلي عنده الطائفون ركعتين ، ومن مزايا هذا البيت وما يحيط به من حرم أن من دخله كان آمنًا ، فلا يتعرض له أحد بسوء تعظيمًا للبيت ، وقد كان الأعرابي في الجاهلية يجد قاتل أبيه أو أخيه في الحرم فلا يهيجه ، وقد جاء الإسلام فأكثر حرمته ، وأعلى من شأنه ، روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : « لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما هجته » ، وروي عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى : ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران : ٩٧] ، قال : من عاذ بالبيت أعاذه البيت ، ولكن لا يؤوى ولا يطعم ولا يسقى ، فإذا خرج أُخِذَ بذنبه ، وقد جعل الشارع الحكيم كل ما في الحرم آمنًا حتى الطير والحيوان بل والجماد وذلك حتى يكون كل من فيه وما فيه آمنًا ، وهذه خصوصية للبيت وما جاوره من يوم أن خلق الله السماوات والأرض إلى يوم القيامة ، روى الشيخان في صحيحيهما – واللفظ لمسلم – عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ... » ، وقال يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حَرَّمَهُ الله يوم خلق السماوات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعْضَد شوكه ، ولا يُنَفَّر

صيده ، ولا تُلتقط لقطته إلا من عرفها ، ولا يُختلى خلاها – حشيشها – فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر –نوع من النبت– فإنه لقينهم – الحداد – ولبيوتهم ، فقال : « إلا الإذخر » .

إن بيتًا هذا بعض شأنه – كرمه الله غاية التكريم ، وخصه بهذه الخصائص – لجدير أن تُشَّد إليه الرحال ، وأن تتحمل في سبيله المشاق ، وأن تبذل الأموال طيبة بها النفوس ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا ، والمسجد الحرام ، ومسجد بيت المقدس » .

إن المسجد الحرام من المساجد التي تتضاعف فيها الحسنات ، وتُمْحَى فيها السيئات ، وتُسكب العبرات ، وتستجاب الدعوات ، روي في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » ، وفي مسند أحمد زيادة حسنة بإسناد حسن : « فإن ذلك أفضل » ، فالمسجد الحرام – عند جمهور العلماء – أفضل المساجد يليه المسجد النبوي ، يليه المسجد الأقصى .

إن الخليل إبراهيم – عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام – لما بنى الكعبة البيت الحرام قال –كما حكاه اللّه عنه بقوله : ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

وقد استجاب الله الدعاء ، فمنذ آلاف السنين والقلوب تهفو إلى هذه البقاع المقدسة ، ولا تزال الآلاف المؤلفة تهوي إلى هذا البيت لتفيء إلى ظلاله ، وتقتبس من أنواره ، وتغترف من بحاره ، وتنفقُ من مال الله – الذي جعلهم مستخلفين فيه – على الفقراء والمساكين من سكانه المجاورين له .

أيها السلمون في مشارق الأرض ومغاربها : إن الحج مؤتمركم الإسلامي الأكبر ، يجمعكم من كل صقع ، ومن كل قطر ، تتذاكرون فيه المصالح المشتركة ، وتتعاونون فيه على البر والتقوى ، وتتشاركون فيه السراء والضراء ، وتعملون فيه على توثيق العلاقات

وتأكيد الصلات، وتحقيق الوحدة والإخاء الإسلامي حسبما صدع الوحي به في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقوله ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضًا»[١]، وقوله: «ترى المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٢].

إن مما لا يقضى منه العجب أن بعض المسلمين يحرصون على الاصطياف والرحلة إلى البلاد الغربية والشرقية وينفقون في هذا السبيل الآلاف بينما يفرطون في هذه الرحلة المباركة حيث المعاني المقدسة: الكعبة - البيت الحرام - والركن والمقام، وزمزم والحطيم، والصفا والمروة، وعرفات والمزدلفة، ومنى والجمرات، فهلموا - أيها المسلمون المشتاقون - إلى البيت العتيق.

* * *

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣)

رحلة إلى الله[1]

كلما أَهَلَّ هلال شوال – من كل عام – أذَّن مؤذن الله أن هلموا أيها المسلمون – في مشارق الأرض ومغاربها – إلى رحلة في سبيل الله ، حيث توجد الكعبة – البيت الحرام – وزمزم والمقام ، ومشاهد الحج المقدسة ، ومغاني الحرمين الحبيبين إلى النفوس المؤمنة ، رحلة فيها تطهير القلوب من أدرانها ، وتزكية النفوس من خبثها ، وتجرد الأرواح مما علق بها من الحجب المادية الكثيفة ، وظلمات الشهوات والمعاصي ، فتعود إلى سالف عهدها صافية قوية محبة للخير والحق والسلام .

هلموا إلى البيت العتيق الذي بناه الخليل إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل قائلين : ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧- ١٢٩] . فكانت الأمة المسلمة هي الأمة المحمدية ، وكان رسولها هو النبي العربي الهاشمي الذي علمهم القرآن ، وجاء بالحكمة وفصل الخطاب ، وزكاهم من عبادة الأوثان ، ورجس الشيطان .

فما أن فرغا من البناء حتى أمر الله خليله إبراهيم أن يعلم الناس بالحج ، فقال : وما يبلغ صوتي يا ربي ؟ فقال الله سبحانه : أذِّن وعليَّ البلاغ ، فقام الخليل على جبل أبي قبيس[2] فنادى بأعلى صوته : « يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا »[3] ، فبلغ صوته إلى أهل الأرض ، وصدق الله حيث يقول : ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟

(١) مجلة الحج السعودية .

(٢) جبل بمكة مشرف على الحرم .

(٣) الحديث رواه الشيخان .

بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٧- ٢٩]. ومن يوم أن أذن إبراهيم عليه السلام، والناس تهفو قلوبهم إلى هذا البيت، ويأتون إليه من كل سهل وحزن، يطوون البيد والفيافي راكبين وراجلين، قاصدين الحج، أو معتمرين، ليشهدوا منافع لهم دينية ودنيوية، يحدوهم الحب الأكيد لبيت الله وظله الظليل في الأرض:

وَمَا حُبُّ الديارِ شَغفن قلبي ولكن حُبُّ مَنْ سَكَنَ الديارا

وهذه آلاف السنين قد خلت ودروب الصحراء ومسالكها تسيل بالألوف الوافدة من كل قطر ومن كل جنس ولون، لا فرق بين أبيض وأسود ولا أحمر وأصفر، ولا بين عربي وعجمي، ولا نبي وغير نبي، ولا ملك ومملوك، ولا غني وصعلوك، كلهم متجردون من زخارف الدنيا، اللهم إلا من إزار ورداء يواريان السوأة، وكلهم يرفعون الصوت بالتلبية مجيبين داعي الله: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك»، وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بوادي الأزرق فقال: «أي واد هذا؟»، فقالوا: وادي الأزرق، فقال: «كأني أنظر إلى موسى عليه السلام هابطًا من الثنية وله جؤار إلى الله بالتلبية، ثم أتى على ثنية هرشى، فقال: «أي ثنية هذه؟» فقالوا: ثنية هرشى، قال: «كأني أنظر إلى يونس بن متى عليه السلام على ناقة حمراء جعدة، عليه جبة من صوف، خطام ناقته خلبة -أي ليف- وهو يلبي».

وروى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس: لما مر رسول الله ﷺ بوادي عسفان حين حج قال: «يا أبا بكر أي واد هذا؟» قال: وادي عسفان، قال: «لقد مر به هود وصالح على بكرات حمر خطمها الليف، أزرهم العباء، وأرديتهم النمار، يلبون يحجون البيت العتيق».

وهكذا نرى أن الحج شعيرة من شعائر الأنبياء والمرسلين، وهو فريضة باقية محكمة إلى يوم الدين، من ذا الذي لا تتوق نفسه إلى زيارة هاتيك البلاد المفضلة التي فيها قامت دعائم الإسلام، ومنها انتشر نوره حتى عم أطراف الأرض، والتي هي حافلة بشتى الذكريات الخوالد التي توحي إلى النفوس المؤمنة أن الحق مهما أوذي وحورب فلا بد أن ينتصر، وأن جهاد النفس والأعداء من صفات الأتقياء، وأن الصبر عند نزول البلاء،

والإذعانَ لأمر الله ولو كان فيه إزهاق الأرواح من سنن الأنبياء ، وأن المسلمين جميعًا وفي بقاع الدنيا إلـههم واحد ، وقبلتهم واحدة ، وأمتهم أمة واحدة في آلامها وآمالها ووجهتها ، وأن أمر المسلمين اليوم لا يقوم إلا بما قام به أولهم : اتحاد في قوة ، وعزم في حزم ، وعدل في حكمة ، وعلم في عمل .

إني حين أرجع بذاكرتي إلى سنوات قضيتها في الحجاز أديت فيها النسكين ، وتنقلت فيها بين الحرمين – مكة والمدينة – تتوارد على نفسي ذكريات ، وصور ومشاهدات ، تحمل في ثناياها عبرًا وعظات ، ولا أدري أيَّ هذه المشاهد أذكر ؟! أأذكر بيت الله وما أضفاه الله عليه من جلال ومهابة يملآن النفس رهبة والقلب خشوعًا ، حتى ليستشعر المسلم – وهو واقف تجاه البيت – عظمة ذي الجلال والكبرياء ، وتمتزج الرهبة بالفرح والسرور ، فلا يملك عينيه من أن تفيضا بالدمع مدرارًا ، ولسانه من أن يجأر بالدعاء مرارًا ، فتحفّ به الرحمات ، وتستجاب الدعوات ، وتغسل الذنوب والخطيئات .

أم أذكر زمزم المعين الثرة المباركة التي أجراها الله بهزمة جبريل[1] وجعلها سقيا لإسماعيل ، وكانت – ولا تزال – شرابًا هنيًا ، وغذاء غذيًا ، وعافية للمتضلعين بما أودعه الله فيها من سر دفين ، وصدق المبلغ عن رب العالمين حيث قال فيها : « إنها طعام طُعْم ، وشفاء سقم »[2] .

أم أذكر عرفات وهواءها العليل ، وماءها النمير ، وساحتها الفسيحة ، وجبلها المعروف بجبل الرحمة ، والصخرات عند السفح التي وقف عندها رسول الله ﷺ راكبًا على ناقته مستقبلًا القبلة مكثرًا من الدعاء ، وعرفات موطن من مواطن الرحمة الإلهية يتجلى الله فيها على أهل الموقف فيكفر عنهم السيئات ، ويرفع لهم الدرجات ، ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : ما أراد هؤلاء » ، وفي مسند عبد الرزاق : « أن الله ينزل إلى السماء الدنيا عشية عرفة فيباهي بهم الملائكة يقول : هؤلاء عبادي ، جاءوني شعثًا غبرًا يرجون رحمتي ويخافون عذابي ولم يروني ؛ فكيف لو رأوني ! » .

---

(١) الهزمة ضربة العقب .

(٢) رواه الطيالسي وأصله في صحيح مسلم من رواية أبي ذر رضي الله عنه .

وما رؤي الشيطان أصغر ولا أدحر من يوم عرفة لما يرى من كثرة غفران الله لمن شاء من حجاج بيته العتيق .

أم أذكر الدار التي فيها تكونت بذرة الإسلام الأولى ، وكانت المتنفس الذي يتنفس فيه المسلمون يوم أن أخذ أهل الشرك بخناقهم وضيقوا عليهم المسالك ، وهي دار الأرقم ابن أبي الأرقم ، والغار الذي منه أشرق النور فعم الكون وهو « غار حراء » ، أو الغار الذي أوى إليه النبي وصاحبه الصديق الأكبر لما خرجا مهاجرين ، وما كان من عناية الله بنبيه ، ووقايته له في أشد المواقف وأحرجها ، حتى أعمى أبصار المشركين ورد كيدهم في نحورهم ، وهو « غار ثور » .

وإذا ما يممت وجهي شطر دار الهجرة تذكرت الدار التي عز فيها الإسلام بعد غربة ، وقوي بعد ضعف ، وصارت له دولة وصولة ، وتركزت فيها الخلافة الرشيدة في أزهى عصور الإنسانية قاطبة ، الدار التي طابت وطاب أهلها ، وآوت الإسلام في غربته ، وسيأرز إليها الإيمان في آخر الزمان ، والتي دفن في ثراها النبي وصحابته البهاليل الأمجاد ؛ الذين قلما أن تجود الدنيا بأمثالهم دينًا وخلقًا وعلمًا وحكمًا وعدلًا ورحمة .

وتذكرت مسجدها النبوي أول مسجد أسس على التقوى ، وثالث المساجد المشرفة في الأرض ، وأحد المساجد التي تشد إليها الرحال من أقاصي البلاد ، وتعدل الصلاة فيه ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد الحرام ؛ المسجد الذي كان في حقب من الزمان رمز الخلافة ومنارة الهدى والعرفان .

وتذكرت البقعة المباركة الطيبة وهي الروضة الشريفة التي ورد فيها قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة »[1] ، والروضة تقع بين المنبر الذي طالما شع منه الهدى والعلم والحكمة من النبي ﷺ في حياته ، والبيت الذي صار فيما بعد مثوى لجثمان النبي الطاهر بعد وفاته ، وجثمان شيخي الإسلام الصديق والفاروق رضي الله عنهما ، وفي الروضة يغض كل إنسان الطرف حياء ، ويغض من صوته تأدبًا ، ويجد فيها ما شاء من راحة القلب وسكن النفس وهدوء الروح .

---

(١) الحديث رواه مسلم .

ولا تنس – يا أخي المسلم – وقد حللت بالبلد الطيب والبقعة المباركة أن تديم التعبد وقراءة القرآن والدعاء ، وأن تكثر من الصلاة والسلام على نبيك المصطفى كفاء ما قدم للمسلمين من هداية ونصح وإرشاد ، وللدنيا كلها من خير وأمن وسلام ، وبحسبك فضلًا أنك كلما سلمت على نبيك رد عليك السلام ، وإنه لشرف عظيم وأمنية عزيزة تتضاءل دونها الأماني ، كما أوصيك وقد حظيت بجوار الرسول الكريم أن تكون محمديًا في عقيدتك وفي خلقك وفي قولك وعملك ، وفي سمتك وهديك .

إني لأعجب من بعض من يتسم بالإسلام يذهب في كل عام إلى بلاد تروج فيها المفاسد والمفاتن ، وينفق فيها الآلاف من الدراهم والدنانير ، ثم يعود خاوي الوفاض مكدود النفس مثقلًا بالأوزار ، بينما يصدف عن الرحلة إلى أحب البلاد إلى الله مع ما فيها من استجمام الفكر وصحة الجسم ، وقضاء الفرض ، وإرضاء الرب ، وغفران الذنب ، والفوز بنعيم الجنة ، وصدق الموحى إليه من ربه : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »[١] ، « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له من ثواب إلا الجنة »[٢] .

فاغتنم أيها المسلم أداء الفريضة وأنت مستطيع سليم معافى ، فإنك لا تدري ماذا ستكون في غدك ، فقد يمرض الصحيح ، وتضل الراحلة ، وتعرض الحاجة ، ألا إنه لا عذر لمعتذر بعد اليوم ، فالسبل ميسرة ، والمواصلات أضحت سهلة مريحة ، ومرافق العيش والحياة الطيبة هناك متوافرة من مسكن وملبس وطعام وشراب ، ولا تعجب أن يوجد من الأرزاق ما يكفي سكان البلاد والحجيج على كثرتهم ، فما ذاك إلا استجابة لدعوة الخليل عليه السلام : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم : ٣٧] .

وأما الأمن فضارب بجرانه في تلك البلاد ، فلا خوف على نفس أو عرض أو مال ، وكل ذلك بفضل تطبيق الشريعة الإسلامية الغراء ولا سيما في الحدود والجنايات ،

---

(١) الحديث رواه البخاري .

(٢) الحديث رواه البخاري ومسلم .

وأشهد الله لقد كنا نسافر اليومين والأكثر في المفاوز الشاسعة وبين الجبال الشاهقة فما هاجنا هائج من حيوان أو إنسان .

وبعد ، فهذه خواطر وذكريان ألمت ، فهاجت الأشواق ، وأثارت كوامن النفس ، ولعلك -أيها المسلم المشوق- وجدت أنك في حاجة إلى أن تجدد نفسك ، وتقضي حاجات فؤادك بالرحلة إلى هذي البقاع المقدسة ، وإنك إن أخلصت النية وشددت العزم وفتحت القلب لواجد -إن شاء ربك- لذة لا تعدلها لذة ، وسعادة أي سعادة ، وعند الأوبة ستحمد الرحلة ، وعند الصباح يحمد القوم السرى .

* * *

الباب الثاني

تفسير بعض آيات الحج

١- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ .

٢- ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ .

٣- ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ .

٤- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ .

٥- ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ .

٦- ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ﴾ .

(١)

تفسير القرآن الكريم[١]

أول بيت وضع للناس

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران : ٩٦، ٩٧] . سبب نزول الآية الأولى أن اليهود قالوا للمسلمين : بيت المقدس قبلتنا وهو أفضل من الكعبة وأقدم ومهاجر الأنبياء ، وقال المسلمون : بل الكعبة أفضل ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ إلخ .

وبذلك تظهر مناسبة هذه الآية لما قبلها من قوله : ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ...﴾ [آل عمران : ٩٣- ٩٥] الآيات ، فيكون الله سبحانه رد كذبة من كذباتهم بعد رد افترائهم وقولهم : إن ما حرم على اليهود إنما حرم من قديم الزمان ، وإن التحريم لم يكن لعصيانهم وظلمهم وإفسادهم ، فبين الله كذبهم وأن الأمر كما قال الله تعالى : ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ...﴾ الآيتان [النساء : ١٦٠، ١٦١] . واحتكم معهم إلى التوراة : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ، وبذلك بهتوا وظهر صدق الله ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ الوضع يطلق على البناء فحسب ، ويطلق على البناء مع التشريف ، وجعله متعبدًا ، والمراد هنا الثاني ؛ لأن الكعبة أول بيت بُني مشرفًا للعبادة ، يطوف الناس حوله ويؤدون صلاتهم ويعتكفون بجواره : ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة : ١٢٥] ، وإلى هذا يشير ما رواه ابن أبي حاتم بسنده عن علي رضي الله عنه في هذه الآية قال : « كانت البيوت قبله ، ولكنه أول بيت وضع لعبادة الله » .

---

(١) مجلة الحج – العدد الثاني والثالث – السنة الرابعة .

والذي ثبت بالكتاب القطعي والسنة الصحيحة أن أول من بنى الكعبة المشرفة الخليل إبراهيم يعاونه ابنه الذبيح إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

فمن أنكر ذلك أو شك فيه فهو مارق من الدين ، خارج من ربقة الإسلام ، وقد روى البخاري ومسلم والإمام أحمد واللفظ له ، عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله أي مسجد وضع أول ؟ قال : « المسجد الحرام » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « المسجد الأقصى » ، قلت : كم بينهما ؟ قال : « أربعون سنة » ، قلت : ثم أي ؟ قال : ثم حيث أدركتك الصلاة فصل فكلها مسجد » .

ولا يعارض هذا ما اشتهر أن باني بيت المقدس داود وابنه سليمان عليهما السلام ، وبينهما وبين الخليل إبراهيم مئات السنين ؛ لأن الصحيح أنهما جددا بناء بيت المقدس لا أنهما ابتدءا بناءه .

﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ : بكة من أسماء مكة ، والعرب تعاقب بين الباء والميم ، ويقولون : ضربة لازب ، ولازم ، قيل : سميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبابرة ما قصدها جبار إلا أهلكته ، وقيل : الناس يتباكون فيها أي يزدحمون ، ومن العلماء من يرى أن بكة اسم للبيت وما حوله ، وما عدا ذلك مكة وقد ذكروا لمكة أسماء كثيرة ، منها : مكة ، وبكة ، والبيت العتيق ، والبلد الأمين ، وأم القرى ، والمقدسة ، والبلدة ، وفي الكتاب العزيز : ﴿وَهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين : ٣] ، وقوله : ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى : ٧] ، وقد وصف الله سبحانه البيت بالبركة فقال : ﴿مُبَارَكًا﴾ ، وذلك لما فيه من الخير الديني والدنيوي . أما الديني فلما يحصل لمن حجه أو اعتمره وعكف عنده وطاف حوله من الثواب وتكفير الذنوب ، وقد ثبت أن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة في غيره من المساجد إلا المسجد النبوي والأقصى ، وأما الدنيوي فلما يحصل لساكنيه المجاورين له من النفع والخير بسبب الأفئدة التي تهوي إليهم ، وما يغدقونه عليهم مما أعطاهم الله كما وصفه أنه هدى فقال : ﴿وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ ؛ لأنه قبلتهم ومتعبدهم يشدون الرحال إليه ويتوجهون إليه خمس مرات في اليوم والليلة ، ثم

وصفه سبحانه بأن فيه من الآيات ما فيه عبرة ومدّكر ، فقال : ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ ، أي دلالات ظاهرات واضحات دالات على عظمة الله وقدرته ، وأن البيت من بناء الخليل إبراهيم ، وأن الله شرفه وعظمه ، من هذه الآيات البينات : « مقام إبراهيم » ، وهو الحجر الذي قام عليه عند بناء البيت ليستعين به على رفع الجدران ، فأثر قدماه فيه ، وبقي على هذا آلاف السنين وفي إلانة الصخر للخليل إبراهيم وغوص قدميه فيه إلى الكعبين وبقاء هذا الأثر إلى وقتنا هذا – وإلى ما بعده – عبرة لمن يعتبر ، وعظة لمن يتدبر ، وقد كانت آثار قدمي الخليل ظاهرة فيه ، وكان هذا معروفًا عند العرب في الجاهلية ، كما قال أبو طالب في لاميته المعروفة :

ومَوطِئُ إبراهيمَ في الصخرِ رطبةً ... على قدميهِ حافيًا غيرُ ناعلِ

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضًا ، روي عن أنس بن مالك أنه قال : « رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه » ، غير أن الناس لما أكثروا التمسح به غير المشروع أذهبوا معالم القدمين ، ولم يبق إلا مكانان غائران وهو الآن محاط بسياج من حديد يصلي الناس عنده ركعتي الطواف ، ولا تصل إليه أيديهم ، وقد أمر الله بالصلاة عنده ، وهي إحدى موافقات الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، روي عنه في الصحيح أنه قال : « وافقت ربي في ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى » ، فأنزل الله : ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ [البقرة : ١٢٥][(١)] ... الحديث ، وقد كان المقام ملصقًا بجدار الكعبة بين الباب والحجر ، واستمر الأمر على ذلك حتى جاء الفاروق عمر بن الخطاب أحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، وأحد الرجلين الذين قال فيهما رسول الله ﷺ : « اقتدوا باللذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر »[(٢)] ، فأخره إلى مكانه الذي فيه الآن ، ولم ينكر عليه ذلك أحد من الصحابة ، وكان قصده أن لا يضايق المصلون عنده الطائفين ، ولا يشوش الطائفون على المصلين ، ونعم ما فعل صاحب الموافقات ، وقد رويت في ذلك آثار صحيحة عن الصحابة والتابعين منها أثر عائشة رضي الله عنها قالت : « المقام كان زمان رسول الله ﷺ ،

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم .

(٢) الحديث رواه أحمد والترمذي .

وزمان أبي بكر رضي الله عنه ملتصقًا بالبيت ، ثم أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه »[١] وأخرج الأزرقي في تاريخ مكة عن ابن أبي مليكة أن موضعه الذي به اليوم هو موضعه في الجاهلية وفي عهد النبي ﷺ ، وأبي بكر وعمر ، إلا أن السيل ذهب به في خلافة عمر ، فجعل في وجه الكعبة حتى قدم عمر فرده بمحضر من الناس ، ومهما يكن من شيء فقد بقي هذا الأثر إلى يومنا هذا ، ولا يزال الطائفون يصلون عنده بعد الطواف ركعتين امتثالًا لأمر الله سبحانه ثم ذكر الله من الآيات البينات على شرف البيت و حرمته أن من دخله كان آمنًا ، فقال سبحانه : ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ ، فلا يتعرض له أحد بسوء تعظيمًا للبيت واحترامًا له ، وكان هذا استجابة لدعاء الخليل إبراهيم حيث قال كما حكى الله سبحانه : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة : ١٢٦] ، وقد تأصلت هذه الحرمة من قديم الزمان ، وكان الأعرابي الذي جبل على الانتقام والأخذ بالثأر يجد قاتل أبيه أو أخيه في الحرم ، فلا يهيجه ، ولا يتعرض له بسوء ، وقد أكد الله هذه الحرمة فجعل كل من في الحرم آمنًا حتى الطير والشجر ؛ لتتربى في النفوس ملكة الأمان والسلام ولا يخطر لها التعدي على الغير بحال من الأحوال ، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح : « وأن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، فإنه لم يحلَّ القتال فيه لأحد قبلي ، ولم يحل لي إلا في ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا لِمُعَرِّف ولا يختلي خلاه ، فقال العباس : إلا الإذخر يا رسول الله ، فإنه لبيوتهم وقينهم ، فقال : إلا الإذخر »[٢] ، وقد ذهب أهل العلم إلى أن من وجب عليه قصاص أو حد فالتجأ إلى الحرم فلا يستوفى منه ، ولكنه لا يطعم ولا يبايع ولا يشارى حتى يخرج فيقتل ، وبه قال ابن عباس ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، وذهب البعض الآخر إلى أن القتل الواجب بالشرع يستوفى فيه أما إذا ارتكبت الجريمة في الحرم ؛ فيستوفى فيه عقوبته بالاتفاق .

وقيل : إن معنى الآية : ومن دخله معظمًا له متقربًا إلى الله بعبادته كان آمنًا يوم

---

(١) الحديث رواه البيهقي .

(٢) الحديث رواه البخاري ومسلم .

القيامة من النار : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ، قُرِئَ حِج ، وحَج ، بكسر الحاء وفتحها ، والفتح لغة أهل الحجاز ، وهذه الآية هي الدالة على وجوب الحج عند جمهور العلماء ، وقد وردت الأحاديث المتكاثرة بأنه أحد أركان الإسلام ، ودعائمه ، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعًا ضروريًّا وإنما يجب على المكلف في العمر مرة واحدة بالنص والإجماع ، وما زاد فهو تطوع يثاب عليه الشخص ، ويؤجر أعظم الأجر .

وقد روى الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة : خطبنا رسول الله ﷺ ، فقال : « أيها الناس إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا » ، فقام رجل فقال : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا ، فقال رسول الله ﷺ : « لو قلت نعم لوجبت ، ولما استطعتم ، ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه » ، وقد ورد من طرق كثيرة عن رسول الله ﷺ تفسير السبيل بالزاد والراحلة إلا أن في بعض الطرق مقالًا وضعفًا ، فمن قدر على الزاد والراحلة – وكان مستطيعًا بنفسه ليس به مرض – وجب عليه أداء الحج ، ومن كان ذا مال وسعة ولكن به مرض لا يرجى برؤه ، أو به زمانة ، فعليه أن يستأجر من يحج عنه ، ما دام قادرًا على ذلك ، وقد ورد في فضل الحج أحاديث كثيرة منها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » ، وعنه أيضًا أن رسول الله قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » . وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت : يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد ؟ فقال : « لَكُنَّ أفضل الجهاد حج مبرور » ، إلى غير ذلك من الأحاديث التي تدل على فضل الحج ، وأثره في غفران الذنوب ، ومحو الخطايا .

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ، أي من كفر بفرضية الحج ، فلا يضر إلا نفسه ؛ لأن الله غني عن العالمين ، وإنما كلف الناس بالتكاليف الشرعية لمصلحتهم وفائدتهم الدينية والدنيوية ، وقال بعض المفسرين : المراد بقوله : ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ، أي ولم يحج وهو مستطيع ، فوضع الله ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ موضع « ومن لم يحج » تغليظًا على تارك

الحج عند الاستطاعة وزجرًا له وردعًا وتشبيهًا لحاله بحال الكفار ، وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « من ملك زادًا وراحلة ولم يحج ، فليمت إن شاء يهوديًا وإن شاء نصرانيًا ، وذلك بأن الله يقول : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ »[١] ، إلا أن إسناده لا يخلو من ضعف ، وصح عن عمر رضي الله عنه أنه قال : من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهوديًا أو نصرانيًا[٢] ، وروي عنه أنه قال : لقد هممت أن أبعث رجالًا إلى هذه الأقطار فينظروا إلى من كان عنده جدة فلم يحج ، فيضربوا عليهم الجزية ، ما هم بمسلمين ، ما هم بمسلمين[٣] .

فيا أيها المسلمون ، ويا أيتها المسلمات هذا الحج ، وهذا فضله ، قد تيسرت أسبابه ، وتيسرت طرقه ، فالطرق مأمونة ، والمواصلات ميسورة ، فما على المستطيعين إلا أن يسارعوا إلى أدائه ، فالإنسان لا يدري ماذا هو صائر إليه غدًا ، والموت أقرب إلى الإنسان من حبل وريده ، فاغتنموا الفرصة ، وانتهزوها ، يكفر الله خطاياكم ، ويرفع درجاتكم ، ويدخر لكم ذلك إلى يوم لا ينفع الإنسان فيه إلا عمله ، وما قدمت يداه .

* * *

---

(١) الحديث رواه الترمذي .

(٢) الحديث رواه البيهقي ، وابن أبي شيبة .

(٣) الحديث رواه سعيد بن منصور في سننه .

(٢)

تفسير بعض آيات الحج[1]

بيان مناسك الحج والعمرة

قال الله سبحانه وتعالى في سورة البقرة : ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة : ١٩٦] .

« الشرح والبيان » :

تكلمت في مقال سابق عن بناء البيت وفضله وفرضية الحج في الناس بقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران : ٩٧] ، وبالأحاديث الصحيحة المتكاثرة ، والآن نبين معنى هذه الآية ليكون المسلم على بينة من مناسك الحج والعمرة ، فأقول –ومن الله التوفيق– :

قال الله تعالى : ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ إلخ . **الحج** : أفعال مخصوصة من وقوف بعرفة ، وطواف وسعي وإحرام وغيرها في أشهر مخصوصة معلومة .

والعمرة : أفعال مخصوصة من إحرام وطواف وسعي وحلق أو تقصير وهي تؤدى في جميع أوقات السنة ، والمعنى « ائتوا بهما تامّين » بأركانهما وشروطهما وسائر أفعالهما المعروفة شرعًا قاصدين وجه الله سبحانه وتعالى من غير إخلال بشيء من المناسك وقيل إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك روي ذلك عن علي وابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم ، وقيل أن تفرد لكل منهما سفرًا خاصًا ، وحكم الحج : الفرضية – لمن لم يحج – فإن حج مرة صار الزائد تطوعًا .

وأما العمرة فذهب الإمام الشافعي والإمام أحمد رحمهما الله إلى أنها واجبة ، وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنها سنة ووافقه الإمام مالك ، وقد استدل القائلون بالوجوب

(١) مجلة الحج – العدد الرابع – السنة الرابعة – ذو الحجة ١٣٦٩هـ – سبتمبر ١٩٥٠م .

بهذه الآية ، والحق أن الآية لا تدل ، فإن الأمر بإتمام فعل من الأفعال ليس أمرًا بأصله ولا مستلزمًا له ، فالآية تعرضت للأمر بإتيانهما تامّين فحسب ، ومن رحمة الله وتيسيره وحكمته العالية أن جعل للناس نسكًا في جزء من السنة يجتمعون فيه جميعًا ليقضوا منافع لهم دينية ودنيوية ، وجعل نسكًا في جميع أيام السنة وهي العمرة لمن يريد التشرف بقصد البيت والتمتع بخيراته وبركاته .

قال تعالى : ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ يقال حصره العدو وأحصره إذا حبسه ومنعه من المضي لوجهه مثل صده وأصده ، واستيسر : بمعنى تيسر كاستكبر ، واستعظم : بمعنى تكبر وتعظم ، والهدي : جمع هدية كتمر وثمرة ، قال أحمد بن يحيى : « أهل الحجاز يخففون الهدي ، وتميم تثقله ؛ فيقولون : هديّة وهديّ بتشديد الياء كمطيّة ومطيّ قال الشاعر :

حلفتُ بربِ مكةَ والمُصلَّى وأعناقِ الهدي مُقلَّداتِ

وقد اتفق الأئمة على حصول الإحصار بسبب العدو أما حصوله بسبب المرض وسائر الموانع ففيه خلاف ؛ فالإمام الشافعي ومالك على أن الإحصار لا يكون إلا بالعدو ، والإمام أبو حنيفة ذهب إلى أن الإحصار يكون به وبغيره ، وينصر مذهب الإمام أبي حنيفة ما عليه جمهور أهل اللغة من أن الإحصار يكون بالعدو وغيره من الموانع ، والهدي : ما يهدى إلى بيت الله تعالى تقربًا إليه سبحانه ، وأعلاه بدنة ، وأوسطه بقرة ، وأدناه شاه ، فمن أحصر وأراد أن يتحلل من حجه أو عمرته فعليه هدي مما تيسر من هذه الأصناف قال تعالى ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ﴾ ، أي أن التحلل من الإحرام الذي هو بالحلق لا يكون حتى يبلغ الهدي مكانه الذي يذبح فيه ، وقد اختلف الأئمة في محله الذي يذبح فيه ؛ فالإمام أبو حنيفة ذهب إلى أن محله هو الحرم ؛ فعليه أن يرسل بهديه إلى الحرم ، فإذا أعلم أنه ذبح تحلل بالحلق ، وذهب الإمام الشافعي وغيره إلى أن محله هو حيث يكون الإحصار – حلًّا كان أو حرمًا – وما يشهد للإمام الشافعي أن النبي ﷺ لما حُصر عام الحديبية ذبح حيث أحصر ، والحديبية ليست من الحرم ، والمسألة بأدلتها مفصلة في كتب الفروع قال تعالى : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا﴾ ، أي مرضًا محوجًا إلى الحلق ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ – كجراحة أو قمل مثلًا – ثم حلق

رأسه فعليه فدية ، وهي قوله تعالى : ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ ، بيان لجنس الفدية ، وأما قدرها فصيام ثلاثة أيام أو صدقة بثلاثة آصع على ستة مساكين ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ ، وهي شاة ؛ وهو مخير بين هذه الثلاثة ، فمن فعل واحدًا منها أجزأه ، وقد ثبت في صحيح البخاري عن كعب بن عجرة قال : حملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي ، فقال لي عليه السلام : « ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا ، قال : ألا تجد شاة ؟ » ، قال : لا ، قال : « صم ثلاثة أيام ، أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام ، واحلق رأسك » ، قال كعب : فنزلت الآية فيَّ خاصة ، ولكم عامة ، وهذا الحكم لمن حلق رأسه بعذر ، أما من حلق بغير عذر ، فعند الإمامين أبي حنيفة والشافعي الواجب عليه دم ، وعند الإمام مالك حكمه حكم من فعل ذلك بعذر ، والآية حجة عليه .

قال تعالى : ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ﴾ ، أي : من الإحصار ، أو المعنى : إذا كنتم في حال أمن وسعة ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ ، المراد فمن انتفع بالتقرب إلى اللّـه تعالى بالعمرة قبل الانتفاع بالتقرب إلى الله بالحج في أشهره ، فعليه ما استيسر من الهدي ، وذلك بأن يحرم بالعمرة في أيام الحج ، فإذا انتهى من أفعال العمرة تحلل حتى يأتي يوم التروية فيحرم بالحج ، وهذا تمتع مشروع ، وإنما سمي من يفعل ذلك متمتعًا ؛ لأنه تمتع بمحذورات الإحرام فيما بين تحلله من العمرة إلى وقت إحرامه بالحج ، وهذا المتمتع عليه هدي شكرًا للّه سبحانه وتعالى على توفيقه إلى أداء هذين النسكين في أشهر الحج ، وهو دم شكر – عند الإمام أبي حنيفة – فله أن يأكل منه ، ووقت ذبحه أيام النحر ، وعند الإمام الشافعي : دم جبران فليس له أن يأكل منه ، ويجوز عنده تقديم الذبح عن يوم النحر .

قال تعالى : ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ : أي الهدي لعدم وجوده ، أو وجد ولكن لم يجد ثمنه ؛ ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ ، أي صيام ثلاثة أيام في أشهر الحج ، قيل : المستحب أن يصوم يومًا قبل يوم التروية ويوم عرفة ، وقيل : بل المستحب أن يصوم في أيام الحج بحيث يكون يوم عرفة مفطرًا ، فإن لم يصم قبل يوم النحر ؛ فقيل : يصوم أيام التشريق ، وبه قال مالك وأحمد ، وهو أحد قولي الشافعي ، وقيل : بل يصوم بعد أيام

التشريق ، وهو رواية عن أحمد ، والقول الآخر للشافعي ، وعند الإمام أبي حنيفة : إذا لم يصم الثلاثة قبل يوم النحر وجب الهدي ، وأما صوم الأيام السبعة ؛ فبعد الفراغ من أفعال الحج عند بعض الأئمة كالإمام أبي حنيفة ، وبعد الرجوع إلى الأهل عند البعض الآخر ، كالإمام الشافعي وهذا مبني على الاختلاف في تفسير ﴿رَجَعْتُمْ﴾ ، فمن فسرها بالفراغ من أعمال الحج أجاز صوم السبعة ، ولو في مكة ، ومن فسرها بالرجوع إلى الأهل لم يجز الصوم بعد الفراغ من الحج ، وقيل : الوصول إلى الأهل كالإمام الشافعي ، ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ ، فذلكة حسابية ، وفائدتها أن لا يتوهم أن الواو بمعنى أو ، وأنّ التخيير بين الثلاثة أو السبعة فبذكر لفظ العشرة زال التوهم ، ثم زاد الأمر توكيدًا بقوله : ﴿كَامِلَةٌ﴾ ، للمبالغة في المحافظة على العدد ، وقيل : معنى كاملة أي في الثواب والأجر .

قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ المشار إليه قيل : هو التمتع وإليه ذهب أبو حنيفة ، وقيل : ما يلزم التمتع من الهدي ، أو بدله وإليه ذهب الشافعي ، وقد اختلف في المراد بحاضري المسجد الحرام ، ففسره الإمام أبو حنيفة بأنهم أهل المواقيت ومن دونهم ، فهؤلاء لا تمتع لهم ، وفسره الإمام الشافعي بأنهم من كانوا من الحرم على أقل من مسافة القصر ، وفسره الإمام مالك بأنهم أهل مكة ؛ فهؤلاء لا يجب عليهم الهدي ولا بدله .

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ : بالمحافظة على أوامره واجتناب نواهيه ، لاسيما الحج ومشاعره .

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ : لمن عصاه وخالف أمره وانتهك حرماته ، وفي إظهار الاسم الجليل في الموضعين تربية للمهابة ، وإدخال الروعة في النفوس ؛ مما يساعد على سرعة الامتثال والإذعان والقبول ، نسأل الله أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

* * *

(٣)

الأذان بالحج

تفسير بعض آيات الحج[1]

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج : ٢٧ - ٣٣] .

الشرح والبيـــان :

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ : ﴿وَأَذِّن﴾ : أعلم وناد ، ﴿رِجَالًا﴾ جمع راجل ، كقيام جمع قائم ، ذكر الله سبحانه في آية أخرى أنه أمر نبيه الخليل إبراهيم ببناء البيت المحرم -الكعبة- فبناه هو وولده الذبيح إسماعيل أبو العرب وجد النبي ﷺ الأعلى ، فلما فرغ الخليل من البناء أمره أن ينادي في الناس بفرض الحج ، فنادى فسمعه أهل السماء والأرض ، ومن يومها وكثير من الناس يستجيبون لهذا النداء بحج البيت ، روى ابن جرير والحاكم وصححه والبيهقي عن ابن عباس قال : « لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قال : رب قد فرغت ، فقال الله : أذن في الناس بالحج ، قال : يا ربي وما يبلغ صوتي ؟! قال : أذن وعلي البلاغ ، قال : رب كيف أقول ؟ قال : قل يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق ، فسمعه أهل السماء والأرض ، ألا ترى أنهم يجيبون من

---

(١) مجلة الحج - العدد ٣ سنة ٥ - شوال ١٣٧٠هـ - يوليو ١٩٥١م.

أقصى البلاد ويلبون » ، وفي رواية عن ابن عباس أنه عليه السلام صعد أبا قبيس[١] ، فوضع أصبعيه في أذنيه ثم نادى : يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فأجيبوا ربكم ، فأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال وأرحام النساء[٢] .

قال تعالى : ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ : « الضامر » : البعير المهزول أتعبه بعد الشقة ، وهو يطلق على المذكر والمؤنث ، « الفج » : الطريق ، « العميق » : البعيد ، والمعنى يأتوك مشاة وركبانًا على كل بعير أهزله طول السفر من أقاصي القرى والأمصار ، واستدل بالآية على جواز المشي والركوب في الحج ، وقد أخذ بعض الأئمة من تقديم لفظ رجالًا على أن المشي في الحج أفضل ، قال ابن كثير في تفسيره : « والذي عليه الأكثرون أن الحج راكبًا أفضل اقتداء برسول الله ﷺ ، فإنه حج راكبًا مع وفور قوته » .

ثم قال تعالى : ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ : متعلق بقوله : يأتوك ، أي ليحضروا منافع لهم عظيمة الخطر ؛ كثيرة العدد ، وهي شاملة للمنافع الأخروية والدنيوية ؛ فأما الأخروية : فغفران الذنوب والفوز برضوان الله ، وأما الدنيوية : فمنها ما يصيبون من لحوم البُدن والذبائح والتجارات ، ومن أجل المنافع : التواد والتعارف ، وإحكام عروة الإسلام الوثقى بالاجتماع في هذا المشهد الخالد العظيم ، والتشاور فيما يصلح المسلمين ويعود عليهم بالعزة والقوة ، ومنها تطهير القلوب من أدرانها ، وتزكية النفوس من الكبر والأخلاق المرذولة وحملها على التواضع والعفو والتسامح ، ومديد المعونة إلى الضعفاء ، ومنها تربية ملكة الطاعة والإذعان في النفوس ؛ فيسهل عليها اتباع الشرع بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات .

قال تعالى : ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ : « الأنعام » : هي الإبل والبقر والغنم ، والمراد بذكر الله التكبير والتهليل ، والمراد بالأيام المعلومات أيام عشر ذي الحجة وإلى هذا ذهب الإمام أبو حنيفة وغيره ؛ أي ليشكروا الله ويعظموه في هذه الأيام على ما رزقهم ، وقد ورد في فضل هذه العشر

(١) جبل معروف بمكة .

(٢) الحديث رواه ابن أبي حاتم .

أحاديث كثيرة منها ما رواه الإمام أحمد بسنده أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير»، وقيل: المراد بها يوم النحر وثلاثة بعده، وقيل: يوم النحر ويومان بعده، وإلى هذا ذهب بعض الأئمة، والمراد بالذكر على هذا التسمية والتكبير على الذبائح.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾: الأمر للإباحة لا للوجوب، وهو الذي عليه جمهور العلماء، وذلك بناء على أن الأكل كان منهيًا عنه شرعًا، والأمر بعد النهي يقتضي الإباحة، وقيل: الأمر للندب؛ لما فيه من مساواة الفقراء ومواساتهم، وقد اتفق العلماء على أن الهدي إذا كان تطوعًا يجوز للمهدي أن يأكل منه، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ لما نحر هديه أمر من كل بدنة ببضعة فتطبخ فأكل من لحمها وحسى من مرقها؛ واختلفوا في الهدي الواجب بالشرع كدم التمتع والقران وجزاء الصيد ونحوها، فذهب قوم إلى أنه لا يجوز أن يأكل منه، وبه قال الشافعي، وقال ابن عمر: لا يأكل من جزاء الصيد والنذور، ويأكل مما سوى ذلك، وإليه ذهب أحمد وغيره، وقال مالك رحمه الله: يأكل من هدي التمتع ومن كل هدي وجب عليه إلا من فدية الأذى وجزاء الصيد والمنذور، وذهب الإمام أبو حنيفة وأصحابه إلى أنه يأكل من هدي التمتع والقران، ولا يأكل من واجب سواهما كالدم الذي يلزمه جبرًا لشيء تركه.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾: ﴿الْبَائِسَ﴾: الفقير الذي اشتد بؤسه، أي فقره أو الفقير الزَّمِن الذي جمع بين الفقر والزمانة، كالعرج والمرض، قال تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾: «التفث»: الوسخ والقذارة من طول الشعر والأظفار والإغبرار، فقضاء التفث: إزالة هذه الأشياء بالحلق، وقص الشارب، ونتف الإبط، وقص الأظفار، وإزالة الأوساخ، ولبس الثياب؛ وذلك عند التحلل من الإحرام.

﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾: أي ليقضوا حجهم وما يلزم فيه من المناسك، وقيل: المراد ما ينذرونه من أعمال البر في حجهم.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: المراد به الطواف الركن، وهو طواف الإفاضة يوم النحر بعد الرمي والذبح والحلق، وهو آخر المناسك، وهكذا صنع رسول الله ﷺ؛ فإنه لما رجع إلى منى يوم النحر بدأ برمي الجمرة، فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه

وحلق رأسه ، ثم أفاض فطاف بالبيت ، والمراد بالبيت العتيق : الكعبة ، وسميت بذلك ؛ لأنها أول بيت مشرف وضع في الأرض ، قال تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران : ٩٦] . وقيل : لأن الله أعتقه من أيدي الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه وما قصده من جبار إلا أهلكه الله ، وكفى بذلك شاهدًا ما حدث لأبرهة وجيشه . قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾أي لأمر ذلك يعني ما ذكر من أعمال الحج ، وهذا اللفظ وأمثاله من أسماء الإشارة يذكر ويراد به الفصل بين كلامين أو بين وجهي كلام واحد ، والمشهور من ذلك هذا ، قال تعالى : ﴿هَٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ﴾ [ص : ٥٥] . وقد كثر هذا الأسلوب في كلام العرب وعبارات المؤلفين ، وهو من الاقتضاب القريب من التخلص لملاءمة ما بعده لما قبله ، والمراد بحرمات الله ما أمر به من المناسك ، وقيل : جميع التكليفات الشرعية من مناسك الحج وغيرها ، وتعظيمها : بالعلم بوجوب مراعاتها والعمل بمقتضى هذا العلم ، وتعظيمها خير للمعظم عند ربه لأنه يثاب عليه يوم القيامة قال تعالى : ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ ، أي أحل لكم ذبحها وأكلها لأن الذوات لا توصف بحل ولا حرمة ، والمراد بقوله ﴿مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ هو ما ذكر في آية المائدة ؛ وهو قوله تعالى : ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة : ٣] الآية .

ثم قال تعالى : ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ : ﴿الرِّجْسَ﴾ : القذر والنجس ، و﴿مِنَ﴾ بيانية ، أي الرجس الذي هو الأوثان وهو عبادتها ، وفي هذا التعبير من التنفير عنها ما فيه . ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ : المراد به مطلق الكذب فيكون تعميمًا بعد تخصيص ، فإن عبادة الأوثان رأس الزور ، وقيل : المراد به شهادة الزور ، فقد روي عن ابن مسعود أنه ﷺ صلى صلاة الصبح فلما انصرف قال : « عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ثلاثًا ، ثم تلا هذه الآية »[1] . وشهادة الزور تنصر الظلم وتقضي على الحق ، وتؤدي إلى أكل أموال الناس بالباطل ، وقد جعلها النبي من أكبر الكبائر ، فقال

---

(١) رواه عبد الرزاق وابن أبي شيبة .

فيما روي في الصحيح : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟! قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئًا فجلس ، وقال : ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت »[1] . وقال تعالى : ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ : أي مائلين عن كل دين باطل إلى الدين الحق غير مشركين به شيئًا من الأشياء ، ثم ضرب الله سبحانه مثلًا للمشرك في ضلاله وهلاكه وبعده عن الهدى فقال : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ : ﴿خَرَّ﴾ : بمعنى « سقط » ، الخطف : الأخذ بسرعة ، ﴿تَهْوِى بِهِ﴾ : أي تذهب به ، ﴿سَحِيقٍ﴾ : بعيد مهلك ، شبه الله سبحانه حال المشرك في تناوش الأفكار الضارة له وصيرورته إلى الهلاك الذي لا منجى له منه بحال رجل سقط من السماء فتخطفته الطير في حواصلها فصار مزاعًا ، أو عصفت به الريح وتخبطته حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة فعاقبته في كلا الحالين الهلاك ولا محالة ، وهذا التشبيه من تشبيهات القرآن الرائعة السامقة ترنوا إليها الأنظار وتنقطع دونها الأعناق ، قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ ، قال ابن عباس : شعائر الله : البدن والهدي ، وأصلها من الإشعار ، وهو : إعلامها ليعلم أنها هدي وتعظيمها واستحسانها واستسمانها ، والله سبحانه طيب لا يقبل إلا طيبًا ، ولذلك لا تقبل في الهدايا والضحايا العوراء والعرجاء والمريضة ونحوها من العيوب التي تضر باللحم وتقلل من الثمن ، وكان النبي ﷺ وصحابته يختارون الهدايا من خير النعم ، وكان ابن عمر يسوق البدن مجللة بالقباطي[2] ، فيتصدق بلحومها وبجلالها ؛ ولا عجب فإن تعظيمها من أفعال المتقين ، والتقوى محلها القلوب ، فإذا ثبتت فيها وتمكنت ظهر أثرها في سائر الأعضاء ، قال تعالى : ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾المراد بالمنافع : درها ونسلها ، وصوفها وركوبها ، ومعنى ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ : إلى وقت أن تسمى هديًا ، وحينئذ ليس لهم شيء من ذلك ، وإلى هذا ذهب الإمام أبو حنيفة ، فإن المُهْدِي عنده لا يملك منافع الهدي بعد التسمية والإيجاب ، نعم يجوز الانتفاع عند الضرورة ، وعليه يحمل ما روي

(١) البخاري ومسلم .

(٢) القباطي – بضم القاف وفتحها –: ثياب حسنة تنسب إلى مصر .

أن رسول الله مر برجل يسوق هديه فقال له : « اركبها » ، فقال : إنه هدي ، فقال : « اركبها ويلك »[١] ، وقيل : المعنى : لكم في الهدايا منافع بعد إيجابها وتسميتها هديًا بأن تركبوها وتشربوا ألبانها إلى أن تنحر ويتصدق بلحمها ، وإليه ذهب الشافعي .

قال تعالى : ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ : أي محل نحرها إذا انتهت إلى البيت العتيق ، والمراد به الحرم كله لأن النحر إنما هو بمنى ، وفي حديث جابر في حجة الوداع أن رسول الله ﷺ قال : « نحرت هـٰهنا ومنى كلها منحر ؛ فانحروا في رحالكم »[٢] .

* * *

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم .

(٢) الحديث رواه مسلم .

(٤)

تفسير بعض آيات الحج[1]

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج : ٣٤- ٣٧] .

الشرح والبيـان :

يخبر الله سبحانه أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعًا في جميع الملل فقال : ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ : قرئ بفتح السين وكسرها ، فالمفتوح على معنى المصدر ، أي ذبح يتقربون به إلى الله سبحانه ، والمكسور على معنى موضع نسك ، وهي القرابين ، فالإسلام لم يكن بدعًا لمّا أوجب على المسلم الهدايا والضحايا وسائر ما يتقرب به إلى الله ، إنما هذه سنة الله في جميع الملل أن يشرع لهم شعائر يتقربون بها إلى الله سبحانه وتعالى ، وقد بين الله سبحانه أن العلة في ذلك أن يذكروا اسم الله وحده على ما يذبحون ، فقال : ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ : المراد بذكر اسم الله عليها التسمية والتكبير عند الذبح ، و« الأنعام » : الإبل والبقر والغنم ، وقيد البهيمة بالأنعام ؛ لأن من البهائم ما ليس من الأنعام كالخيل والبغال والحمير ، فهي من البهائم وليست من الأنعام ، وقد ثبت في الصحيحين عن أنس قال : « أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين ، فسمى وكبر ووضع رجله على صفاحهما » ، وروى الإمام أحمد بسنده عن زيد بن أرقم ، قلت :

---

[1] مجلة الحج - العدد الرابع - السنة الخامسة - ذو القعدة سنة ١٣٧٠هـ - أغسطس ١٩٥١م .

وقالوا : يا رسول الله ما هذه الأضاحي ؟ قال : « سنة أبيكم إبراهيم » ، قالوا : ما لنا منها ؟ قال : « بكل شعرة حسنة » ، قالوا : فالصوف ؟ قال : « بكل شعرة من الصوف حسنة »[١] .

ثم قال تعالى : ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟﴾ : أي معبودكم واحد لا رب غيره ، ولا معبود سواه ، فخصوه بذكر اسمه وحده على الذبائح ، وإذا كان الله إلهًا واحدًا فيجب الانقياد له والخضوع والاستسلام لحكمته وطاعته ، وهذا معنى فله أسلموا ، قال تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ : البشارة الإخبار بالشيء الحسن ؛ المخبتون : هم الخاشعون المتواضعون من الخبت ؛ وهو المطمئن من الأرض ، وقيل : هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظلموا لم ينتصروا ، ثم وضح الله سبحانه صفات المخبتين ، فقال : ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الوجل : الخوف ، أي : خافت قلوبهم لذكر الله سبحانه ، وذلك لما حل في قلوبهم من العلم بالله والخشية منه ، ثم بين وصفًا لهم آخر فقال : ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ : أي على ما أصابهم من البلاء والمحن والمكروه ، وقد أجزل الله لهم الثواب ، فقال : ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر : ١٠] ، وأثنى على المسترجعين عند المصائب فقال : ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة : ١٥٥- ١٥٧] .

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من قال عند المصيبة إنا للّه وإنا إليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها ، إلا آجره الله وأخلف له خيرًا منها »[٢] ، وفي الحديث الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء فالأمثل فالأمثل ، وإنما يبتلى الرجل على حسب دينه »[٣] ، قال تعالى في وصفهم : ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ : أي المداومين عليها المواظبين لا يتركون صلاة ولا يؤخرونها عن وقتها مأخوذ من قولهم :

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده (٣٦٨/٤) ، وإسناده ضعيف جدًا : فيه أبو داود - وهو نفيع بن الحارث الأعمى الكوفي - متروك ، وعائذ اللّه المجاشعي ضعيف . اهـ . من كلام الأرنؤوط في تعليقه على المسند ، وقال الشيخ الألباني رحمه اللّه : موضوع ، وأورده في الضعيفة برقم (٥٢٧) . [الناشر] .

(٢) الحديث رواه مسلم .

(٣) الحديث رواه أحمد .

أقام على الشيء إذا داوم عليه ، وقيل : معنى إقامة الصلاة : أداؤها كاملة مستوفاة بأركانها وشروطها وآدابها ، مع الخشوع والخضوع من قولهم : أقام العود ؛ إذا قومه وعدله .

ثم قال تعالى : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ : المراد بالإنفاق الزكاة الواجبة ، وقيل : ما هو أهم من الزكاة الواجبة والصدقة والإنفاق على الأهل والأقارب ، وقد بين الله في سورة أخرى أن هذه صفات المؤمنين المخلصين ، فقال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال : ٢- ٤] ، ثم قال تعالى ممتنًا على عباده :

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ : البدن هي الإبل جمع بدنة ، سميت بذلك لعظمها وضخامتها ، وإطلاقها على البعير متفق عليه ، وأما إطلاقها على البقرة فعلى قولين أصحها أنه يطلق شرعًا ، وجمهور العلماء على أن البدنة تجزئ عن سبعة والبقرة عن سبعة ، ومعنى ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي أعلام دينه .

قال تعال : ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ : النفع في الدنيا ، والأجر في العقبى ، روي هذا عن ابن عباس ، وروى ابن ماجه والترمذي وحسنه ؛ عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « ما عمل ابن آدم يوم النحر عملًا أحب إلى الله من إهراق دم ؛ إنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفسًا »[(١)] . وروى الدارقطني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد »[(٢)] .

وعن إبراهيم النخعي تفسيرها : من احتاج إلى ظهرها ركب ، ومن احتاج إلى لبنها شرب[(٣)] .

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه . وقال الحاكم : صحيح الإسناد ، فتعقبه الذهبي بقوله : قلت : سليمان واهٍ وبعضهم تركه . اهـ . وسليمان هو ابن يزيد ، وقال المنذري : رووه كلهم من طريق أبي المثنى وهو واهٍ وقد وثق ، وقال البغوي عقبه : ضعفه أبو حاتم جدًا ، ولذا أورده الإمام الألباني رحمه الله في الضعيفة برقم (٥٢٦) . [الناشر] .

(٢) الحديث رواه الدارقطني . قال الشيخ الألباني في « الضعيفة » (٥٢٤) : ضعيف جدًا ، رواه ابن حبان في المجروحين ، وفيه إبراهيم بن يزيد الخوزي ضعيف جدًا . اهـ . [الناشر] .

(٣) انظر تفسير ابن كثير .

ثم قال تعالى : ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾ : ذكر الله عليها يكون عند النحر ، ومعنى صواف ، قائمات على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى ، وهذه هي السنة ، ففي الصحيحين عن ابن عمر أنه أتى على رجل أناخ بدنة ، وهو ينحرها ، قال : ابعثها قيامًا مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ .

وصيغة الذكر عند النحر : بسم الله والله أكبر لا إله إلا الله ، اللهم منك وإليك ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ : أي سقطت بعد النحر من الوجوب وهو الوقوع ، يقال : وجب الحائط سقط ، ووجبت الشمس إذا سقطت للمغيب ، قال تعالى : ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا﴾ : الأمر للإباحة ، ﴿وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾ : اختلف في تعريف القانع والمعتر ، فقيل : القانع المتعفف الذي يقنع بما يعطى ولا يسأل ، مأخوذ من القناعة ، والمعتر : السائل ، وقيل القانع : السائل ، مأخوذ من قنع يقنع قنوعًا إذا سأل ، والمعتر : المتعرض بغير سؤال ، وقد احتج بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الأضحية تُجَزَّأ أثلاثًا فثلث للأكل ، وثلث للتصدق ، وثلث يهديه للأصحاب .

ثم امتن الله على عباده فقال : ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ : أي مثل هذا التسخير والانقياد حتى نحرتموها .

سخرناها لكم وذللناها ، وجعلناها منقادة لكم إن شئتم ركبتم ، وإن شئتم نحرتم ، وإن شئتم أطلقتم ، ولولا تسخير الله وخلقها هكذا لما تمكنتم من ذلك ، ولكانت أشد بطشًا من بعض الوحوش التي هي أصغر منها وأقل قوة ، وكفى بما يتأيد من الإبل شاهدًا وعبرة ، وإنما سخرها الله لنا هذا التسخير لكي نشكره حق الشكر على أنعمه التي لا تعد ولا تحصى .

ثم قال تعالى : ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ : روي أن أهل الجاهلية كانوا إذا نحروا البدن لطخوا الكعبة بدمائها قربة إلى الله ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : فنحن أحق أن ننضح فأنزل الله هذه الآية[1] ، فالله سبحانه يبين أن العبرة ليست بالظواهر والرسوم ولا بلحوم البدن ودمائها ، وإنما العبرة بالتقوى والإخلاص فالمضحُّون والمقدمون للهدايا والقرابين لن يكتسبوا رضاء الله إلا بالإذعان

(١) انظر تفسير ابن كثير .

والإخلاص وتطهير أبدانها ، واللحوم وإهراق الدماء إنما هي من ظواهر التقوى فمن لم يراع التقوى والإخلاص لم تغن عنه التضحية والتقرب بالقرابين مهما قدم وذبح ، وقد قررت هذه الآية أن العبرة ليست بالظواهر ، ولكن بالنية والبواطن ، فهي مثل قوله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[1] ، وفي ذكر هذا المعنى وتقرير هذه الحقيقة بعد ذكر بعض المناسك ما يدعو المؤمن إلى أن لا يعمل عباداته بالقشور والتمويه بل عليه أن يخلص إلى لب التشريع وروحه ، فيعمل على فهم غرض الشارع من هذه المناسك ، ومعرفة حكمة الله العالية من ورائها .

ثم قال تعالى : ﴿سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ : أي سخر لكم البدن لتعظموا الله وتشكروه على هدايته إياكم لمعالم دينه ومناسك حجه ، وهي من النعم الجزيلة التي تستحق الشكر والتعظيم والحمد والثناء سبحانك لا نحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك .

ثم قال تعالى : ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ : أي بشر يا محمد المحسنين في عملهم ، القائمين بحدود ربهم ، المتبعين ما شرع اللّه لهم ، المصدقين بالرسول وما جاء به من عند الله بأن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة : ٢٥] .

* * *

(١) الحديث رواه مسلم .

(٥)

تفسير بعض آيات الحج[1]

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ﴾

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة : ١٩٧ - ٢٠٣] .

الشرح والبيان :

بعد أن بين الله سبحانه في الآية السابقة بعض أحكام الحج ذكر في هذه الآيات وقت الحج وبعض أحكامه فقال : ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ ، وهي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة ، ليس ذو الحجة كله ، وفي الكلام محذوف يقتضيه تصحيح الكلام والتقدير أشهر الحج ، أو وقت الحج ، أشهر معلومات ، قال تعالى : ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ﴾ الفرض : القطع والجزم ، أي فمن ألزم نفسه وأوجب عليها في هذه الأشهر الحج وذلك يكون بالنية عند بعض الأئمة وبالتلبية أو سوق الهدي عند البعض الآخر .

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ الرفث : الجماع ، وقيل : كلام متضمن لما يستقبح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه ؛ ولا سيما عند حضور النساء ، والفسوق معناه في اللغة الخروج ، والمراد به : الخروج من الطاعة إلى المعصية ، وقيل : المراد ما نهي عنه المحرم في حال الإحرام من قتل الصيد وتقليم الأظافر وقص الشعر وما أشبه ذلك ، وفي الحديث الصحيح : « من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »[2] ، والجدال هو المماراة والمخاصمة مع الرفيق ومع البائع والحمَّال مثلًا وأكثر

---

(١) مجلة الحج - العدد السادس - السنة الخامسة - ذو الحجة ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م .

(٢) الحديث رواه البخاري .

الحجيج - كما شاهدت - لا يسلمون من المجادلة والمخاصمة، وهذه المحرمات محظورة في الحج وغيره، لكنها في الحج أشد، واجتنابها ألزم وأوجب فالله سبحانه يريد من الحاج أن ينزه نفسه عن الجماع وعن الفحش من القول والقبيح من الفعال، وعن المخاصمة والمجادلة التي تفصم عرى المحبة، ومن مقاصد الحج: التعارف والتحابب لا التباغض والتشاحن.

قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾: بعد أن نهى الله عن الشر عَقَّبَ بالأمر بفعل الخير، ومن الخير أن يضعوا مكان الرفث الكلام الحسن، ومكان الفسوق البر والتقوى، ومكان الجدال الوفاق والتوادد.

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾: نزلت في أناس من اليمن كانوا يحجون بلا زاد ويقولون: نحن متوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، وربما نهبوا وغصبوا فأمرهم الله بالتزود[1]، والتزود لا ينافي التوكل، ورسول الله ﷺ بمنزلة نادرة من التوكل، ومع ذلك فكان يتزود ولا يهمل الأسباب العادية، ومن الزاد ما يقي الإنسان ذل السؤال والتثقيل على الناس، وقيل: المراد زاد الآخرة، وخير زادها التقوى، وهي كلمة جامعة لامتثال المأمورات، واجتناب المنهيات، وزاد الآخرة أفضل من زاد الدنيا؛ لأنه أنفع وأبقى، قال الأعشى:

إذا أنت لَمْ ترحل بزادٍ من التُّقَى ... ولاقيتَ بَعْدَ الموتِ مَنْ قَدْ تَزودا
نَدِمْتَ عَلَىَ أن لا تكونَ كمثلهِ ... وأنكَ لَمْ تُرصد كما كان أرصدا

﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾: يا أصحاب العقول السليمة التي تدعو صاحبها إلى اتباع كل خير، وترك كل شر، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الجناح: الحرج والإثم، أي ليس عليكم حرج ولا إثم في أن تطلبوا في مواسم الحج فضلًا، أي عطاءً ورزقًا، وهو الربح بالتجارة، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية، فلما جاءهم الإسلام فكانوا لا يتجروا في الموسم، فنزلت الآية[2] التي تبيح للحاج أن يبتغي

(١) انظر تفسير ابن كثير.
(٢) انظر تفسير ابن كثير، وهو برواية البخاري.

الربح بالتجارة في موسم الحج ما دامت لا تلهيه تجارته عن أداء نسكه ، والقيام بحق ربه .

﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ﴾ : يقال : أفضت الماء إذا صببته ، والمراد الدفع والذهاب منها ، وإن من يرى الجموع الهائلة المنسابة انسياب السيل من عرفات إلى المزدلفة ثم إلى منى ، لا يجد تعبيرًا أدق ولا أدل من هذا التعبير ، وعرفات هي الموضع الذي يقف فيه الحاج يوم عرفة ، ولا يتم الحج إلا به .

وسمي هذا الموضع بعرفات إما لأن الناس يتعارفون فيه أو لتعارف آدم وحواء فيه ، وقيل غير ذلك .

﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ : المشعر من الشعار وهو العلامة ، فالمشعر المعلم من معالم الحج ، والمراد به : المزدلفة كلها إلا وادي محسر ، وقيل : ما بين جبلي المزدلفة وقبل جبل قزح ، وذكر الله يكون بالتلبية والتهليل ، والتكبير ، وزيادة في تعرف مناسك الحج ؛ نقول : في عرفة يصلي الإمام العام أو نائبه بالناس الظهر والعصر ، ويجمع بينهما جمع تقديم ، ويخطب خطبة يعلم الناس فيها المناسك ، فإذا غربت الشمس دفعوا من عرفات إلى المزدلفة ، وفيها يصلي بالناس المغرب والعشاء ويجمع بينهما جمع تأخير ، ومن هدي رسول الله ﷺ أنه كان يمكث بالمزدلفة إلى طلوع الفجر فيصليه ، ثم يذهب إلى المشعر الحرام فيستقبل القبلة ويدعو ويهلل ويكبر ، ولا يزال واقفًا حتى يسفر الصبح ، ثم يدفع إلى منى قبل أن تطلع الشمس .

﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ : أي اذكروه بالتوحيد والتعظيم ، كما ذكركم بالهداية والتوفيق لدينه ومناسك حجه ، ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ : الضمير في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ إما للهُدَى المفهوم من الهداية ، وإما للرسول أي : وإن كنتم من قبل هداه ، ومن قبل إرسال رسوله لمن الضالين ، أي عن ذكره وعبادته حق العبادة .

قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ : أمر لقريش ومن على شاكلتها أن يفيضوا من عرفات بعد الوقوف بها كما يفعل سائر الناس ، ذلك أنه كانت قريش ومن دان بدينها – وهم الحمس[1] – يقفون بالمزدلفة ، ويقولون : نحن أهل الله

(١) الحمس جمع أحمس وهو الشديد الصلب ، وإنما سميت به قريش لتشددهم في دينهم .

وقطان حرمه فلا نخرج من الحرم ويتعاظمون أن يقفوا بعرفات مع سائر الناس فأمرهم الله أن يقفوا مع سائر الناس لأن ذلك سنة إبراهيم الخليل، وإسماعيل عليهما السلام.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ : من جميع ذنوبكم وما عساه يصدر منكم في هذه البقاع المقدسة التي تستجاب فيها الدعوات، ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ : فهو يغفر ويصفح عمن تاب إليه ولو كانت ذنوبه مثل زبد البحر.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ : أي فرغتم من حجكم وعبادتكم، وذبحتم ذبائحكم بعد جمرة العقبة بمنى. ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ : أو ذكر أشد من ذكركم لآبائكم، كان العرب في الجاهلية إذا فرغوا من حجهم وقفوا بين المسجد بمنى، وبين الجبل، وقيل: فيذكرون مفاخر آبائهم ومآثرهم، فأمرهم أن يدعوا هذا الفعل الجاهلي ويقبلوا على ذكر الله الذي خلقهم وخلق آباءهم، ووهبهم النعم الجزيلة التي تستحق الشكران ثم بين الله أصناف الذاكرين وأن منهم من يطلب الدنيا فحسب، و منهم من يطلب الدنيا والآخرة.

فقال: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ : من نعيمها وخيراتها من غير أن يُقبلوا على طلب الآخرة. ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ الخلاق: الحظ والنصيب، وذلك لأنه جعل همه الدنيا لا الآخرة.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ومن التوفيق للخير والمال الحلال والصحة ونحوها. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ : من الثواب والرحمة والرضوان. ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ : بالعفو عنا والمغفرة لذنوبنا أو بالحفظ والحيلولة بيننا وبين الشهوات والذنوب المؤدية إلى النار. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ : إشارة إلى المؤمنين الداعين بخير الدنيا والآخرة، وقيل: إلى الفريقين فلكل نصيب مما كسب.

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ : يحاسب العباد على كثرتهم وكثرة أعمالهم في مقدار ساعة من نهار، ففيه الحث على المبادرة إلى الحسنات وترك السيئات ليفوزوا يوم الحساب، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ : المراد بالأيام المعدودات: أيام التشريق الثلاثة؛ وهي أيام بعد يوم النحر أولها الحادي عشر من ذي

الحجة ، وفي الحديث الشريف : قال رسول الله ﷺ : « أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله »[1] . وكان ابن عمر رضي الله عنهما يكبر بمنى تلك الأيام وخلف الصلوات وعلى فراشه ، وفي فسطاطه ، وفي بيته ، وفي ممشاه ، ومن السنة التكبير مع كل حصاة من الجمار .

قال تعالى : ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ : أي تعجل النفر من منى بعد يومين من أيام التشريق ، وهو الثاني والثالث من يوم العيد فلا إثم عليه . ﴿وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ : أي بقي في منى إلى اليوم الثالث من أيام التشريق حتى يرمي الجمار قبل الزوال أو بعده فلا حرج عليه في ذلك ، والمراد بالتخيير بين التعجيل والتأخير ، وإن كان الثاني أفضل ، وإنما ورد بنفي الإثم للرد على أهل الجاهلية حيث كانوا مختلفين فمن مؤثم للمتعجل ، ومن مؤثم للمتأخر .

﴿لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ : أي هذا الذي ذكر من التخيير ونفي الإثم أو هذا الذي ذكر من الأحكام للمتقي ؛ لأنه المنتفع بالأحكام ، والجدير بالامتثال .

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ : في جميع أحوالكم ، وذلك بامتثال المأمورات واجتناب المنهيات .

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ الحشر : الجمع أي تجمعون يوم القيامة للعرض والحساب ، وفي ذلك تأكيد للأمر بالتقوى ، وموجب للامتثال فإن من علم بالحشر والحساب والجزاء كان ذلك من أقوى الدواعي إلى تقوى الله والعمل على رضوانه .

* * *

(١) الحديث رواه مسلم .

(٦)

تفسير بعض آيات الحج[1]

الأشهر الحرم

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦].

ذكر الله في الآيات السابقة لهذه الآيات بعضًا من ابتداع اليهود والنصارى وتحريفهم للعقيدة الصحيحة واتباعهم - في الحلال والحرام - الأحبار والرهبان الذين يصدرون في أحكامهم عن الهوى والشهوات فناسب أن يذكر شيئًا من ابتداع العرب في التحليل والتحريم، فقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، والمعنى أن عدد الشهور عند الله وفي تقديره الأزلي وحكمه السابق الذي أوجبه وارتضاه وأمر الناس أن يأخذوا به لأنه الأصلح لهم والأليق بهم اثنا عشر شهرًا، فالمراد بكتاب الله: حكمه السابق الذي أثبته ورآه حكمة وصوابًا، وقيل: المراد به اللوح المحفوظ.

والمراد بالشهور: الشهور العربية التي هي مترتبة على سير القمر في المنازل، وعلى هذه الشهور العربية يعتمد المسلمون في صيامهم وحجهم وأداء زكاتهم، وسائر أحكامهم، ومعاملاتهم، وقد شاء الله سبحانه أن يكون اعتبار الشهور بسير القمر وظهوره؛ لأن ذلك لا يحتاج إلى حساب، ولا إلى كتاب، بل هو شيء مشاهد بالبصر، فيستوي في رؤيته والعلم به البدوي والحضري والجاهل والمتعلم، ودين الله هو الفطرة التي فطر الناس عليها، والسنة القمرية تنقص عن السنة الشمسية بعشرة أيام تقريبًا في الغالب الكثير، وبسبب ذلك النقصان تدور شهور السنة القمرية في العام فيقع الحج والصوم تارة في الشتاء، وتارة في الصيف، وتارة في الخريف، وهذا من رحمة الله

---

(١) مجلة الحج - العدد السابع - محرم - سنة ١٣٧٢هـ.

بعباده ، فلا يكون حرج ويتدرب المتعبد على أداء العبادة في جميع فصول العام ، وفي ذلك من التخفيف وتجديد نشاط النفس ما فيه ، ثم قال تعالى : ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ ؛ وإنما سميت حرمًا : لتحريم القتال فيها ، وتعظيم العرب لها ، وقد كان الواحد منهم يلقى في الجاهلية قاتل أبيه أو أخيه في هذه الأشهر فلا يهيجه ، فلما جاء الإسلام لم يزدها إلا تعظيمًا وتحريمًا ، وقد كان هذا التعظيم والتحريم من بقايا شريعة إبراهيم وإسماعيل ، ومن خصائص هذه الأشهر أن الله يضاعف فيها الحسنات ، وكذا السيئات فيها أعظم وزرًا منها في غيرها ، وهذه الأشهر ثلاث متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، وواحد فرد ، وهو رجب ، وكان يسمى رجب مُضَر : لتعظيم مضر له أكثر من غيرها ، وكانت ربيعة تعظم رمضان ، وتسميه رجبًا ، فبين رسول الله في حديثه - الذي سيأتي قريبًا - أنه رجب مضر ، لا رجب ربيعة ، والحكمة في مجيء الأشهر الحرم على هذا الترتيب هو تيسير أداء الحج والعمرة على الناس ، فَحَرَّم قبل شهر الحج شهرًا ليسيروا فيه إلى الوصول إلى الحرم ، وهو ذو القعدة لقعودهم فيه عن القتال ، وحَرَّم ذا الحجة لأنهم يؤدون فيه مناسك الحج ، وحَرَّم بعده شهرًا - وهو المحرم - ليرجعوا فيه إلى أوطانهم آمنين ، وحَرَّم رجبًا في وسط الحول لأجل زيارة البيت والاعتمار به ، فيتيسر لمن يأتي من أقاصي الجزيرة أن يأتي ويرجع وهو آمن مطمئن .

ثم قال تعالى : ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ : أي جعل عدة الشهور اثنا عشر شهرًا كما خلقها الله يوم خلق السماوات والأرض ، وتحريم أربعة منها هو الدين القيم الذي لا عوج فيه ولا ضلال ، وهو دين إبراهيم وإسماعيل ، أما ما يفعله أهل الجاهلية من النسيء وتغيير الأشهر فليس من الدين المستقيم في شيء ، والنسيء تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر مأخوذ من النسأ بمعنى التأخير ، ذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة ، فيحلون الشهر الحرام ويحرمون مكانه شهرًا آخر ، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم ، فكانوا يحرمون من بين الشهور أربعة أشهر ، فنظروا إلى عدد الشهور ولم ينظروا إلى أعيانها ، وقد أنحى الله عليهم باللائمة في قوله في الآية التي بعد هذه : ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا

حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ﴾ [التوبة: ٣٧].

وقد اختلف في أول من أحدث النسيء على أقوال كثيرة، والذي ذكره الإمام محمد بن إسحاق: «إن أول من نسأ الشهور على العرب فأحل منها ما حرم الله وحرم منها ما أحل الله عز وجل رجل يقال له: القلمس؛ فكانت العرب إذا فرغت من حجها اجتمعت إليه فقام فيهم خطيبًا، فحرم رجبًا وذا القعدة، وذا الحجة، ويحل المحرم عامًا، ويجعل مكانه صفرًا، ويحرمه عامًا ليواطئ عدة ما حرم الله»، ولذا قال شاعرهم:

«وَفِينا نَاسِئُ الشَهْرِ القَلَمَّسِ»[1]

وقد دعا النبي ﷺ إلى اتباع ما شرعه الله وترك ما كانوا عليه من النسيء فقال في خطبته في حجة الوداع بمنى فيما رواه البخاري ومسلم وغيرهما: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم ثلاث متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذي بين جمادى الآخر وشعبان»، ومعنى قوله: «إن الزمان قد استدار كهيئته» أي أن الأمر شرعًا كما ابتدأ الله ذلك في كتابه يوم خلق السماوات والأرض، وفي هذا تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله في أول الأمر من غير تقديم ولا تأخير ولا زيادة ولا نقصان ولا نسيء ولا تبديل، وقد دلت الآيتان على أن التحليل والتحريم إنما هو لله سبحانه ولرسله المبلغين عنه، وليس لأحد أن يحلل أو يحرم إلا استنادًا إلى كتاب أو سنة، ولا لأحد أن يزيد في شرع الله أو ينقص منه، بل يجب الوقوف عند ما شرعه الله ورسوله كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، وقد ذم الله الذين يحرمون ابتداعًا لا اتباعًا لشرعه فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، وإن من يتبع إنسانًا في تحليل أو تحريم ما لم يأذن الله به كمن اتخذه ربًّا، وقد ذم الله أقوامًا من اليهود والنصارى لاتباعهم الأحبار والرهبان في التحليل والتحريم فقال: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا

(١) انظر السيرة لابن هشام.

لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].
وقد روى الإمام أحمد وغيره عن عدي بن حاتم قال: «أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب، فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن، فطرحته، فانتهيت إليه وهو يقرأ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾الآية، حتى فرغ قلت: إنا لسنا نعبدهم، فقال: أليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ قلت: بلى، قال: فتلك عبادتهم.

قال تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْۚ﴾ الضمير في ﴿فِيهِنَّ﴾ يعود على الأشهر الحرم، وظلم النفس فيهما يكون بارتكاب المعاصي والذنوب، وقيل: باستحلال حرمتها بالقتال فيها، والظلم وإن كان حرامًا مطلقًا إلا أنه فيها أعظم حرمة، وكذا الطاعات أعظم أجرًا، قال قتادة - وهو من علماء التفسير -: العمل الصالح أعظم أجرًا في الأشهر الحرم، والظلم فيهن أعظم منه فيما سواهن، وإن كان الظلم على كل حال عظيمًا.

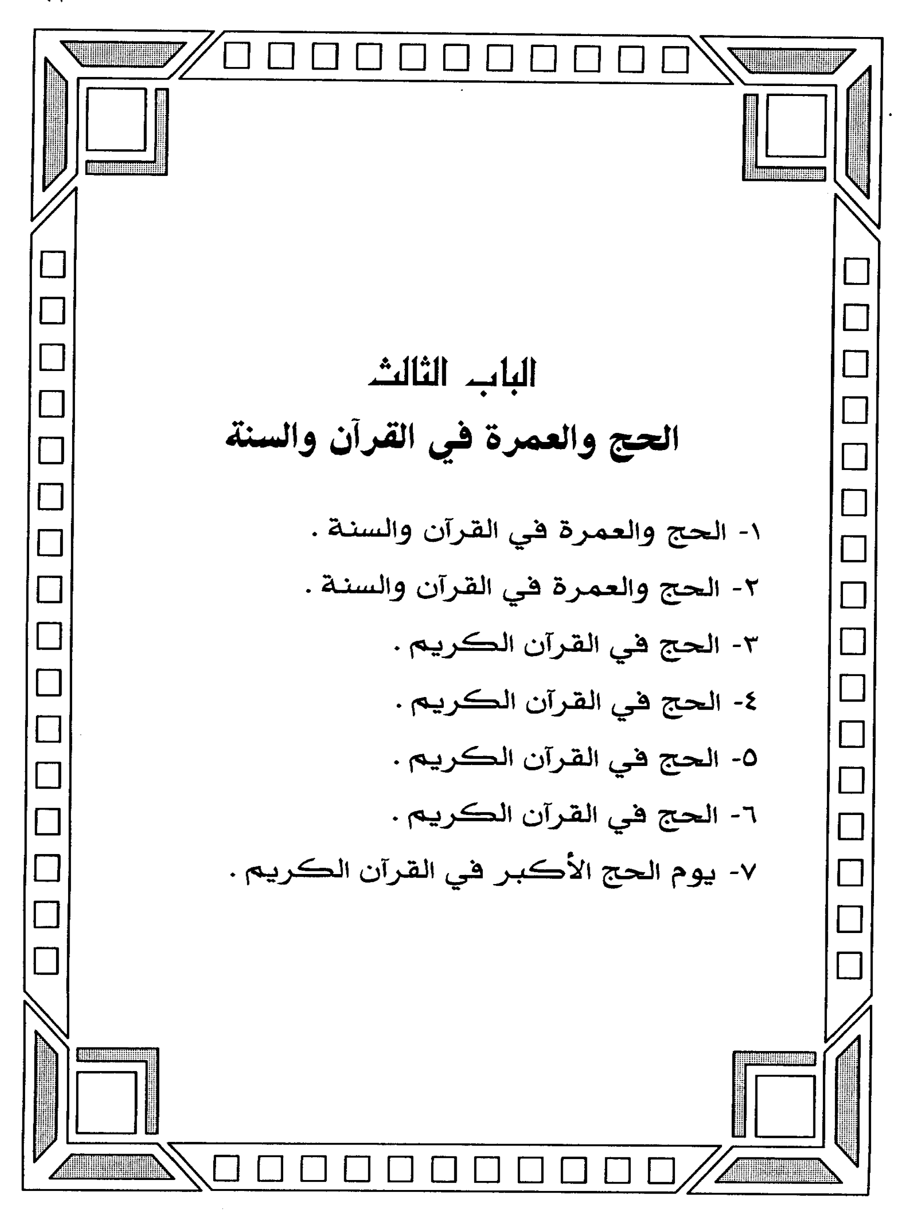
وقد اختلف في حرمة القتال في الأشهر الحرم، فذهب جماعة منهم قتادة والزهري وسفيان الثوري إلى أنه كان حرامًا ثم نسخ، وذهب آخرون إلى عدم النسخ وأن حرمة القتال في الأشهر الحرم لا زالت باقية، قال ابن جريج: حلف بالله عطاء بن أبي رباح أنه ما يحل للناس أن يغزوا في الحَرَمِ ولا في الأشهر الحُرُمِ إلا أن يُقاتَلوا فيها وما نسخت، وقد أيد الأولون ما ذهبوا إليه بما ثبت من أن النبي ﷺ حاصر أهل الطائف في شهر حرام وهو ذو القعدة، وأجاب الآخرون عن هذا بأن ابتداء العدوان كان من المشركين، وقد ابتدئ القتال في شهر حلال ولكن استمر إلى شهر حرام فاستمر قتالهم في شهر حرام ردًّا لعدوان بدءوا به.

﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةًۚ﴾: أي قاتلوهم بأجمعكم مجتمعين على قتالهم كما يقاتلونكم على هذه الصفة، وفي هذا حث المسلمين على التعاون والتناصر على قتال الأعداء وترك التخاذل والتدابر؛ لأنهما من أسباب الفشل وذهاب الريح وضياع الدولة وصدق الله: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾ [الأنفال: ٤٦]، ولو أن المسلمين اليوم لَمُّوا شملهم، وكوّنوا كتلة واحدة لا تزعزعها

الأهواء والشهوات ، واهتدوا بهدي نبيهم في السياسة الشرعية والحربية ؛ لأجبروا أعداءهم على أن يهابوا جانبهم وأن يقدروهم حق قدرهم ، ولكانوا أصحاب الصولة والسلطان كما كان أسلافهم من قبل ، ولما تأسد عليهم متذئب ، واستنسر عليهم في الأرض قال تعالى : ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ، لما حض الله سبحانه المسلمين على قتال المشركين الذين يناصبونهم العداوة ويتجمعون للنيل منهم والكيد لهم أوصاهم بالتقوى التي هي عماد الفلاح في الدين والدنيا ، وبين لهم أن الله مع المتقين ينصرهم ويؤيدهم على أعدائهم ، وللترغيب في التقوى بعد الأمر بالقتال سر – وأي سر – فقد كان للتقوى أكبر الأثر في انتصار المسلمين في حروبهم الأولى وتغلبهم على أعدائهم ، وكانوا كثيرًا ما يلجئون إلى الله – الحصن الحصين – عند اشتداد الأزمات ، ويقولون : « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، كما كان يسمع لهم في الغزوات دوي بقراءة القرآن كدوي النحل ، وكان من شأن الخلفاء والقواد أن تكون أول وصاتهم « تقوى الله » ، فهل يأخذ المسلمون اليوم في إعداد جيوشهم وقوادهم بالتقوى ويثقفونهم بالثقافة الدينية الحقة القائمة على أساس من الإيمان الراسخ والخلق الإسلامي الرفيع ؟!

إنهم إن فعلوا ذلك فسينشئون جيوشًا شديدة البأس قوية الشكيمة صعبة المراس لا تلين قناتها ولا تعرف الضعف والخور والاستسلام ، وحينئذ يعيد أبطال اليوم ذكرى أبطال الأمس العاطرة ، والحمد لله وكفى ، وسلام على عباده الذين اصطفى .

* * *



الباب الثالث

الحج والعمرة في القرآن والسنة

١- الحج والعمرة في القرآن والسنة .

٢- الحج والعمرة في القرآن والسنة .

٣- الحج في القرآن الكريم .

٤- الحج في القرآن الكريم .

٥- الحج في القرآن الكريم .

٦- الحج في القرآن الكريم .

٧- يوم الحج الأكبر في القرآن الكريم .

(١)

الحج والعمرة في القرآن والسنة[1]

ها هي أشهر الحج قد هلت ، وها هي نسائم الصبا من أرض الحجاز قد سرت في الأجواء فعطرت وفي النفوس فأيقظت وأنعشت ، وها هي الألوف المؤلفة في مشارق الأرض ومغاربها قد هفت قلوبها ، وولت وجوهها نحو الكعبة – البيت الحرام – لتقضي حاجات القلب المشوق ، والنفس المدلهمة .. وقد رأيت بهذه المناسبة الكريمة أن أذكر طرفًا مما يتعلق بالنسكين : الحج والعمرة وأحكامهما وآدابهما من القرآن والسنة من غير تعقيد ولا إغراب على القارئ بالإكثار من ذكر الخلافيات ، فأقول وبالله التوفيق :

« الحج »[2] في لغة العرب : معناه القصد ، وقال الخليل : القصد إلى معظم .

وفي الشرع القصد إلى البيت الحرام لأداء أعمال وعبادات مخصوصة في أشهر مخصوصة ، والحج فرض عين على كل مكلف حر مسلم مستطيع والرجال والنساء في ذلك سواء .

وقد ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة والإجماع ، أما الكتاب فقوله تعالى﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد ، وغير واحد أنهم قالوا : ومن كفر باعتقاده أنه غير واجب فالله غني عنه ، وقال تعالى أيضًا : ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة : ١٩٦] ، وهذا ينبئ على أن المراد بالإتمام : ابتداء الفرض ، ويؤيده قراءة علقمة ومسروق وإبراهيم النخعي بلفظ : « وأقيموا » ، وقد روى هذا الإمام محمد بن جرير الطبري بأسانيد صحيحة عنهم ، ومن العلماء من يرى أن المراد بالإتمام : الإكمال بعد الشروع وعلى هذا فلا تكون الآية دالة على الفرضية ، وتكون الفرضية بالآية الأولى ، وأما

---

(١) مجلة الحج – عدد (٥) – السنة ١٩.

(٢) الحج بفتح الحاء وكسرها لغتان ، الكسر لغة أهل نجد ، والفتح لغيرهم ، وقيل بالكسر المصدر وبالفتح الاسم ، وقيل بالعكس .

السنة فقول النبي ﷺ : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، والحج » ، رواه الشيخان وغيرهما واللفظ لمسلم .

وأما الإجماع فقد أجمع المسلمون على فرضيته على المسلم المكلف المستطيع ومن جحده فقد كفر ؛ لأنه أنكر أمرًا معلومًا من الدين بالضرورة .

العمرة : في لغة العرب معناها الزيارة وقيل : إنها مشتقة من عمارة المسجد الحرام .

وفي الشرع : زيارة البيت الحرام بقصد الطواف والسعي ، ثم التحلل بالحلق أو التقصير .

والعمرة واجبة عند الشافعي في المشهور عنه وأحمد وغيرهما من أهل الأثر ، وإلى وجوبها ذهب الإمام البخاري في صحيحه ، وروي في هذا عن ابن عمر تعليقًا قال : « ليس أحد إلا وعليه حجة وعمرة » ، وقد وصل هذا الأثر ابن خزيمة والدارقطني والحاكم أن ابن عمر كان يقول : « ليس من خلق الله أحد إلا عليه حجة وعمرة واجبتان من استطاع سبيلًا فمن زاد شيئًا فهو خير وتطوع » .

والمشهور عن المالكية أن العمرة تطوع ، وهو قول الحنفية ، واستدلوا بما رواه الحجاج بن أرطأة عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : « أتى أعرابي النبي ﷺ فقال : يا رسول الله أخبرني عن العمرة أواجبة هي ؟ قال : لا وأن تعتمر خير لك » . أخرجه الترمذي ، والحجاج ضعيف .

فضل الحج والعمرة

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كما ولدته أمه » . يعني من أتى هذا البيت حاجًا أو معتمرًا . ورواه البخاري في صحيحه بسنده عن النبي ﷺ بلفظ : « من حج لله فلم يرفث ولم يفسق ، رجع كيوم ولدته أمه » . والمراد : رجع مغفورًا له جميع ذنوبه ، فإن الطفل حين يولد يكون بريئًا من جميع الذنوب ، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ج ٣ صـ ٢٩٨ : « وظاهر الحديث غفران الصغائر والكبائر والتبعات –يعني حقوق

العباد– وهو من أقوى الشواهد لحديث العباس بن مرداس المصرح بذلك » . أقول : وهو الحديث الذي رواه ابن ماجه وابن جرير والطبراني والبيهقي في سننه وغيرهم عن العباس ابن مرداس السلمي : « أن رسول الله ﷺ دعا عشية عرفة لأمته بالمغفرة والرحمة ، فأكثر الدعاء ، فأوحى الله إليه أني قد فعلت إلا ظلم بعضهم بعضًا ، وأما ذنوبهم التي بيني وبينهم فقد غفرتها ، فقال : يا رب إنك قادر على أن تثيب هذا المظلوم خيرًا من مظلمته ، وتغفر لهذا الظالم ، فلم يجبه تلك العشية فلما كان غداة المزدلفة أعاد الدعاء فأجابه الله أني قد غفرت لهم ، فتبسم رسول الله ﷺ فسأله أصحابه فقال : تبسمت من عدو الله إبليس أنه لما علم أن الله قد استجاب لي في أمتي أَهْوَى يدعو بالويل والثبور ويحثو التراب على وجهه .

ويؤيد هذا أيضًا ما رواه ابن المبارك أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله عز وجل قد غفر لأهل عرفات ، وأهل المشعر ، وضمن عنهم التبعات ، فقام عمر فقال : يا رسول الله هذا لنا خاصة ؟ قال : هذا لكم ولمن أتى بعدكم إلى يوم القيامة ، فقال عمر رضي الله عنه : « كثر خير ربنا وطاب » . والله عز شأنه وجلت حكمته قادر على أن يعوض المظلوم أضعافًا مضاعفة حتى يرضى عن ظالمه ويعفو عن حقوقه .

وقال الإمام أبو بكر بن العربي المالكي وآخرون : لا تكفر إلا الصغائر ، وأما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة أو عفو الله وفضله ، ومن العلماء من فصل في الكبائر بين ما يتعلق منها بحق الله ، وما يتعلق منها بحق العبد فقال بغفران الأولى دون الثانية .

والذي نراه أن يحرص الحاج أو المعتمر على الإخلاص للّٰه وأن يتوب إلى الله توبة نصوحًا ، وأن يكثر من عمل الخير ، وأن يتأدب بآداب الحج والعمرة والرجاء في الله أن يكفر له كل شيء .

وروى البخاري ومسلم في صحيحهما أن رسول الله ﷺ قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » ، والحج المبرور هو الذي يكون أساسه الإخلاص ولا يخالطه شيء من الرفث والفسوق والجدال وعلامته صلاح الحال والاستقامة على الشريعة .

الحج فرض مرة في العمر
وما زاد فهو تطوع

والحج يفرض مرة في العمر وما زاد فهو تطوع يثاب عليه أجزل الثواب ، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة قال : « خطبنا رسول الله ﷺ فقال : يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا . فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا ، فقال النبي ﷺ : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاتركوه » . ورواه الإمامان أحمد والنسائي بزيادة : « والحج مرة فما زاد فهو تطوع » .

أشهر الحج

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة : ١٩٧] وأشهر الحج هي شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة فلا يقع الحج في غير هذه الأشهر ولما كان الحج لا يجوز إلا في هذه الأشهر اقتضت رحمة الله بعباده أن يجعل لهم نسكًا آخر يؤدى فى جميع أيام السنة وهي العمرة فهي تجوز في سائر شهور العام .

الأفضل التعجيل بالحج

والعلماء وإن كانوا اختلفوا في الحج أهو فرض على الفور أم على التراخي ؟ على قولين فالأفضل التعجيل به للمستطيع عند عدم الموانع الشرعية لأن الآجال غير معلومة ولا يدري المسلم ما يكون في غده ، فقد يمرض المريض ، وتذهب الاستطاعة ، وتعرض الحاجة ، والأليق بالمؤمن الذي يبتغي رضوان الله اغتنام الخير ، والمسارعة إليه ، فإن فيه رحلة إلى الله ، وما ظنك برحلة تكفر الذنوب ، وتشرح الصدور ، وتزكي النفوس وتسمو بالأرواح ؟!

مواقيت الإحرام في الحج والعمرة

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما - واللفظ للبخاري - عن الصحابي الجليل

ابن عباس قال : « وَقَّتَ رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحليفة[١] ولأهل الشام الجحفة[٢] ولأهل نجد قرن المنازل ، ولأهل اليمن يلملم ، وقال : هن لهن ولمن أتى عليهن من غيرهن ممن أراد الحج والعمرة ، ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ -يعني أن ميقاته من حيث أنشأ الإحرام- حتى أهل مكة من مكة » وإحرامهم من مكة إنما هو خاص بالحاج ، وأما المعتمر فيجب عليه أن يخرج إلى أدنى الحل فيحرم منه كالتنعيم مثلًا ، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ أمر عبد الرحمن بن أبي بكر أن يردف السيدة عائشة ويعمرها من التنعيم وهو مكان قريب من الحرم .

وقد ثبت في صحيح البخاري أنه لما فُتح المصران – الكوفة والبصرة – جاء الناس إلى عمر فقالوا : يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ حد لأهل نجد « قرنًا » وهو جور عن طريقنا ، وإنا إن أردنا قرنًا شق علينا ، قال : فانظروا حذوها من طريقكم ، فحد لهم ذات عرق . وقد روى ذلك في حديث جابر في صحيح مسلم إلا أنه مشكوك في رفعه .

التلبية في الحج والعمرة

ويشرع للحاج أو المعتمر – إذا ما أحرما – أن يكثرا من التلبية ؛ ويكفا نفسيهما عن اللغو والرفث ، روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عن عبد الله بن عمر : « أن تلبية رسول الله ﷺ : لبيك اللهم لبيك[٣] لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » . وزاد مسلم في روايته « قال : وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يزيد فيها لبيك وسعديك والخير بيديك ، لبيك والرغباء إليك والعمل » .

الحج عن الغير

من كان مستطيعًا للحج بماله وبنفسه فعليه أن يحج عن نفسه ولا تجوز الإنابة ، ومن عجز عن أدائه لكبر أو مرض أجزأه أن يحج غيره عنه وكذلك من مات وعليه حج فعلى وليه أن يحج عنه سواء أوصى بذلك أم لم يوص ، روى البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس : « أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت : إن أمي نذرت أن

---

(١) تسمى آبار علي الآن .

(٢) وفي رواية النسائي : « ولأهل الشام ومصر الجحفة » وقد درست الجحفة والإحرام الآن من رابغ .

(٣) على صيغة التثنية والمراد التكثير والمعنى إجابة لك يا ربي بعد إجابة .

تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها ؟ قال : نعم حجي عنها أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء . وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما – واللفظ للبخاري – عن ابن عباس قال : « جاءت امرأة من خثعم عام حجة الوداع فقالت : يا رسول الله إن فريضة الله أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يستوي على الراحلة فهل يقضي عنه أن أحج عنه قال : نعم . وذهب مالك وأبو حنيفة إلى جواز أن يحج عن غيره من لم يحج عن نفسه وذهب الشافعي وأحمد إلى أنه يشترط لمن يحج عن غيره أن يكون حج عن نفسه وإلا كانت له .

* * *

(٢)

الحج والعمرة في القرآن[١]

ما يلبس المحرم وما لا يلبس :

روى البخاري ومسلم في صحيحهما بسندهما عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما- أن رجلًا قال : يا رسول الله ما يلبس المحرم من الثياب ؟ قال رسول الله ﷺ : لا يلبس المحرم القمص ، ولا العمائم ، ولا السراويلات ، ولا البرانس[٢] ولا الخفاف ، إلا أحد لا يجد نعلين فليلبس خفين ، وليقطعهما أسفل من الكعبين ، ولا تلبسوا من الثياب شيئًا مسه الزعفران أو الورس[٣] » .

قال العلماء : هذا الجواب من بديع الكلام وأجزله لأن ما لا يلبس منحصر فحصل التصريح به ، وأما الملبوس الجائز فغير منحصر ، وهذا نوع من أسلوب الحكيم المعروف في البلاغة .

وقال القاضي عياض : « أجمع المسلمون على أن ما ذكر في هذا الحديث لا يلبسه المحرم وأنه نبه بالقميص والسراويل على كل مخيط ، وبالعمائم والبرانس على كل ما يغطي الرأس مخيطًا أو غيره ، وبالخفاف على كل ما يستر الرجل كالحذاء مثلًا » والمراد بتحريم المخيط أن يلبس على الحالة التي تعودها الناس فلو شد القميص أو الجلباب على وسطه كالإزار فلا شيء فيه .

وأجمعوا أيضًا على أن المراد بالمحرم هنا الرجل ولا تلتحق به المرأة في غير ما مسه الزعفران والورس ، فيجب على المرأة ستر جميع بدنها بكل ساتر من مخيط وغيره إلا ستر وجهها وقد روى البخاري الحديث السالف من طريق الليث وفي آخره قول الرسول ﷺ : « ولا تنتقب المرأة -أي تغطي وجهها بالنقاب- ولا تلبس القفازين[٤] » .

---

(١) مجلة الحج - العدد السادس - السنة التاسعة عشر .

(٢) قلنسوة طويلة تلبس على الرأس .

(٣) الورس نبت أصفر طيب الرائحة يصبغ به .

(٤) القفاز : ما يلبس في اليدين فيسترهما .

وقد نبه ﷺ بالزعفران والورس على ما في معناهما وهو الطيب فيحرم على الرجل والمرأة في الإحرام جميع أنواع الطيب .

والحكمة في تحريم لبس جميع ذلك والاكتفاء بإزار ورداء ؛ البعد عن الترفه وعن زينة الدنيا وزخارفها ، والظهور بمظهر الخاشع الذليل المتبتل ، كما أن فيه تذكيرًا له في كل أوقاته بأنه محرم ، فيكون أقرب إلى كثرة أذكاره ، وأبلغ في مراقبته لربه ، وصيانته لعبادته وإحرامه عما يخل به من ارتكاب محظورات الإحرام ، وأيضًا ففيه تذكير بالبعث والقيامة حينما يقوم الناس من قبورهم حفاة عراة مهطعين إلى الداعي ، ففي هذا المشهد الكبير لا فرق بين ملك ومملوك ، ولا سادة ولا سوقة ، ولا غني ولا فقير ، ألا ما أروع هذا المشهد ، وما أعظم العبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

الطواف بالبيت عند القدوم

روى البخاري ومسلم في صحيحهما بسندهما عن عروة بن الزبير قال : « أخبرتني عائشة رضي الله عنها أن أول شيء بدأ به رسول الله ﷺ حين قدم مكة أنه توضأ ثم طاف ثم لم تكن عمرة ثم حج أبو بكر وعمر رضي الله عنهما مثله ، ثم حججت مع أبي – الزبير رضي الله عنه – فأول شيء بدأ به الطواف ، ثم رأيت المهاجرين والأنصار يفعلونه ، ولقد أخبرتني أمي أنها أهلت هي وأختها والزبير وفلان وفلان بعمرة ، فلما مسحوا الركن حلوا » يعني بعد الطواف وصلاة ركعتي الطواف والسعي بين الصفا والمروة ، وتحية المسجد الحرام تكون بالطواف ثم يصلي بعده ركعتين عند المقام ، وأما بقية المساجد فتحيتها بركعتين فكن أيها الحاج على ذكر من ذلك .

تقبيل الحجر الأسود

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما أن عمر بن الخطاب كان يقبل الحجر ويقول : « والله إني لأقبلك وإني أعلم أنك حجر وأنك لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله قبلك ما قبلتك » ، وإنما قال الفاروق عمر هذا لأن الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام ؛ فخشي عمر أن يظن الجهال أن استلامه وتقبيله من باب تعظيم بعض الأحجار – كما كانت العرب تفعل في الجاهلية – فأراد عمر رضي الله عنه أن يعلم الناس أن استلامه اتباع لرسول الله ﷺ ، لا لأن الحجر ينفع ويضر بذاته كما

كانت العرب في الجاهلية يعتقدون ذلك في الأوثان .

وفي مقالة الفاروق تلك أدب عظيم من العبقري الملهم رضي الله تعالى عنه ، وأن المؤمن إذا وجد في الشريعة شيئًا فعله الرسول ﷺ أو نهى عنه وجب عليه أن يقتدي بالنبي في فعله والانتهاء عنه وإن خفيت الحكمة فيه على العقول ، والأليق بالمؤمن العاقل أن يتهم عقله بالقصور لا أن يتهم الشريعة ويتهجم عليها من غير علم وبرهان ، وأن يؤمن بأن للعقل مدى لا يجاوزه ، كما أن للبصر مدى لا يعدوه .

وعسى أن تكون في مقالة الفاروق – الملهم المحدث – عبرة وذكرى لهؤلاء الذين تقصر عقولهم عن إدراك أسرار الشريعة في بعض مناسك الحج فيتهجمون ويهرفون[1] بما لا يعرفون ، وأن ينهجوا منهج صاحب الموافقات للوحي في التسليم والإذعان ، والاقتداء والائتساء وإنما يسن للطائف تقبيل الحجر إذا لم يترتب على هذا مزاحمة وإيذاء للغير – وإلا فبحسبه عند الزحام أن يشير إليه بشيء في يده أو بيده ويكبر هكذا فعل رسول الله ﷺ ، روى الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على بعير يستلم الركن بمحجن[2] » ، وفي رواية لمسلم بزيادة « ويقبل المحجن » ، وروى مسلم بسنده عن نافع قال : « رأيت ابن عمر يستلم الحجر بيده ثم قبل يده وقال : ما تركته منذ رأيت رسول الله ﷺ يفعله » .

فمتى أمكن الوصول إلى الحجر بدون مزاحمة وإيذاء فالسنة تقبيله ، وإن لم يمكن فليستلمه بيده ثم يقبلها ، وإن تعذر ذلك فليستلمه بشيء في يده ثم يقبله ، وإلا فبحسبه أن يشير إليه بيده مكبرًا وللطائف أن يستلم الركن اليماني أيضًا ولكن من غير تقبيل ، ففي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « ما تركت استلام هذين الركنين –الأسود واليماني– في شدة ولا رخاء منذ رأيت النبي ﷺ يستلمهما » وأما الركنان الآخران فلا يسن استلامهما لأنهما ليسا على قواعد إبراهيم .

---

(١) الهَرَفُ : هو مُجَاوَزَةُ القَدْرِ في الثناءِ والمدح . لسان العرب . [الناشر] .

(٢) المحجن : عصا منحنية من آخرها .

الحِجْرُ من البيت، ولا يصح الطواف إلا من خارجه

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما عن عائشة رضي الله عنها واللفظ لمسلم قالت : « سألت رسول الله ﷺ عن الجدر[١] أمن البيت هو ؟ قال : نعم ، قلت : فلم لم يدخلوه في البيت ؟! قال : إن قومك قصرت بهم النفقة ، قلت : فما شأن بابه مرتفعًا ؟ قال : فعل ذلك قومك ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا ، ولولا أن قومك حديثو عهدهم في الجاهلية – فأخاف أن تنكر قلوبهم – لنظرت أن أدخل الجدر في البيت ، وأن ألزق بابه بالأرض » ، وعلى هذا فلا يجوز الطواف إلا من وراء الحاجز الذي حول الحجر وإلا وقع باطلًا .

فضل الشرب من ماء زمزم

روى البخاري في صحيحه بسنده عن الشعبي أن ابن عباس رضي الله عنهما حدثه قال : سقيت رسول الله ﷺ من زمزم فشرب وهو قائم » .

وروى مسلم في صحيحه بسنده من حديث أبي ذر في قصة إسلامه : « أنها طعام طُعْم » ، ورواه الطيالسي بزيادة : « وشفاء سقم » ، وروى الحاكم في المستدرك من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ قال : « ماء زمزم لما شرب له » ، قال الحافظ ابن حجر في الفتح : رجاله موثقون إلا أنه اختلف في إرساله ووصله ، وإرساله أصح ، وذكر له شواهد ، وقد صحح هذا الحديث ابن عيينة من المتقدمين ، والحافظ الدمياطي والحافظ المنذري من المتأخرين ، وإن كان ضعفه بعض العلماء كالنووي فعلى الحاج أن يشرب منها ويتضلع ، وفوائدها مجربة ملموسة ، وهي خير دينيًا ودنيويًا من المياه المعدنية التي يسعى إليها كثير من الناس ، ويرحلون في سبيل الحصول عليها إلى أوربا وغير أوربا .

فضل الوقوف بعرفة ووجوب الوقوف بها

روى الإمام أحمد وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم – وقال : صحيح الإسناد– عن النبي ﷺ أنه قال : « الحج عرفة » ، قال الترمذي : والعمل عليه عند أهل العلم من الصحابة وغيرهم ، وقد أجمع الفقهاء على وجوب الوقوف بعرفة وقد ورد في فضل يوم

---

(١) الجدر بفتح الجيم وسكون الدال : الحجر .

عرفة أحاديث صحيحة وحسان كثيرة منها، ما رواه الإمام مسلم بسنده عن عائشة قالت: «إن رسول الله ﷺ قال: ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء». وروى عبد الرزاق هذا الحديث في مسنده عن ابن عمر عن النبي ﷺ - وفيه - قال: «إن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة يقول: هؤلاء عبادي جاءوني شعثًا غبرًا يرجون رحمتي ويخافون عذابي، ولم يروني فكيف لو رأوني، فلو كانت ذنوبهم كعدد الرمل لغفرتها لهم أفيضوا عبادي مغفورًا لكم ولمن شفعتم فيه».

وروى الإمام أحمد والطبراني عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال: «إن الله يباهي ملائكته - عشية عرفة - بأهل عرفة فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثًا غبرًا ضاحين من كل فج عميق أشهدكم أني قد غفرت لهم قال الرسول ﷺ: «فما من يوم أكثر عتقًا من النار من يوم عرفة».

فضل الصلاة في المسجد الحرام والمسجد النبوي

روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة وابن عمر وميمونة زوج النبي ﷺ أنه قال: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام»، يعني فإن الصلاة فيه أفضل وإلى هذا ذهب جمهور العلماء ويشهد لهم ما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده والبيهقي وغيرهما بإسناد حسن عن النبي ﷺ قال: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة صلاة في مسجدي»، حديث حسن، والجمهور على أن تضعيف الثواب في المسجدين في صلاة الفرض والنافلة فلتغتنم -يا أخي المسلم- فرصة وجودك في الحرمين الشريفين وأكثر من الصلاة فيها، ولا تنس أن أساس ذلك كله الإخلاص لله، وتطهير الظاهر والباطن عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والظن في الله أن تحظى بهذا الثواب العظيم، واستحقاق النعيم المقيم.

* * *

(٣)

الحج في القرآن الكريم[1]

الحج شريعة من شرائع الأنبياء والمرسلين من لدن أبينا الخليل إبراهيم إلى عهد نبينا محمد عليهما الصلاة والسلام ، وأصل من أصول الإسلام ، وفريضة محكمة باقية إلى يوم الدين ، ولم يحافظ العرب على شريعة من شرائع الخليل إبراهيم وابنه الذبيح إسماعيل عليهما السلام مثل ما حافظوا على شريعة الحج - وإن كانوا شابوه ببعض الوثنيات والتحريفات والتبديلات التي لم ينزل الله بها من سلطان - فلما جاء الإسلام أقر ما هو حق وصدق ، وقضى على ما هو باطل وإثم .

وقد عرض القرآن الكريم - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - إلى الحج في غير ما آية ، وفي أكثر من موضع ، وإليك هذه الآيات على حسب ما ترجح عندي في ترتيبها الزمني والنزولي :

١- الموضع الأول في سورة الحج - وهي مكية إلا آيات منها فإنها مدنية - وقد ذكر الله في هذا الموضع عشر آيات تبدأ من قوله تعالى : ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ الآية [الحج: ٢٧] ، إلى قوله : ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ الآية [الحج: ٣٧] .

٢- الموضع الثاني قوله تعالى في سورة آل عمران - المدنية -: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] .

٣- الموضع الثالث في سورة البقرة - المدنية - في قوله تعالى : ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ﴾ الآية [البقرة: ١٩٦] ، إلى قوله : ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ﴾ الآية [البقرة: ٢٠٣] .

٤- الموضع الرابع في قوله تعالى في سورة التوبة - المدنية -: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ﴾ الآية [التوبة: ٣] .

---

(١) مجلة الحج - الجزء ٥٠ - السنة ١٥ - ذي القعدة ١٣٨٠هـ - ١ مايو ١٩٦١م .

الموضع الأول :

آيات سورة الحج ، وقد عَرَضتُ الآيات لبيان مبدأ هذه الفريضة وحكاية قصتها والمخَاطَبُ بقوله سبحانه : ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ ، هو الخليل إبراهيم عليه السلام ، وهو الذي يدل عليه السياق ، فقد ذكر الله سبحانه قبل هذه الآية قوله : ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج : ٢٦] ، فالكلام السابق في قصة بناء إبراهيم للبيت ، وهذه الآيات في قصة تأديته الحج بعد الفراغ من البناء ، وقد روي أن الخليل لما فرغ من بناء الكعبة أمره الله أن يؤذن ويعلم الناس بالحج ، فقال إبراهيم : وما يبلغ صوتي ؟ فقال الله سبحانه : « أذن يا إبراهيم وعليَّ البلاغ » ، فصعد إبراهيم على جبل أبي قبيس ، ونادى بأعلى صوته قائلًا : يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا ، فأجابه في أصلاب الرجال ، وأرحام الأمهات من كتب الله له الحج إلى يوم القيامة بقولهم : لبيك اللهم لبيك[1] ، وهذا هو السر في أن كل من أحرم بالحج يقول : لبيك اللهم لبيك ، فهو استجابة لنداء الخليل في الزمن السحيق ، واستجابة لنداء الشرائع والأديان في جميع الأعصر والأزمان .

وأما ما ذكره بعض المفسرين من أن المخاطب بالتأذين هو نبينا محمد ﷺ فليس بالرأي السديد . وقد أشار الحق – تبارك وتعالى – إلى فوائد الحج ومنافعه بقوله : ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج : ٢٨] ، والمنافع تشمل الأخروية والدنيوية ، أما المنافع الأخروية : فغفران الذنوب والفوز برضوان الله تعالى ، وأما المنافع الدنيوية : فهي ما يستفيده المسلمون في هذا المجمع الأكبر من التواصل والتحاب والتراحم ، وجمع الكلمة والوحدة والتشاور في كل ما يهمهم من أمورهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وتذاكر ما يعتريهم من الآلام وما يرجونه من الآمال في حاضرهم ومستقبل حياتهم ، ومن المنافع وما يصيبونه من منافع البدن والذبائح والمكاسب التجارية في هذا الموسم العظيم ، ولو أن المسلمين استفادوا من هذا المجمع الأكبر بالمدارسة والمشاورة في كل ما يشكل عليهم من أمور دينهم ودنياهم ، لكانوا على خير ما يكونون ولكانوا على قلب رجل واحد ، وَلَفَوَّتُوا على أعدائهم ما يحرصون عليه – من تفريق كلمتهم

(١) الحديث رواه ابن أبي حاتم في تفسيره .

وإذهاب وحدتهم وإضعافهم سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا – وقد شاء الحق تبارك وتعالى أن يُذَكِّرَ المسلمين باجتناب عبادة الأوثان وقول الزور، وأشد أنواع قول الزور أن يقولوا على الله ما لا يعلمون – من ادعاء الشريك أو الصاحبة أو الولد – تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، وأوصاهم أن يكونوا حنفاء غير مشركين به شيئًا، مبينًا لهم عاقبة الشرك السيئة وآثاره المهلكة، فقال عز شأنه: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَـٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣٠، ٣١].

ثم بين سبحانه أنه لم يزل ذبح المناسك – وإراقة الدماء – على اسم الله مشروعًا في جميع الملل، وفي هذا إشارة إلى قدم شريعة الحج، وأنه من شرائع الأنبياء السابقين، فقال عز من قائل: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

ثم ذكر أن البُدْن من شعائر الحج، وأن الغرض منها ليس إراقة الدماء وأكل اللحوم فحسب، وإنما المعول عليه التقوى والإخلاص لله، وتطهير القلوب من الشرك والشوائب، والتقوى تطلق ويراد بها الأعمال الظاهرة من امتثال المأمورات، واجتناب المنهيات، وتطلق ويراد بها المعنى النفسي، والملكة الراسخة التي عنها تصدر الأقوال والأفعال، وهي بهذا المعنى أساس كل خير وبر وهدى، فقال عز شأنه: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ الآية [الحج: ٣٧].

أما الموضع الثاني ففي سورة آل عمران حيث قال سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وهذه الآية هي الدلالة على وجوب الحج وأنه فريضة محكمة، وهذا الأسلوب في اللغة العربية يدل على التحتم والوجوب إذ «على» تدل على الوجوب، وقد أجمع المسلمون على أن الحج ركن من أركان الإسلام ودعائمه، وأنه يجب على المُكَلَّفِ في العمر مرة، ففي الحديث الصحيح الذي رواه الإمامان أحمد ومسلم عن أبي هريرة قال:

« خطبنا رسول الله ﷺ فقال : أيها الناس قد فُرِضَ عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا ، فقال رسول الله ﷺ : لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ، ثم قال : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه »، وقد روي عن النبي من طرق عدة أنه سُئِلَ ما السبيل ؟ فقال : « الزاد والراحلة »(١) .

والاستطاعة نوعان : استطاعة بالنفس واستطاعة بالغير .

أما الأولى : فأن يكون قادرًا بنفسه على الذهاب ، ووجدان الزاد والراحلة الفاضلين عن نفقته ونفقة عياله ومن يعول حتى حين ذهابه لحين عودته ، وأما الاستطاعة بالغير فهي أن يكون عاجزًا بنفسه بأن يكون زَمِنًا أو به مرض غير مرجو الزوال ، لكن له مال يُمَكِّنَهُ أن يستأجر به من يحج عنه ، يجب عليه أن يستأجر .

ومهما يكن من شيء فالحج فريضة مؤكدة على المستطيع ، والأولى التعجيل به ، ففي الحديث : « تعجلوا إلى الحج -يعني الفريضة- فإن أحدكم لا يدري ما يعرض له » ، رواه أحمد . وقد شدد الله النكير وبالغ في زجر من تكون عنده استطاعة ولم يحج فقال : ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ، وقد روى البغوي بسنده عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال : « من لم تحبسه حاجة ظاهرة أو مرض حابس ، أو سلطان جائر ، ولم يحج فليمت إن شاء يهوديًا أو نصرانيًا » ، وقد روي عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول : « من أطاق الحج فلم يحج فسواء عليه مات يهوديًا أو نصرانيًا »(٢) ، وقال : « لقد هممت أن أبعث رجالًا إلى هذه الأمصار فينظروا إلى كل مكان عنده جدة فلم يحج فيضربوا عليه الجزية ، ما هم بمسلمين ما هم بمسلمين »(٣) ، فليتق الله من يستطيع الحج ، وليعجل وليمتع نفسه برحلة إلى الله فيها الخير الديني والدنيوي .

جعلنا الله سبحانه ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وبقية الكلام عن الموضعين الآخرين في المقال التالي إن شاء الله تعالى .

* * *

---

(١) تفسير ابن كثير ، والبغوي (جزء ٢ صـ١٩٦) .

(٢) رواه البيهقي وابن أبي شيبة .

(٣) رواه سعيد بن منصور في سننه .

(٤)

الحج في القرآن الكريم[١]

الموضع الثالث :

الذي تعرض فيه القرآن الكريم للحديث عن الحج في سورة البقرة المدنية ، وقد ذكر الله سبحانه ذلك في بضع آيات ، وذلك من قوله تعالى : ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٩٦] ، إلى قوله تعالى : ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ الآية [البقرة: ٢٠٣] ، وقد عرضت هذه الآيات إلى الأحكام الآتية :

١- الأمر بإتمام الحج والعمرة ، وأصح ما قيل في إتمامهما هو أن يقوم بهما بمناسكهما وحدودهما وسننهما ، وقد اتفقت الأمة على وجوب الحج على المستطيع ، وأما العمرة[٢] فذهب بعض أهل العلم إلى وجوبها – وإليه ذهب الإمامان الشافعي وأحمد – وذهب قوم إلى أنها سنة – وإليه ذهب الإمامان أبو حنيفة ومالك – وليس في الآية ما يدل على الوجوب ، فإن الأمر بالإتمام غير الأمر بالأداء ، وقد اتفق العلماء قاطبة على أن الشروع في العمرة ملزم لأدائها – سواء قيل بالوجوب أم بالسنية – وقد شاء الله سبحانه – رحمة بعباده – أن يكون في العمر مرة ، وأما العمرة فلم يقيدها بزمن وجعلها في جميع العام ، ذلك أن المحبين للّه والمتشوقين إلى بيته قد لا يتيسر لهم زيارة البيت في أشهر الحج ، ويتيسر لهم ذلك في بقية العام ، فجعل لهم العمرة متى شاءوا ليشبعوا نفوسهم ، ويرضوا عواطفهم ، وينقعوا غلتهم كلما سنحت لهم الفرصة ، وساعدتهم الظروف والملابسات ، وقد اتفقت الأمة على أنه يجوز أداء الحج والعمرة على ثلاثة أوجه : الإفراد ، والتمتع ، والقران .

فصورة الإفراد : أن يُحْرِمَ بالحج ثم بعد الفراغ منه يعتمر من عامه هذا ، وصورة التمتع : أن يعتمر في أشهر الحج ، ثم بعد الفراغ من أعمال العمرة يحرم بالحج من مكة من عامه هذا ، وصورة القران أن يحرم بالحج والعمرة معًا ، أو يحرم بالعمرة ثم يدخل

---

(١) مجلة الحج – الجزء ٦ – السنة ١٥- ذي الحجة ١٣٨٠هـ – يونيه ١٩٦١م.

(٢) العمرة لغة : الزيارة ، وشرعًا : زيارة البيت الحرام لأجل الطواف والسعي .

عليها الحج قبل الطواف ، فيصير قارنًا ، وقد اختلفوا في الأفضل من هذه الوجوه ، فذهب جماعة إلى أن الإفراد أفضل ، ثم التمتع ثم القران ، وهو قول مالك والشافعي ، وذهب قوم إلى أن القران أفضل ، وهو قول أبي حنيفة ، والثوري ، وذهب قوم إلى أن التمتع أفضل ، وهو قول الإمام أحمد بن حنبل .

٢- بيان حكم من حُبِسَ عن الحج بسبب عدو أو مرض أو نحوهما من حائل يحول بينه وبين الإتمام ، وقد ذكر ذلك في قوله سبحانه : ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ ، وقد نزلت هذه الآية سنة ست - عام الحديبية - حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ ، وبين الوصول إلى البيت معتمرين ، وأنزل الله سورة الفتح بكمالها ، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدي وأن يحلقوا رءوسهم ويتحللوا من إحرامهم ، فعند ذلك أمرهم عليه السلام أن يحلقوا رءوسهم ، وأن يتحللوا من إحرامهم فلم يفعلوا انتظارًا للنسخ حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس ، وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلق ، فقال رسول الله ﷺ : « رحم الله المحلقين » ، قالوا : والمقصرين يا رسول الله ، فقال في الثالثة : « والمقصرين » ، وكانوا ألفًا وأربعمائة ، وكان إحصارهم بالحديبية خارج الحرم ، وقيل : بل كانوا على طرف الحرم[1] .

وقد اختلف العلماء في الإحصار الذي يبيح للمحرم التحلل من إحرامه ، فذهب جماعة إلى أن كل مانع يمنعه عن الوصول إلى البيت الحرام - من عدو أو مرض أو جرح أو ذهاب نفقة أو ضلال راحلة - يبيح له التحلل ، وهو مذهب الكثيرين من الصحابة والتابعين وبه قال الكوفيون ، وذهب جماعة إلى أنه لا يباح له التحلل إلا بحبس العدو ، وهو قول ابن عباس وغيره ، وإليه ذهب الشافعي وأحمد وإسحاق ، وأيدوا ما ذهبوا إليه بأن الآية نزلت في الحديبية ، وكان ذلك حصر العدو - والمذهب الأول أولى لكثرة أدلته وقوتها - وكون الآية نزلت في الحديبية لا يقتضي قصره على العدو ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب - والإحصار عند بعض أهل اللغة أعم من أن يكون من مرض أو عدو ، وعند بعضهم إنما هو من المرض ، ثم إن الهَدْي يكون من الإبل والبقر والغنم ، فيجزي فيه ولو شاة - وإلى هذا ذهب جمهور العلماء والأئمة الأربعة ، وهو قول ترجمان

(١) انظر تفسير ابن كثير ، والحديث رواه البخاري ومسلم .

القرآن ابن عباس – وذهب البعض إلى أنه لا يكون إلا من الإبل والبقر ، ومستندهم في هذا قصة الحديبية ، فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح شاة في تحلله هذا ، وإنما ذبحوا الإبل والبقر ، ولكن كونهم لم يذبحوا شاة لا يدل على عدم الجواز .

ومحل ذبح الهدي حيث أحصر – عند أكثر أهل العلم – لأن النبي ﷺ ذبح الهدي عام الحديبية بها ، وذهب قوم إلى أن محله الحرم ، فعلى المحصر أن يقيم على إحرامه ويبعث بهديه إلى الحرم ، ويواعد من يذبحه هناك ؛ ثم يَحِل ، وهو قول أهل العراق ، فإن كان حاجًّا فمحله يوم النحر ، وإن كان معتمرًا ، فمحله يوم يبلغ هديه الحرم .

واختلف القول في المحصر إذا لم يجد هديًا ، ففي قول : لا بدل له ، وفي قول : تُقَوّم الشاة بدراهم ، ويجعل بدل الدراهم طعامًا فيتصدق به ، فإن عجز عن الإطعام صام عن كل مد من الطعام يومًا .

٣- بيان حكم من اضطر إلى مخالفة شيء مما يوجبه الإحرام كحلق رأسه من قمل أو مرض أو سترها لحر أو برد ، أو إلى لبس قميص أو استعمال دواء فيه طيب ، فإن له أن يفعل ذلك وعليه الفدية ، وهذا يدل على يسر الشريعة وسماحتها وصلاحيتها لجميع الأحوال ، ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : ٧٨] ، وذلك في قوله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ ، والفدية : إما صيام ثلاثة أيام وإما صدقة بثلاثة آصع على ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع وإما ذبيحة أعلاها بدنة ، وأوسطها بقرة ، وأدناها شاة ، أيتها شاء ذبح ، فهذه الفدية على التخيير بين الثلاثة ، وكل هدي أو طعام يلزم المحرم يكون بمكة ، ويتصدق به على مساكين الحرم ، إلا هديا يلزم المحصر فإنه يذبحه حيث أحصر عند الأكثر ، وأما الصوم فله أن يصوم حيث شاء .

٤- بيان حكم من تمتع – أي جمع بين العمرة والحج في أشهر الحج – فعليه هدي تمتع شكرًا للّٰه على أداء النسكين ، وأقله شاة ، فمن لم يجد الهدي فعليه صيام عشرة أيام ثلاثة منها في الحج والأفضل أن يصومها في العشر الأوائل قبل يوم عرفة ، والسبعة الباقية إذا رجع إلى أهله ووطنه ، ثم إن هذا الحكم إن لم يكن من حاضري المسجد الحرام ، وقد اختلف في المراد بهم ، فقيل : هم أهل مكة ، وقيل : هم أهل الحرم ومن كانوا دون

المواقيت ، وإلى كل ذهب بعض الأئمة ، وقد ذكر الله سبحانه ذلك في قوله : ﴿فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ، والتقوى : هي امتثال المأمورات واجتناب المنهيات ، ففي الأمر بها أمر بامتثال ما شرع الله والوقوف عنده ، وفي التخويف بأن الله شديد العقاب تحذير من المخالفة ومجاوزة الحد المشروع إلى غير المشروع .

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من المتحلين بلباس التقوى الوقافين عند حدود الله العاملين بشريعته .

* * *

(٥)

الحج في القرآن الكريم[1]

هذا موضع من المواضع التي عرض فيها لشعيرة الحج القرآن الكريم وذلك في قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة : ١٩٨] .

وقد اشتملت هاتان الآيتان الكريمتان على بيان أشهر الحج وبعض آدابه وإليك تفصيل هذا الإجمال .

١ - أشهر الحج هي : شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة وإلى هذا ذهب ابن عمر وصح عنه بسند صحيح ووافقه كثير من السلف ، وإليه ذهب الأئمة أبو حنيفة ، والشافعي ، وأحمد رحمهم الله ، وأبو يوسف وأبو ثور ، وقيل : شوال وذو القعدة وذو الحجة كله ، وبه قال بعض السلف وإليه ذهب الإمام مالك - رحمه الله - والقولان صحيحان لأن من قال بالأول أراد أن الركن الأعظم الذي بفوته يفوت الحج -وهو الوقوف بعرفة- يتحقق ويتم بتمام العشر الأول ، ومن قال بالثاني أراد أنه بعد الوقوف تبقى على الحاج أمور يجب عليه فعلها مثل الرمي والذبح والحلق والبيتوتة بمنى ونحوها.

وقد أخذ بظاهر الآية الإمام الشافعي فقال : لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه وهل ينعقد عمرة ؟ فيه قولان عنه وهذا الذي ذهب إليه الشافعي مروي عن بعض السلف .

وقال الأئمة أبو حنيفة ومالك والشافعي والليث بن سعد وغيرهم : إن الإحرام بالحج في غير أشهر الحج صحيح - وإن كان الإحرام به في أشهره أكمل - ومعنى ﴿ٱلْحَجُّ

(١) مجلة الحج (الجزء ٤ - ١٦ شوال سنة ١٣٨١هـ ، مارس ١٩٦٢) .

﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ أي : وقت الحج ... وهذا من الأساليب العربية التي يفهمها العربي عند سماعها ولا يشكل عليه فهمها ، ولكون أشهر الحج أمرًا معهودًا معلومًا عند العرب خلفًا عن سلف اكتفى سبحانه بقوله : ﴿مَّعْلُومَٰتٌ﴾ ، ولا يشكل على القول الأول التعبير بأشهر ، وأقل الجمع ثلاثة ، لأن هذا مما تتسامح فيه العرب بتنزيل بعض الشهر منزلة كله ولذلك نظائر في القرآن والسنة وكلام العرب .

٢- عرض سبحانه بعض آداب الحج بقوله : ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ يعني فمن أوجب على نفسه الحج بالإحرام به فعليه أن لا يرفث ولا يفسق ولا يجادل ، والرفث : الجماع ومباشرة النساء وكذا دواعيه من التقبيل والعناق ونحوهما ، ومن الرفث التكلم به أو بدواعيه أو التعريض بذلك بحضرة النساء فكل ذلك حرام منهي عنه ؛ لأن من مقاصد الحج السمو بالنفس عن السفاسف وتزكيتها بمكارم الأخلاق وقد اتفق العلماء على أن الجماع حال الإحرام مفسد للحج لا محالة إن كان قبل الوقوف بعرفة ، والفسوق المراد منه : جميع المعاصي فيشتمل السباب والتنابذ بالألقاب والتعدي على الغير وارتكاب ما نهى الشارع عنه في الإحرام من قتل الصيد وحلق الشعر وقلم الأظافر ونحوها ، والفسوق وإن كان محرمًا في جميع الأوقات والأحوال إلا أنه في أشهر الحج وحين الإحرام به أشد حرمة وأعظم جرمًا وذلك كما نهى الله عن الظلم في الأشهر الحرم وإن كان في جميع السنة منهي عنه إلا أنه في الأشهر الحرم أعظم إثمًا كما قال تعالى : ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ ، وقال في الحَرَم : ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج : ٢٥] ، وقد بينت السنة المحمدية ما لترك الرفث والفسوق من غفران الذنوب ومحو الخطايا ، ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » ، والجدال : المخاصمة والمخالفة سواء أكانت مع الرفقة والإخوان أم مع الحماليين والكارين أو مع الباعة والسقاءين وسواء أكانت فيما يتعلق بالحج ومناسكه أم لا ذلك أن الله سبحانه يريد من الحج مجتمع تآلف وتآخ ومودة لا مجتمع تخالف وتباغض وشقاق ويريد منه أن

يكون موسم بر وخير ولذلك بعد أن نَفَّرَ من القبيح رَغَّبَ في الجميل وفعل الخير وأنه سيجزي عليه أوفر الجزاء فقال : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ ، وقد جاءت الآية الكريمة على أبلغ أسلوب فقد جاءت بأسلوب نفي هذه الأشياء وإن كان المراد النهي كأن المنهي عنه قد امْتُثِلَ وأصبحت هذه القبائح والمنكرات من الأمور المنفيات فلله در التنزيل لا تنقضي عجائبه ولا تفنى درره .

٣- من الآداب التي عرض لها الحق تبارك وتعالى في الآية الأولى أن يتزود الحاج ويأخذ معه من المئونة ما يقيه شر الحاجة وذل السؤال وذلك في قوله سبحانه : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ، ولهذه الآية سبب ، ذلك أن ناسًا من أهل اليمن كانوا يخرجون إلى الحج بغير زاد ويقولون : نحن المتوكلون فإذا قدموا مكة سألوا الناس وربما يفضي بهم الحال إلى النهب والسلب فأنزل الله هذه الآية[1] ، ومع هذا التأديب الإلهي فلا يزال بعض الحجاج يتسولون ويتخذون من هذا الموسم فرصة للسؤال وجمع الأموال وهذا أمر يأباه الإسلام ؛ لأن الإسلام دين العزة والعمل وحفظ الكرامة والتعفف لا دين تسول وجمع للأموال من طرق غير شريفة ولا حلال وقد أثنى الله على الفقراء المتعففين فقال : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ٢٧٣] .

والله سبحانه لم يفرض الحج إلا على المستطيع ، أما غيره فعليه أن يلزم بلده ويريح نفسه ويريح الناس من مضايقاته وشروره ويكد ويكدح في سبيل تحصيل لقمة العيش له ولمن يعول بالطرق المشروعة وما أكثرها ، وليس هذا من التوكل في شيء وإنما هو تواكل وكسل ومهانة وقد بين الله أن خير الزاد هو التقوى أي ما يتبلغ به الحاج ويكف به نفسه ويقيها ذل السؤال والحاجة ، ويجوز أن يراد بالتقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات وهي زاد الآخرة ويكون الأسلوب من قبيل الاستطراد ، وهو استطراد حسن وتدعو إليه البلاغة ، ذلك أنه سبحانه لما أمرهم بالتزود للحج ناسب أن يبين لهم زاد

(١) انظر تفسير ابن كثير والحديث رواه البخاري .

الآخرة وهي التقوى وأيًا كان المراد فهذه الجملة بمثابة التعليل للأمر بالتزود ، أما على الأول فالأمر ظاهر ، وأما على الثاني فلأن التقوى الحقة وبمعناها الشامل تشمل التعفف عن المسألة وذلها وحفظ ماء الوجه أن يبتذل ، وكل ما يخل بالمروءة ويخدش اليدين ويتنافى هو والأخلاق الفاضلة لا يكون من التقوى أبدًا ومثل هذا الاستطراد الحسن قول الله سبحانه في آية أخرى : ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف : ٢٦] . نسأل الله أن يزودنا بزاد التقوى ويجملنا بلباسها . وتتمة الحديث في مقال آت إن شاء الله .

* * *

(٦)

الحج في القرآن الكريم[1]

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ١٩٨- ٢٠٢].

وقد عرض الله سبحانه وتعالى في هذه الآيات للتشريعات والمناسك الآتية:

١- بيان أن قصد حج بيت الله الحرام لا ينافيه ابتغاء التجارة وطلب الربح بسببها، وقد كان العرب أهل تجارة، وكانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا لهم في الجاهلية، وكانوا يتجرون فيها في موسم الحج، فلما جاء الإسلام وغير بعض ما كانوا يصنعون تأثموا أن يتجرُوا في موسم الحج وخافوا أن يكون ذلك مذهبًا لثوابهم فبين لهم سبحانه أن لا حرج عليهم في ذلك، وذلك في قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فالمراد بالفضل التجارة، وهذا من يسر الإسلام وسماحته، وإذا علمنا منزلة التجارة عند العرب حينئذ، وأن تسعة أعشار أرزاقهم منها أدركنا إلى أي حد كان هذا التشريع تيسيرًا عليهم، وأي تيسير وفي التعبير بنفي الجناح ما يدل على أن قصد البيت بنية العبادة المحضة، وأداء المناسك من غير طمع في ربح أو تجارة أولى وأفضل.

٢- بين سبحانه المواطن التي يستحب فيها الذكر والدعاء؛ لأنها مظان الإجابة والرجاء بقوله: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ الآية.

---

(١) مجلة الحج - الجزء ٥ - السنة ١٦ - ذي القعدة ١٣٨١هـ - إبريل ١٩٦٢م.

﴿أَفَضۡتُم﴾ : دفعتم ونزلتم منها مسرعين ، و﴿عَرَفَٰتٖ﴾ : علم على مكان الوقوف في الحج وهو ركن بإجماع العلماء وعمدة أفعال الحج ، وفي الحديث الذي رواه أحمد وأصحاب السنن : « الحج عرفات ، فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك ، وأيام منى ثلاثة ، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه » ، ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر من يوم النحر ، لأن النبي ﷺ وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس ، وقال : « لتأخذوا عني مناسككم »[1] ، وهذا مذهب الأئمة مالك وأبي حنيفة والشافعي رحمهم الله ، وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة ، والمشعر الحرام قيل : هو المزدلفة كلها ، وقيل : هو مكان معروف بالمزدلفة وهو ما بين الجبلين ، وفي حديث جابر : « دفع رسول الله ﷺ حتى أتى إلى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يُسَبِّح – أي يتنفل – بينهما شيئًا ثم اضطجع حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة ودعاه وكبره وهلله وَوَحَّدَهُ فلم يزل واقفًا حتى أسفر جدًّا فدفع قبل أن تطلع الشمس »[2] ، والسُّنَّة في الإفاضة من عرفات بعد غروب الشمس ومن المزدلفة قبل طلوعها يوم النحر وهذا مما خالف فيه الإسلام عمل أهل الجاهلية ، قال طاوس : كان أهل الجاهلية يدفعون من عرفة قبل أن تغيب الشمس ، ومن المزدلفة بعد أن تطلع الشمس ، ويقولون : أشرق ثبير كيما نغير ، فأخر الله هذه وقدم هذه[3] .

٣– كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحمس ، وكانوا يقولون : نحن أهل الله وقطان حرمه فلا نخرج منه ويتعظمون أن يقفوا مع سائر العرب بعرفات ، فلما جاء الإسلام أمرهم الله أن يقفوا بعرفات ويفيضوا منها إلى المزدلفة كبقية الناس وذلك بقوله : ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[4] ، والحج درس من

---

(١) الحديث رواه مسلم .

(٢) الحديث رواه مسلم .

(٣) انظر تفسير القرطبي ، وتفسير البغوي .

(٤) انظر صحيح البخاري .

دروس المساواة وفيما كانت تصنعه قريش خرق لهذه المساواة من غير أن تكون لهم حجة معقولة أو أصل صحيح يستندون إليه .

٤ - كان العرب في الجاهلية إذا فرغوا من أداء المناسك وقفوا عند البيت فذكروا مفاخر آبائهم وأجدادهم فبين لهم الله سبحانه أن التفاخر لا يجدي ، والواجب أن يشتغلوا بذكر الله الذي خلقهم وخلق آباءهم وأنعم عليهم بشتى النعم والآلاء وكان منهم من لا يسأل الله تعالى في الحج إلا أمور الدنيا فيقولون : اللهم اجعله عام غيث وخصب وعام ولاء ونتاج وما شابه ذلك ، ولا يذكرون من أمور الآخرة شيئًا على حين جاء بعدهم قوم وهم المؤمنون فكانوا يسألون خيري الدنيا والآخرة ، وقد جاء وضع الصورتين للفريقين متقارنتين في غاية الروعة والتأثير ، واقتران الضدين يزيد من حُسْنِ الحَسَنِ بقدر ما يزيد من قُبْحِ القَبِيح وقد ذكر الله ذلك في قوله : ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ ، إلى قوله : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١] ، وقد جمعت هذه الدعوة كل خير دنيوي وصرفت كل شر فإنها تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية ومنزل رحيب ورزق حلال واسع ، وزوجة حسنة ، وعلم نافع وعمل صالح ، ومركب وطيء ذلول وثناء جميل إلى غير ذلك مما عرض له المفسرون ولا منافاة بين هذا وما روي عن سيدنا عليّ رضي اللّه عنه من أن الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة وفي الآخرة الجنة والحور العين[٢] ؛ لأنه إنما قصد التمثيل لا الحصر والاستقصاء ، وأما الحسنة في الآخرة فدخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر ، وتيسير الحساب ، والفوز بالرضوان الأكبر ، وأما النجاة من النار فيكون بتيسير أسبابها في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام ، وترك الشبهات والحرام ، وكثيرًا ما كان النبي ﷺ يدعو بهذا الدعاء لما يدخل تحته من الخير الديني والدنيوي ، فقد روى الإمام أحمد عن عبد العزيز بن صهيب قال : سألت أنسًا أي دعوة كان أكثر ما يدعوها النبي ﷺ ؟ قال يقول : اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار .

---

(١) انظر الدر المنثور وتفسير ابن كثير .

(٢) انظر تفسير البغوي .

٥- الحج من الشعائر التي يتجلى فيها تعظيم الله وتمجيده ، ولذلك شرع الشارع الحكيم في جميع مناسكه التهليل والتكبير ، والإكثار من ذكر الله في كل وقت عند الإحرام ، وكلما علا جبلًا أو هبط واديًا ، وعند رمي الجمار ، والذبح ، وعقب الصلوات ، ومن هذه الأيام التي أمر الله فيها بالإكثار من ذكره أيام التشريق ، وقد روي عن الفاروق عمر وابنه عبد الله أنهما كانا يُكَبران بمنى في هذه الأيام خلف الصلوات ، وفي المجلس وعلى الفراش ، وفي الفسطاط ، وفي الطريق ويكبر الناس بتكبيرهما[١] ، وعرفة ويوم النحر من أعياد الإسلام ، وأيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر ، ولذلك ورد النهي عن صومها ، و أيام التشريق هي الأيام التي تعقب يوم النحر وقد خير الله الحاج بين أن ينفر في اليوم الثاني أو يتأخر إلى الثالث فينفر فيه ذلك أنه على الحاج أن يبيت بمنى الليلة الأولى والثانية من أيام التشريق ويرمي كل يوم بعد الزوال إحدى وعشرين حصاة عند كل جمرة سبع حصيات ورخص في ترك البيات لرعاة الإبل وأهل سقاية الحاج ، فمن رمى في اليوم الثاني وأراد أن ينفر فلينفر ، ومن لم ينفر حتى غربت الشمس فعليه أن يبيت حتى يرمي في اليوم الثالث ثم ينفر وقد ذكر الحق تبارك وتعالى هذا في قوله : ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ الآية .

ثم إن هذه المناسك والمشاعر وما وعد الله عليها من غفران الذنوب والفوز بالجنان والرضوان إنما هي لمن ينشد التقوى ويحرص عليها ويسعى جاهدًا في سبيل تحقيقها ، والتقوى هي غاية كل مؤمن يؤمن بالله ويؤمن بيوم الحشر والحساب وصدق الله : ﴿لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ .

* * *

(١) الحديث رواه البخاري معلقًا في كتاب العيدين ، باب التكبير أيام منى وإذا غدا إلى عرفة . [الناشر] .

(٧)

يوم الحج الأكبر[1]

والموضع الرابع الذي ذكر فيه الحج في القرآن الكريم في قوله سبحانه : ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة : ٢] الآية .

لما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك وهي آخر غزوة غزاها واستتب الأمر للمسلمين في الجزيرة العربية أراد الحج ، ولكنه قال : « إنه تحضر البيت عراة مشركون يطوفون بالبيت فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك »[2] ، فأرسل أبا بكر أميرًا على الحج سنة تسع وبعث معه بصدر سورة براءة ليقرأها على أهل الموسم .

وبعد أن سار الصديق رضي الله عنه ومعه الحجيج نزل جبريل على النبي ﷺ -كما رواه الطبراني- فقال له : « إنه لن يؤديها عنك إلا أنت أو رجل منك » .

فدعا النبي ﷺ عليًا وقال له : أخرج بهذه الآيات من صدر سورة براءة فأذن بها في الناس إذا اجتمعوا أي أعلمهم بها ، والأذان هو الإعلام وإنما قال جبريل للنبي ﷺ هذه المقالة لأن صدر سورة براءة تضمن نقض العهود المطلقة غير المؤقتة أو التي مدتها دون أربعة أشهر فيما زاد عن الأربعة ، وكان من عادة العرب في عقد العهود أو نقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيد القبيلة أو رجل من رهطه فأراد الله سبحانه وتعالى أن يقطع ألسنة العرب المعاندين حتى لا تقوم لهم على النبي الحجة بمخالفته لما تواضع عليه العرب ، ولا سيما إذا كان في أمر له وجاهته واعتباره كهذا الأمر ، ولا يزال الأمر إلى عصورنا هذه لا يتولى مثل هذا إلا رؤساء الدول أو من ينيبونهم عنهم ، فمن ثم أشار جبريل على النبي ﷺ أن لا يبلغها إلا النبي أو رجل من بيته ، وطبعي أن يكون علي هو الأحق بذلك من آل بيت النبي ؛ لأنه تربى في بيت النبوة ، وله من السوابق والقدم الثابتة في الإسلام ما

(١) مجلة الحج - الجزء ٦ - السنة ١٦ - ذي الحجة ١٣٨١هـ - مايو ١٩٦٢م .

(٢) انظر تفسير البغوي .

ليس لغيره فخرج علي رضي الله عنه على ناقة الرسول « العضباء »[١] ، حتى أدرك أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه بذي الحليفة ، فقال له أبو بكر لما رآه : أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور ثم سارا فأقام أبو بكر للناس الحج على إرث من شريعة إبراهيم وقد خطب الصديق قبل يوم التروية معلمًا الناس مناسكهم ثم خطب يوم عرفة ويوم النحر ، وكان كلما خطب الصديق قام سيدنا علي فقرأ على الناس صدر سورة براءة ، ثم ينادي في الناس بهذه الأمور الأربعة ، روى الترمذي عن زيد بن يثيع قال : سألت عليًا بأي شيء بعثت في الحج ؟ قال : بعثت بأربع : ألا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فهو إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح وخرجه النسائي أيضًا وفيه قال علي : فكنت أنادي حتى صحل صوتي[٢] ، وقد رأى أبو بكر أن يعين عليًا بمن يساعده في الإعلام فأرسل أبا هريرة رضي الله عنه في رهط آخرين من الصحابة حتى يحصل الغرض من التأذين ، وهو إعلام الناس كافة ، روى الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة قال : كنت مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ ببراءة إلى أهل مكة فكنت أنادي معه بذلك حتى يصحل صوتي وكان ينادي قبلي حتى يعي ، ونعما فعل الصديق في هذا الموسم الحافل الذي يجتمع فيه الناس من كل فج عميق يتعذر على أي فرد أن يقوم وحده بالتبليغ مهما أوتي من قوة .

ومن هذا العرض يتبين المراد من الآية ، كما يتبين أيضًا السر في إرسال علي ليتلو على الناس هذه الأمور ، وليس الأمر كما زعم الروافض من أن عليًا أفضل من أبي بكر وأولى منه بالتقديم ، وبنوا على هذا أن عليًا أحق بالخلافة من أبي بكر ، وقد كذبوا فيما زعموا فلم يكن علي أميرًا بل كان مأمورًا كما رواه الثقات من المحدثين وكُتَّابُ السيرة ، وقد أفصحنا آنفًا عن السر في إتباع أبي بكر بعلي ليقرأ صدر سورة براءة على الناس .

وقد اختلف العلماء في المراد بيوم الحج الأكبر أهو يوم النحر أم يوم عرفة ؟ فقال جمهور العلماء سلفًا وخلفًا : إنه يوم النحر وروي عن علي وابن عباس وابن مسعود

(١) سميت العضباء لنجابتها وقوتها ومنه سيف عضب حاد قاطع .

(٢) في القاموس : صحل صوته كفرح فهو أصحل وصحل بح أو احتد في بحح .

وغيرهم واختاره الطبري وهو مذهب مالك والشافعي في الصحيح عنه وأحمد رحمهم الله ويشهد لهذا الرأي الحديث الذي رواه الشيخان في صحيحيهما عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمَّره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فكان حميد بن عبد الرحمن يقول : يوم النحر يوم الحج الأكبر ، من أجل حديث أبي هريرة وحميد هذا هو الراوي عن أبي هريرة وقد استنبط ذلك من قوله تعالى : ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ...﴾ ، ومن تأذين أبي هريرة وغيره بهذه الأمور مساعدين لعلي رضي الله تعالى عنه يوم النحر ، فبضم الحديث إلى الآية يتعين أن يوم النحر هو يوم الحج الأكبر وقيل الحج الأكبر تمييزًا له عن الحج الأصغر وهي العمرة ، وروى أبو داود عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر في الحجة التي حج فيها فقال : « أي يوم هذا ؟ فقالوا : يوم النحر ، فقال : هذا يوم الحج الأكبر » ، وأيضًا فالوقوف بعرفة والمزدلفة إنما هو في ليلته ، والرمي والنحر ، والحلق والطواف في صبيحته ففيه كثير من المناسك ومن هنا يمكننا أن نقول إنه سمي يوم الحج الأكبر لما يقع فيه وفي ليلته من أعظم المناسك وأكثرها ، وتكون الأكبرية نسبية ، وقيل : يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة ، روي هذا عن عمر وعثمان رضي الله عنهما ، وعن مجاهد وغيرهم ، وهو مذهب أبي حنيفة وعزاه القاضي عياض والقرطبي للشافعي ، وَرَدَّهُ الإمام النووي في شرح مسلم وقال : هذا خلاف المعروف من مذهب الشافعي ، والنووي أعرف بمذهب إمامه من غيره ، واحتج الذاهبون إلى هذا القول بالحديث المشهور « الحج عرفة »[1] ، وقال الثوري وابن جريج : الحج الأكبر أيام منى كلها و هذا كما يقال : يوم صفين ويوم بعاث فيراد باليوم الحين والزمان لا اليوم المعروف .

وفي العام القادم سنة عشر بعد أن نفى المشركون عن البيت وقضى على عادات الجاهلية في الحج خرج رسول الله ﷺ حاجًّا حجة الوداع يقود الألوف المؤلفة من المسلمين في مشهد عجيب لم تشهد الصحراء له مثيلًا من قبل ، وأقام الحج على إرث من شريعة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام ، وما أحيته شريعة الإسلام وقال للناس :

---

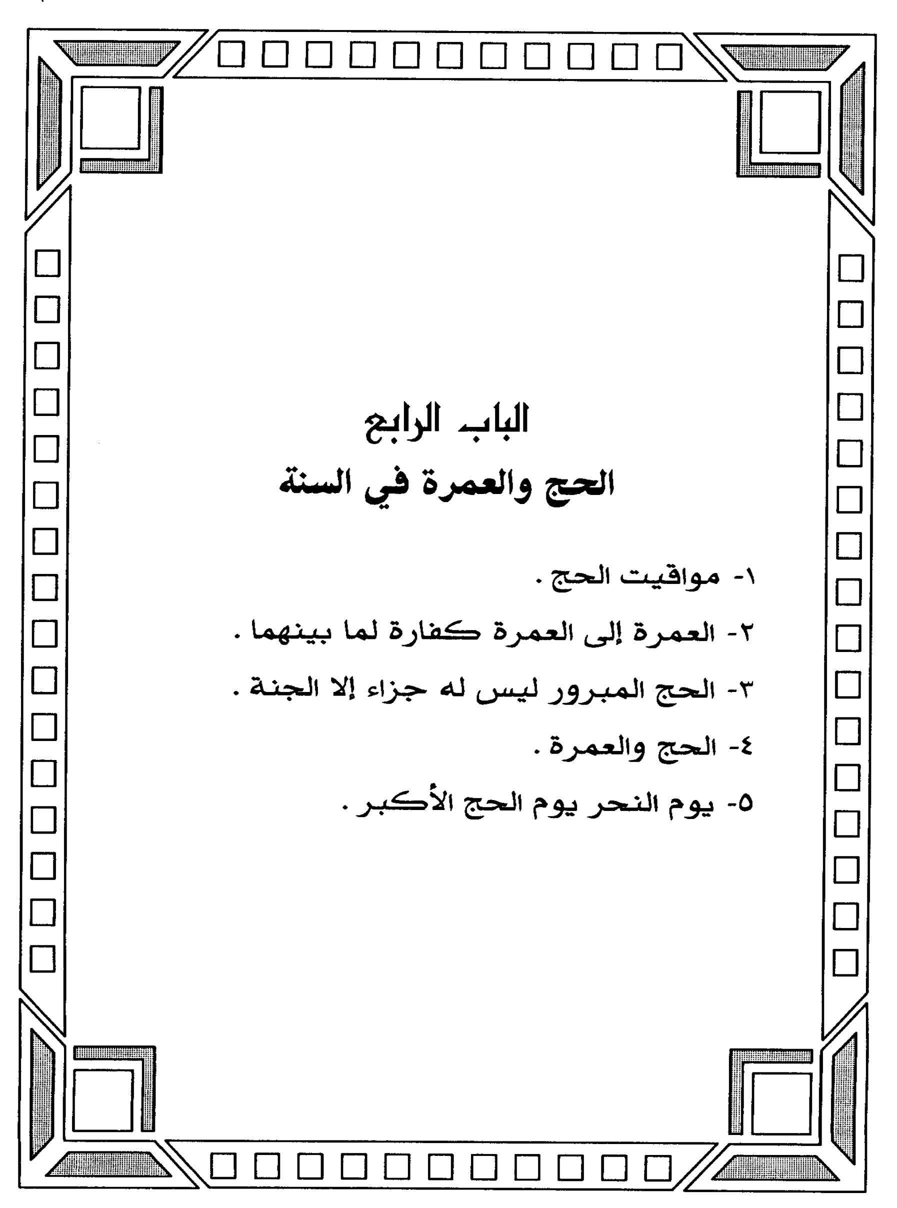
(١) انظر تفسير مجاهد والقرطبي .

« لتأخذوا مناسككم عني فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا »[١] ، وخطب الناس مرارًا معلمًا وهاديًا وناصحًا وملخصًا للناس الأسس الإسلامية الباقية الخالدة التي جاء بها القرآن والسنة وفي يوم عرفة عام حجة الوداع - وكان يوم جمعة - أنزل الله على نبيه صلوات الله وسلامه عليه قوله سبحانه : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] .

* * *

---

(١) الحديث رواه مسلم .



الباب الرابع
الحج والعمرة في السنة

١- مواقيت الحج .

٢- العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما .

٣- الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة .

٤- الحج والعمرة .

٥- يوم النحر يوم الحج الأكبر .

(١)

مواقيت الحج[١]

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما بسندهما عن ابن عباس رضي الله عنهما – واللفظ للبخاري– قال : وقَّت رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحليفة ، ولأهل الشام الجحفة ، ولأهل نجد قرن المنازل ، ولأهل اليمن يلملم ، هن لهن ولمن أتى عليهن ممن أراد الحج والعمرة ، ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ حتى أهل مكة من مكة[٢] .

الشرح والبيان :

ابن عباس راوي هذا الحديث هو الصحابي الجليل عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما ابن عم النبي ﷺ ، ولد قبل البعثة بثلاث سنين ، وهاجر مع أبيه ليلة الفتح ؛ لأن أباه لم يسلم إلا ليلتها ، وكان كثيرًا ما يبيت عند خالته السيدة ميمونة زوج النبي ﷺ فيرى من أحوال النبي ويسمع قوله وقد دعا له النبي ﷺ بأن يعلمه اللّٰه تأويل الكتاب – القرآن– ويفقهه في الدين ، فكان من أعلم الناس بالقرآن الكريم حتى أطلق عليه ترجمان القرآن[٣] ، وقد روى عن النبي ﷺ ، وروى عن كبار الصحابة رضوان الله عليهم .

وقد كان الفاروق عمر رضي الله عنه يدنيه منه ويقربه ويقول : ذاكم فتى الكهول له لسان سؤول ، وقلب عقول . وكان يدخله مع كبار الصحابة ، فكأنهم وجدوا لذلك وقالوا : إن لنا أبناء مثله ، فأحضره عمر ، وألقى عليهم وعليه أسئلة منها : أنه سألهم عن معنى قوله تعالى : ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر : ١– ٣] ، فقالوا : أمرنا الله إذا جاء نصره ، وفتح علينا أن نحمده ونستغفره ، فقال لابن عباس : ما تقول فيها ؟ فقال : هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه ، فقال سيدنا عمر : والله ما أعلم منها إلا ما علمت ! فَعَلِمَ الصحابة السر في إجلال الفاروق له .

---

(١) مجلة الحج ، السنة الثامنة ، العدد الثامن ، شوال ١٣٩٠هـ ، ديسمبر ١٩٧٠م .

(٢) رواه البخاري في كتاب الحج باب مهل أهل مكة للحج والعمرة ، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الحج باب مواقيت الحج .

(٣) أي الذي يفسر القرآن ويوضح معانيه ومراميه .

وقد كان حريصًا جد الحرص على رواية أكبر قدر من حديث رسول الله ﷺ ، وقد بلغ من أمره أنه كان يبلغه الحديث عند أحد الصحابة فيذهب فيجده نائمًا فلا يوقظه ، وينام على باب داره حتى يخرج فيسأله عما جاء له ، فيروي له ما عنده ، ثم يقول : كان الأَوْلى أن نجيء إليك - وذلك لمكانه من رسول الله - فيقول له : لا ، أنا أحق أن أجيء إليك .

وقد رويت له أحاديث كثيرة في الصحيحين وفي غيرهما ، وخلف لنا ثروة ضخمة في التفسير وعلوم القرآن ، وقد ختم حياته بالمقام بالطائف ، ومات بها ، ودفن ، ولما مات قال الناس : مات اليوم حبر[1] هذه الأمة ، وكانت وفاته سنة ثمان وستين للهجرة على الصحيح .

الميقات : التوقيت ، والتأقيت ؛ أن يجعل للشيء وقتًا يختص به ، وهو بيان مقدار المدة يقال : وقت الشيء -بتخفيف القاف- يقته ، ووقَّته -بتشديد القاف- يوقته إذا بيَّنَ مدته ومنه قوله تعالى : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف : ١٤٢] .

فالميقات في الأصل للزماني ثم توسع فيه فصار يطلق على الميقات المكاني أي المكان المحدد للشيء ، وهو ما يعنيه المحدثون ، والفقهاء ، والمفسرون وغيرهم حينما يقولون : مواقيت الحج .

وللحج ميقات مكاني وهو ما ذكر في هذا الحديث وميقات زماني وهو شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة وقيل ذو الحجة كله وهي المرادة من قوله تعالى : ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

ولا يجوز الإحرام بالحج في غير هذه الأشهر ، وأما العمرة فيجوز الإحرام بها ، وفعلها في جميع السنة .

وقد يسألني سائل : ما الحكمة في توقيت هذه المواقيت ؟

والجواب : - والله ورسوله أعلم- أن القاصد إلى أداء الحج والعمرة قاصد إلى بيت ربه ، وإلى رحاب الكعبة المشرفة التي لم تزل معظمة مشرفة من قديم الزمان وقد جرت

(١) الحبر العالم الجليل ، وكان يلقب أيضًا بالبحر لسعة علمه وغزارة فقهه .

العادة في الدنيا أن القادم إلى بيوت الملوك ومنازل الكبراء والعظماء أن يكون على سمت خاص ، وعلى هيئة خاصة ، وأن يكون على استعداد لهذا ، وتهيؤ له ، وربنا تبارك وتعالى ملك الملوك ، وأكبر من الكبراء وأعظم من العظماء فهو أحق أن يستعد له ، وأن يخلي القاصد إليه نفسه من كل شيء إلا منه ، ومن كل ذكر إلا ذكره ، وأن لا يلهج بالثناء على أحد إلا عليه فلذلك جعل الشارع الحكيم المواقيت والإحرام منها ، وألزم المحرم بالتجرد من زخارف الدنيا وزينتها ، والاكتفاء بإزار ورداء يستران العورة ، ويقيان الجسم وبأن يكثروا من التلبية ، والتهليل ، والتكبير ليصيروا أهلًا لأن يحلوا ببيت الله ، ويتشرفوا بجواره ، وليحصل لهم من الاستعداد الروحي والنفسي ما يستأهلون به أ ن يكونوا عبيدًا مخلصين لله ، وأن يناجوا الله ، وأن يدعوه ، وأن تحل عليهم رحماته ، وينالهم شيء من تجلياته ورضوانه .

وربط المعاني الروحية والنفسية بالصور الجسمانية ، والهيئات البدنية من حكمة الإسلام العالية ، وفلسفته العميقة التي لا يدركها إلا أولو الألباب ، وهي أسلوب من أساليب التربية العجيبة النافعة التي سبق إليها الإسلام .

وقَّت رسول الله ﷺ لأهل المدينة ذا الحليفة : وقَّت : أي جعل ميقاتهم المكاني لإحرامهم هذا المكان ، والمدينة المراد بها مدينة الرسول ﷺ وذو الحليفة بضم الحاء ، وفتح اللام وإسكان الياء ، مكان قريب من المدينة بينه وبين المدينة نحو ستة أميال ، وبه بئر يقال له : بئر علي ، وهي الآن تعرف بآبار علي ، وبينها وبين مكة حوالي مائتي ميل .

ولأهل الشام الجحفة : الجحفة بضم الجيم وسكون الحاء المهملة : قرية على بعد خمس مراحل[1] أو ست من مكة ، وفي رواية ابن عمر تسميتها -مهيعة- بفتح الميم وسكون الهاء وفتح الياء على وزن علقمة ، وهي التي دعا النبي ﷺ الله أن ينقل حمى المدينة إليها ، وقد جاء في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها -الذي رواه النسائي- : ولأهل الشام ومصر الجحفة ، وقد درست هذه القرية وخربت وإنما يحرم المصريون ومن على شاكلتهم الآن من قرية رابغ -وهي قريبة من الجحفة التي تخربت وزالت- ولأهل نجد قرن المنازل .

---

(١) المرحلة : مسيرة يوم وليلة بالمشي العادي والاستراحة .

نجد : كل مكان مرتفع ، وهو اسم لمواضع كثيرة ، ولكن المراد به هنا الإقليم المعروف بالجزيرة العربية الذي يتاخم الحجاز ، وفي شماله الشام ، والعراق ، وفي جنوبه اليمن ، وغيرها .

قرن : بفتح القاف وسكون الراء بعدها نون ، وضبطه صاحب الصحاح بفتح الراء ، وغلطوه في هذا بل بالغ الإمام النووي فحكى الاتفاق على تخطئته في ذلك ، لكن حكى الإمام القاضي عياض أن من قال بالإسكان أراد الجبل ، ومن قال بالفتح أراد الطريق وهذا المكان الذي يقال له : قرن المنازل ، بينه و بين مكة من جهة المشرق مرحلتان ، وحكى الروياني عن بعض قدماء الشافعية أن المكان الذي يُقال له « قرن » موضعان : أحدهما في هبوط ، وهو الذي يقال له : « قرن المنازل » ، والآخر في صعود ، وهو الذي يقال له : « قرن الثعالب » ، والمعروف الأول .

ولأهل اليمن يلملم : يلملم بفتح الياء التحتانية ، واللام ، وسكون الميم بعدها لام مفتوحة ثم ميم : مكان على مرحلتين من مكة بينهما نحو من ثلاثين ميلًا ، ويقال لها : ألملم بالهمزة ، وهي الأصل والياء بدل منها للتسهيل .

وقد ظهر مما تقدم أن أبعد المواقيت من مكة ذو الحليفة ميقات أهل المدينة فقيل : الحكمة في هذا أن تعظم أجور أهل المدينة ، لأن أهل المدينة أقرب الآفاق إلى مكة ، فأراد الله على لسان رسوله أن تعظم أجورهم بكثرة الخطى والمشي ، ولما أراد بعض الصحابة الانتقال إلى قريب من المسجد النبوي قال لهم النبي : «ألا تحتسبون آثاركم »[1] - أي آثار مشيهم وأقدامهم- ، وأيضًا ففي المواقيت الأخرى رفق بأهل الآفاق البعيدة .

وأما ذات عرق ، بكسر العين ، فهي ميقات أهل العراق ، وقد اختلف العلماء : أكان ذلك بتوقيف أم باجتهاد عمر ؟! قولان .

وقد ورد هذا التوقيت في حديث جابر في صحيح مسلم ، لكنه غير ثابت لعدم جزمه برفعه إلى النبي ﷺ .

هن لهن ولمن أتى عليهن من غيرهن : أي هذه الأماكن المذكورة التي هي

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم .

المواقيت لأهل هذا البلاد المذكورة ولمن أتى على هذه البلاد من غير أهل هذه البلاد المذكورة ، فمن دخل هذه البلاد ولو كان من غير أهلها فميقاته ما ذكر حتمًا ، فالمصري أو الشامي أو العراقي إذا كان بالمدينة وجب عليه وتحتم أن يحرم بالحج أو العمرة من ذي الحليفة فإن أَخَّرَ الإحرام أساء ولزمه دم ، و هذا عند جماعة من العلماء ، وهو مذهب الشافعي ، بل ادعى الإمام النووي الاتفاق عليه ، ولعله أراد في مذهب الشافعي وإلا فالمعروف في مذهب المالكية والحنفية أن الشامي والمصري إذا جاوز ذا الحليفة إلى ميقاته الأصلي وهي الجحفة جاز له ذلك وإن كان الأفضل الإحرام من ذي الحليفة .

ممن أراد الحج والعمرة : هذا يدل على أن وجوب الإحرام من المواقيت لمن أراد أداء أحد النسكين الحج والعمرة ، أو هما معًا ، وأما من لا يريد الحج والعمرة فلا يلزمه الإحرام لدخول مكة على الصحيح من مذهب الشافعية سواء دخل لحاجة تتكرر كحطاب ، وحشاش ، - يعني بائع الحشيش للدواب- وصياد ونحوهم ، أو لا تتكرر كتجارة ، وزيارة ونحوها ، وقال الإمام أبو حنيفة : من أتى على ميقات من المواقيت لا يتجاوزه غير محرم ، سواء قصد دخول مكة أو لم يقصد .

ويعجبني في هذا المقام ما قاله الإمام ابن قدامة ؛ قال : أما المجاوز للميقات ممن لا يريد نسكًا فعلى قسمين : أحدهما لا يريد دخول مكة بل يريد حاجة فيما سواها فهذا لا يلزمه الإحرام بلا خلاف ، ولا شيء عليه في تركه الإحرام ، لأنه ﷺ أتى بدرًا مرتين ولم يحرم ، ولا أحد من أصحابه ، ثم متى بدأ لهذا الإحرام وتجدد له العزم عليه أن يحرم من موضعه ، ولا شيء عليه ، هذا ظاهر كلام الخرقي ، وبه يقول مالك ، والثوري ، والشافعي ، وصاحبا أبي حنيفة . الثاني : من يريد دخول الحرم إما إلى مكة أو غيرها فهم على ثلاثة أضرب : أحدهما من يدخلها لقتال مباح ، أو من خوف ، أو لحاجة متكررة كالحشاش ، والحطاب وناقل الميرة -أي الطعام- ، ومن كان له ضيعة يتكرر دخوله وخروجه إليها فهؤلاء لا إحرام عليهم لأن النبي ﷺ دخل يوم فتح مكة حلالًا وعلى رأسه المغفر ، وكذا أصحابه ، ولا نعلم أحدًا منهم أحرم يومئذ ، ولو وجب الإحرام على من يتكرر دخوله إليها أفضى ذلك إلى أن يكون جميع زمنه محرمًا ، وبهذا قال الشافعي .

ومن كان دون ذلك فمن حيث أنشأ حتى أهل مكة من مكة : أي ومن كان بين الميقات ومكة فميقاته من حيث أنشأ الإحرام إذ السفر من مكانه إلى مكة ، وهذا يكاد يكون موضع اتفاق بين العلماء .

وأهل مكة يهلون بالحج منها ، ولا يحتاجون إلى الخروج إلى الميقات للإحرام ، وأما ميقات المكي أو من كان بمكة من غير أهلها للعمرة فأدنى الحل ؛ لحديث عائشة في الصحيحين « أن النبي ﷺ أمرها في العمرة أن تخرج إلى التنعيم ، وتحرم بالعمرة منه ، والتنعيم في طرف الحل ، فخرجت ومعها أخوها عبد الرحمن بن أبي بكر »[1] .

وبعد فهذه أيها المسلم – الذي تريد الحج أو العمرة– مواقيت الإحرام فاحرص على أن لا تتجاوزها وأنت محرم ، وجرد قلبك من الشواغل كما جردت جسمك من الزخارف وزينة الدنيا ، وداوم الذكر ، والتهليل ، والتلبية ، حتى تحل بجوار ربك ، وقد تطهرت نفسك ، وزكت روحك ، وإياك والرفث ، والفسوق والمراء ، ولاسيما في بلد الله الحرام ، وأمسك لسانك ورحم الله امرأً قال خيرًا فغنم ، أو سكت فسلم .

* * *

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم .

(٢)

العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما[١]

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة »[٢] .

البيان والشرح :

يستحسن قبل شرح الحديث ، وبيان المراد منه أن نعرض لكلمتي « الحج » و« العمرة » بالتحليل ، وبيان معنييهما اللغوي والشرعي ، فنقول وبالله التوفيق : الحج لغة : القصد ، وقيل : ليس المراد مطلق القصد ، وإنما المراد القصد إلى مُعَظَّم ، والحج بفتح الحاء وكسرها لغتان : الكسر لغة الحجاز ، والفتح لغة غيرهم ، وقيل : بالفتح الاسم ، وبالكسر المصدر وقيل العكس .

وفي الشرع : قصد البيت الحرام بأفعال مخصوصة ، في أشهر مخصوصة ، وهي : شوال ، وذو القعدة وعشر من ذي الحجة وأما العمرة فهي في اللغة الزيارة ، يقال : اعتمر البيت زاره ، وقد ذكر صاحب القاموس المحيط – في مادة عمر – والعمرة : الزيارة ، وقد اعتمر ، وأعمره أعانه على أدائها ، وأما معناها في الشرع فهي زيارة البيت الحرام لأجل الطواف بالبيت ، والسعي بين الصفا والمروة .

والحج ركن من أركان الإسلام وفريضة محكمة باقية إلى يوم القيامة ، وقد ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة ، والإجماع ، وأصبح معلومًا من الدين بالضرورة ، فمن أنكره فقد كفر .

أما فرضيته بالكتاب ففي قوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران : ٩٧] .

وعلى تدل على الإلزام ، والتحتم ، والوجوب في استعمالات اللغة العربية وأما السنة

---

(١) نشر بمجلة رابطة العالم الإسلامي – سنة ٨ – عدد ٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه كتاب الحج ، باب وجوب العمرة وفضلها ، ورواه مسلم في كتاب الحج ، باب فضل الحج والعمرة .

فقوله ﷺ : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصيام رمضان ، والحج » . رواه الشيخان وغيرهما .

الحج فريضة في العمر مرة وما زاد فهو تطوع ، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله ﷺ فقال : « يا أيها الناس ، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل[١] : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا . فقال النبي ﷺ : « لو قلت : نعم لوجبت ، ولما استطعتم ، ذروني ما تركتكم ، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإن أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شيء فاتركوه » .

ورواه أيضًا الإمام أحمد في مسنده ، والنسائي في سننه ، بزيادة « والحج مرة فما زاد فهو تطوع » .

الحج فرض على الفور أم على التراخي ؟

وقد اختلف العلماء في كونه فرضًا على الفور أو على التراخي ، وهما قولان للعلماء فمنهم من قال على الفور ومنهم من قال على التراخي ، ولكن الأفضل التعجيل به للمستطيع عند عدم الموانع الشرعية ، لأن الآجال غير معلومة ، ولا يدري المستطيع ماذا يكون في غده ، فقد يمرض الصحيح ، وتفقد الراحلة ، وتعرض الحاجة ، والأليق بالمسلم اغتنام الخير ، والمسارعة إليه .

متى فرض ؟

وقد اختلف العلماء في سنة فرضيته ، فقيل : سنة خمس من الهجرة وقيل : سنة ست ، وقيل : سنة تسع ، وأوسطها أرجحها .

حكم العمرة : وأما العمرة فقد اختلف فيها العلماء أهي واجبة ، أم سنة ؟

فالجمهور على أنها واجبة ، ومن قال بالوجوب من الصحابة فمن بعدهم السادة عمر ، وابنه عبد الله ، وابن عباس ، وطاووس ، وعطاء ، وابن المسيب ، والحسن البصري ، والثوري ، وإليه ذهب الأئمة : الشافعي ، وأحمد ، وقال الأئمة أبو حنيفة

---

(١) هو الأقرع بن حابس كما بينته بعض الروايات الأخرى .

ومالك ، وأبو ثور وغيرهم : هي سنة .

ولما كان الحج لا يجوز إلا في أشهر خاصة – وقد لا يتيسر للمسلم السبيل إليه في أشهر الحج – اقتضت رحمة الله بعباده أن ييسر عليهم ، وذلك بأن يجعل لهم نسكًا آخر يؤدى في جميع أيام السنة ، وهي العمرة فيصبح أداؤها في أي وقت شاء من أيام السنة .

وقد ذهب الجمهور ومنهم الأئمة مالك ، والشافعي ، وأحمد إلى أنها لا تكره لغير الحاج في يوم عرفة ، والأضحى وأيام التشريق وقال الإمام أبو حنيفة أنها تكره في خمسة أيام : عرفة ، والأضحى وأيام التشريق الثلاثة ، وقال أبو يوسف : تكره في أربعة أيام فقط : عرفة ، وأيام التشريق .

العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما .

الكفارة : على وزن فعالة من الكفر وهو الستر اسم لكل ما يستر الذنوب ، ويمحوها ، و« إلى » معناها الانتهاء : أي العمرة المنتهية إلى عمرة أخرى وقال بعض العلماء : يجوز أن يكون معناها « مع » أي العمرة مع العمرة .

ما الذي تكفره العمرة من الذنوب ؟

وقد اختلف العلماء في الذنوب التي تكفرها العمرة ، فالجمهور من العلماء على أن المراد بها الصغائر وأما الكبائر فإنها تكفرها التوبة ، أو رحمة الله تعالى وفضله ، كما قال القاضي عياض ، وبه قال إمام الحرمين ويشهد للجمهور ما رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعًا :

« الصلوات الخمس كفارة لما بينها إذا اجتنبت الكبائر » ، فحملوا ما أطلق من الروايات على هذا المقيد وذهب بعض العلماء إلى التعميم فيشمل الكبائر والصغائر ، وإليه ذهب ابن المنذر ، محتجًا بأن الروايات مطلقة غير مقيدة ، وفضل الله كبير ، ورحمته واسعة ، وقد نقل الإمام ابن عبد البر هذا عن بعض العلماء وبالغ في الإنكار عليه ، ويشهد لهذا الفريق من العلماء عموم قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء : ٤٨، ١١٦] ، فإن قوله تعالى : ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ ، يشمل الصغائر والكبائر ومن العلماء من فصل في الكبائر بين ما يتعلق منها بحق اللَّه تعالى ، وما يتعلق منها بحق العبد ، فقال تغفر الأولى ولا تغفر الثانية ، لأن الثانية لا بد

فيها من استرضاء صاحب الحق وهو العبد ، وقد يسألني سائل فيقول : إن الصغائر مكفرة باجتناب الكبائر بنص القرآن الكريم قال تعالى : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء : ٣١] ، فماذا تكفر العمرة ؟

وأيضًا فقد وردت أحاديث أخرى في هذا المعنى لعبادات أخرى منها : « أن الصلوات الخمس كفارات لما بينهن ، وأن الجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان يكفران ما بينهما إذا اجتنبت الكبائر »[١] ، وكذا صح أن « صوم يوم عرفة يكفر السنة الماضية والمستقبلة وصوم يوم عاشوراء كفارة سنة »[٢] ، و« قيام ليلة القدر يكفر ما قبلها من الذنوب »[٣] ، فإذا كفرت العمرة فما الذي تكفره الصلوات ؟ وإذا كفرت الصلوات الذنوب فما الذي يكفره رمضان وليلة القدر إلى غير ذلك مما ذكرناه .

والجواب : أن كل واحدة من هذه العبادات المذكورة صالحة للتكفير ، فإن وجد ما تكفر من الصغائر كفرته ، وإن صادفت كبيرة أو كبائر ولم تصادف صغيرة رجونا أن يخفف الله عن فاعل ذلك من الكبائر بمقدار ما عمل حتى تمحى وليس ذلك على فضل الله بعزيز ، وإن لم يكن للمتعبد بها صغيرة ولا كبيرة كتبت له بها حسنات ، ورفعت له بها درجات[٤] .

وقد دل هذا الجزء من الحديث على فضل الإكثار من العمرة ، والجمهور من العلماء على استحباب تكرار العمرة في السنة الواحدة مرارًا ، وقال مالك وأكثر أصحابه : يكره أن يعتمر في السنة أكثر من عمرة ، وقال آخرون : لا يعتمر في شهر واحد أكثر من عمرة ، والحديث صريح في الرد على من يكره تكرارها في السنة أو الشهر الواحد .

هذا وبحسبنا هذا القدر اليوم ، أما الكلام عن الشطر الثاني من الحديث ففي المقال الآتي إن شاء الله تعالى .

* * *

---

(١) الحديث رواه مسلم .

(٢) الحديث رواه مسلم .

(٣) الحديث رواه البخاري ومسلم .

(٤) انظر « الوابل الصيب » لابن القيم ففيه تفصيل حسن للمسألة . [الناشر] .

(٣)

الحج المبرور[١]

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

الشرح والبيان :

قد قدمت في المقال الماضي شرح شطر الحديث الأول ، واليوم أشرح شطر الحديث الثاني ، فأقول وبالله المستعان :

« والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » : المبرور اسم مفعول مأخوذ من بر المتعدي بنفسه ، وبر يتعدى بنفسه ، تقول : بَرَّ الله حجك ثم تبنيه للمفعول فتقول : بُرَّ حجك –يعني بضم الباء– وأما إذا كان من بر اللازم فلابد من تقدير حرف جر أي المبرور فيه ، ويتعدى بالهمزة فيقال : أَبَرَّ الله حجك والبر : اسم جامع للخير مأخوذ من البر –بفتح الباء– لسعته .

وقد اختلف في المراد بالحج المبرور ، فقيل : هو الذي لا يخالطه شيء من الإثم وهو الذي رجحه الإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم[٢] .

وقيل : هو المقبول ، وعلامته أن يرجع خيرًا مما كان في عبادته وسلوكه ، وأخلاقه ، ولا يعاود المعاصي ، وقيل : هو الذي لا رياء فيه ولا سمعة ، وقيل : هو الذي لا يعقبه معصية ، وهذان الأخيران داخلان فيما قبلهما عند التحقيق .

وقال ابن بزيزة : شرط الحج المبرور حِلِّيَّةُ النفقة ، وقد سُئِلَ الإمام مالك عمن حج بمال حرام ؟ فقال : حجه مجزئ وهو آثم بسبب جنايته[٣] .

فمن أراد أن يكون حجه مبرورًا مقبولًا فليتحرز من الحرام ، وليجانب الإثم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا كما قال عز شأنه : ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ

---

(١) نشر في مجلة رابطة العلم الإسلامي السنة الثامنة العدد العاشر ، ذي الحجة ١٣٩٠هـ ، فبراير ١٩٧١م .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ج٩ صـ١١٨، ١١٩.

(٣) شرح الأُبي والسنوسي على صحيح مسلم ج٣ صـ٤٤٥.

ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة : ١٩٧] .

وليتخير المال الذي يحج به من أطيب الأموال ، وفي الحديث الصحيح : « إن الله طيب لا يقبل من الأعمال إلا طيبًا ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، قال تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون : ٥١] ، وقال : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة : ١٧٢] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يرفع يديه إلى السماء يقول : يا رب ، يا رب ، وملبسه حرام ومطعمه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له »[١] .

وقد ورد تفسير الحج المبرور في حديث آخر فقد روى الإمام أحمد ، والحاكم عن جابر هذا الحديث وفي آخره قالوا : يا رسول الله ما بر الحج ؟ قال : « إطعام الطعام ، وإفشاء السلام » ، وقد علق عليه الحافظ ابن حجر في الفتح فقال : « في إسناده ضعيف ، فلو ثبت لكان هو المتعين » ، ويمكننا بعد ما عرضنا له من آراء وأقوال أن نقول ؛ الحج المبرور : هو الذي كان من نفقة حلال وكان الحامل عليه الإخلاص ، والتقرب إلى الله ولم يخالطه إثم ولا معصية أثناء أدائه ، والتزم بعده المسلم الاستقامة على الشريعة ، ومجانبة المعاصي ، وبهذا يكون شاملًا لكل ما قيل ، فهي وإن كانت أقوالًا متعددة ، إلا أنها غير متنافية ، بل هي متآخية .

ومعنى : « ليس له جزاء إلا الجنة » : أنه لا يقتصر لصاحبه من الجزاء على تكفير بعض ذنوبه ، بل لا بد من دخوله الجنة ، ويكون هذا وعدًا من الله بأنه يدخله الجنة ووعد الله صادق لا يتخلف ، وإذا لاحظنا المعنى الذي اخترناه للمبرور الذي هو جماع كل الأقوال يكون المراد استحقاق صاحب الحج المبرور دخول الجنة مع السابقين فكأن فيه ضمانًا وتعهدًا من الله جل وعلا أن يحول بين صاحبه ، وبين المعاصي فيما يستقبل من الزمان ، وهذا الذي رجحناه من دخولها مع السابقين هو الظاهر من الحديث ، وهو الذي ينبغي أن يُفَسَّرَ به .

---

(١) الحديث رواه مسلم .

وأما ما قاله بعضهم من أن الحديث يحتمل أن يكون الثواب بالجنة بعد المؤاخذة بالذنب يعني دخولها لا مع السابقين فلا يصح أن يكون مرادًا من هذا الحديث ، إذ لا فائدة إذًا للعبادة الخاصة ، وهي الحج المبرور ؛ لأن كل العصاة كذلك على المذهب الراجح الذي عليه جمهور أهل السنة والجماعة ، من أن من مات موحدًا دخل الجنة أخذًا من الحديث الصحيح المتفق عليه أن النبي ﷺ قال : « من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة ... » .

والحج المبرور يعتبر من أفضل الأعمال وأعظم القربات إلى الله تبارك وتعالى ، روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : جهاد في سبيل الله ، قيل : ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور » .

وكذلك هو بالنسبة إلى النساء بمنزلة الجهاد في سبيل الله تعالى ، فقد روى الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن عائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنها أنها قالت : يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل ، قال : « لكن أفضل الجهاد حج مبرور » .

وقد روي : « لَكُنَّ » ، بروايتين : الأولى بفتح اللام وضم الكاف خطاب لجماعة النسوة ، وهو الذي عليه الأكثر من الرواة ، قال القابسي : وهو الذي تميل إليه نفسي . الثانية : لكن بفتح اللام والممدودة وكسر الكاف بلفظ الاستدراك ، وهو رواية الحموي والمستدرك عليه مفهوم من السياق يعني : لا يفرض عليكن جهاد لكن أفضل جهادكن الحج المبرور ، والجهاد ليس بفرض على المرأة لكن إن تبرعت به في حدود ما يمكنها كتمريض المرضى ، وسقي العطشى من المجاهدين ، وإعداد الطعام لهم ونحو ذلك فلا ضير ، بل بعض النساء وهي السيدة الفاضلة نسيبة بنت كعب قاتلت بالسيف في غزوة أُحد دفاعًا عن رسول الله ﷺ ، واستأذنت الصديق رضي الله تعالى عنه في الخروج إلى حروب الردة مع ابنها عبد الله فأذن لها ، وفي الصحيحين وغيرهما من جهاد النساء شيء غير قليل .

فالحج المبرور جهاد بالنسبة للنساء ، فعلى المرأة المسلمة أن تتقي الله في حجها حتى يكون مبرورًا ، فلتمسك لسانها عن القول ، والغيبة والسباب ، ولتستر عورتها ما

استطاعت ، ولتحذر أن تتبرج أو تتصنع في زينتها ، فإن الحج ليس معرضًا للأزياء ولا لإبداء جمال النساء ، ولا لصبغ الوجوه بالألوان ، وتغيير خلقة الله التي خلقهن عليها ، وللبيت الحرام حرمته ، وللحرم حرمته ، وللأماكن المقدسة في الإسلام حرمتها ، وإذا كانت النار حُفَّت بالشهوات ، فالجنة حُفَّت بالمكاره ، فمن أراد أن يحظى بهذا الثواب الجميل ، والعِدَةِ الكريمة من الله فليجاهد نفسه ، فإن جهاد النفس أعظم الجهاد وأكبره ، وبجهاد النفس يكون الحج مبرورًا ، والعلم مقبولًا ، وصلى الله تبارك وتعالى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

* * *

(٤)

الحج والعمرة[1]

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » .

تخريج الحديث :

رواه البخاري في صحيحه « كتاب الحج » باب وجوب العمرة وفضلها ، ورواه مسلم في صحيحه « كتاب الحج » باب فضل الحج والعمرة .

الشرح والبيان :

« أبو هريرة » رضي الله عنه تقدمت ترجمته[2] .

« العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما » .

العمرة لغة : الزيارة ، يقال : اعتمر البيت زاره ، ففي القاموس مادة عمر : « وعمر الله منزلك عمارة ، وأعمره جعله آهلًا ، والرجل ماله وبيته عمارة وعمورًا : لزمه ، وعمر المال نفسه كنصر وكرم وسمع ، عمارة : صار عامرًا ، وأعمره المكان ، واستعمره فيه جعله يعمره ، ...وقد اعتمر ، والعمرة : الزيارة ، وقد اعتمر ، وأعمره : أعانه على أدائها ..

والمعتمر : الزائر ، والقاصد للشيء ، ومن ثم نرى أن المادة من معانيها الزيارة ، والقصد وجعل المكان عامرًا آهلًا .

والعمرة في الشرع : زيارة البيت الحرام لأجل الطواف والسعي ، فركناها الطواف حول البيت والسعي بين الصفا والمروة .

ولما كان الحج لا يجوز إلا في أشهر خاصة ، وقد لا يتيسر للإنسان السبيل إليه في أشهر الحج اقتضت رحمة الله بعباده وليبقى هذا المكان المقدس آهلًا بالزوار والعباد ، أن يجعل لهم نسكًا آخر في جميع أيام السنة ، وهي العمرة ، فيصح أداؤها في أي وقت يشاء من العام .

---

(١) مجلة الأزهر ، السنة ٤٣ العدد التاسع ، ذو القعدة ١٣٩١ هـ .

(٢) عدد رمضان ١٣٨٩هـ .

وقد اختلف العلماء في العمرة : أهي واجبة أم سُنَّة ؟

فالجمهور على أنها واجبة ، وممن قال بالوجوب من السلف : السادة عمر ، وابنه عبد الله ، وابن عباس ، وطاووس ، وعطاء ، وابن المسيِّب ، والحسن البصري ، والثوري ، وإليه ذهب الإمامان الجليلان : الشافعي ، وأحمد . وإليه ذهب الإمام البخاري كما تدل على ذلك ترجمته للحديث .

وذهب الأئمة : أبو حنيفة ، ومالك ، وأبو ثور إلى أنها سنة ، وحُكِي هذا الرأي عن النخعي ، وقد ذهب الجمهور ومنهم : الأئمة مالك والشافعي وأحمد إلى أنها لا تكره لغير الحاج في يوم عرفة ، والأضحى ، وأيام التشريق .

وقال الإمام أبو حنيفة : إنها تكره تحريمًا[1] في خمسة أيام : عرفة ، والأضحى ، وأيام التشريق الثلاثة ، وقال أبو يوسف من أصحاب الإمام : تكره في أربعة أيام فقط : عرفة ، وأيام التشريق .

« إلى » : معناها الانتهاء ، أي العمرة المنتهية إلى عمرة أخرى ، وقال ابن التين : يحتمل أن تكون « إلى » بمعنى « مع » ، وهذا الجزء من الحديث يدل على تكرار العمرة في العام الواحد خلافًا لمن كره ذلك .

« كفارة لما بينهما » : الكفارة : على وزن « فعالة » ، صيغة مبالغة ، وقيل : إن التاء فيها للنقل من الوصفية إلى العلمية ، وهو اسم لكل ما يستر الذنوب ، ويمحوها ، مأخوذة من الكفر ، وهو الستر ، قال لبيد الشاعر :

في ليلةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا

أي ستر ، ومنه الكافر لأنه كفر نعمة الله ، أي سترها بجحوده ، ومنه قيل للفلاح كافر ؛ لأنه يكفر البذر ، أي يستره بالحرث ، ونحوه ، ومنه قيل لليل : كافر .

وقد اختلف العلماء في الذنوب التي تكفر بالعمرة ؛ أهي الصغائر أم الكبائر ؟ فالجمهور سلفًا وخلفًا على أن المراد بها الصغائر ، وأما الكبائر فإنها تكفرها التوبة النصوح ، أو رحمة الله تبارك وتعالى وفضله ، وبذلك قال الإمام القاضي عياض رحمه الله ، وبه قال إمام الحرمين رحمه الله تعالى .

---

(١) المكروه تحريمًا أقرب إلى الحرام منه إلى الحلال ، بخلاف المكروه تنزيهًا فإنه إلى الحلال أقرب منه إلى الحرام .

ويشهد للجمهور ما رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلوات الخمس كفارة لما بينها إذا اجتنبت الكبائر»، فحملوا ما أطلق على هذا المقيد على القاعدة الأصولية المعروفة أن المطلق يحمل على المقيد، وذهب بعض العلماء إلى التعميم، فيشمل التكفير الصغائر، والكبائر، وإلى هذا ذهب العلامة ابن المنذر، محتجًا بأن الروايات مطلقة غير مقيدة، وفضل الله كبير، ورحمته واسعة، وقد نقل الإمام ابن عبد البر هذا عن بعض علماء عصره، وبالغ في الإنكار عليه.

ويشهد لهذا البعض عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]، فإن قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، يشمل الصغائر، والكبائر.

ومن العلماء من فصل في الكبائر بين ما يتعلق منها بحق الله تعالى، وما يتعلق منها بحق العبد، فقال: بغفران الأولى، وعدم غفران الثانية، إلا بالتحلل والاسترضاء، وهو تفصيل حسن، ولعل مما يشهد له الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «أترون من المفلس فيكم؟، فقالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح به في النار[1]، والحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه، أو شيء، فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه»[2].

وهنا إشكالان يردان على الحديث نرى لزامًا علينا أن نعرض لهما ثم نبين وجه الحق فيهما حتى لا يلتبس الأمر على بعض المطلعين، أو القارئين، ويكون على ثلج من آيات

---

(١) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم.

(٢) صحيح البخاري كتاب المظالم، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحللها له، هل يبين مظلمته؟.

القرآن الكريم ، والسنة النبوية .

الأول : أن الصغائر مكفرة باجتناب الكبائر ، بنص القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء : ٣١] ، فالمراد بالسيئات هي الصغائر بدليل مقابلتها للكبائر ، وإذا كان الأمر كذلك فما الذي تكفره العمرة ؟

الثاني : أنه ورد في هذا الحديث أن العمرة إلى العمرة مكفرة لما بينهما ، وفي الأحاديث الصحيحة الأخرى : أن الصلوات الخمس مكفرات لما بينهن ، ففي الحديث الصحيح المتفق عليه أن النبي ﷺ قال : « أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا : لا يبقى من درنه[1] شيء ، قال : فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » ، رواه الشيخان وغيرهما .

وأن الجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينها ، إذا اجتنبت الكبائر ، ففي صحيح مسلم مرفوعًا أن النبي ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارات لما بينهن ، ما لم تغش[2] الكبائر » .

وكذلك صح أن النبي ﷺ قال : « ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها ، وركوعها ، إلا كانت له كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم تؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله » رواه مسلم .

وكذلك صح أن صوم يوم عرفة يكفر السنة الماضية ، والمستقبلة ، فعن أبي قتادة رضي الله عنه قال : « سئل رسول الله ﷺ عن صوم يوم عرفة؟ قال : يكفر السنة الماضية ، والباقية » رواه مسلم .

وأن صوم يوم عاشوراء يكفر السنة الماضية أيضًا ، فعن أبي قتادة أيضًا أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عاشورء فقال : « يكفر السنة الماضية » رواه مسلم ، وكذلك ثبت أن قيام ليلة القدر يكفر ما قبلها من الذنوب ، عن النبي ﷺ قال : « من يقم ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا ، غفر له ما تقدم من ذنبه » . رواه الشيخان .

(١) الدرن بفتح الدال والراء آخره نون : الوسخ والقذر .

(٢) ما لم تؤت وترتكب .

فإذا كفرت العمرة فما الذي تكفره الصلوات ؟ ، وإذا كفرت الذنوب الصلوات ، فما الذي يكفره صوم رمضان ؟ وإذا كفر صوم رمضان فما الذي تكفره ليلة القدر ؟ وهلم جرا .

وأحب أن أؤصل قاعدة قبل أن أجيب عن هذين الإشكالين ، وهي : أن كلام الله تبارك وتعالى لا يتعارض قط في الحقيقة ونفس الأمر ، وما صح من كلام النبي ﷺ ؛ فهو ﷺ ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، فالقرآن والسنة من مشكاة واحدة ، وكذلك لا يخالف كلام الله تعالى بعضه بعضًا ، قال تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] ، وكذلك لا يخالف الصحيح من كلام النبي ﷺ بعضه بعضًا ، فإذا رأى المسلم العاقل شيئًا مما قد يظن أنه تعارض ، فلا يتهم الشريعة ، وإنما يتهم نفسه ، وليبحث بعقل متئد ، وقلب مؤمن حتى يصل إلى الحق والصواب ، وتتبين له هذه الحقيقة .

أما الجواب عن الإشكالين فإن كل واحدة من هذه العبادات المذكورات صالحة للتكفير ، فإن وجد ما تكفره هذه الأعمال من الصغائر كفرتها .

وإن صادفت كبيرة أو كبائر ، ولم تصادف صغيرة رجونا أن يخفف الله تعالى عن فاعل ذلك من الكبائر بمقدار ما عمل حتى تمحى ، وليس ذلك على فضل الله بعزيز .

وإن لم تصادف صغيرة ، ولا كبيرة كتبت له بها حسنات ، ورفعت له بها درجات ، ولكني أحب منك -أيها القارئ- أن تتأمل وتتفكر في : من ذا الذي تخلو صحيفته من الكبائر فضلًا عن الصغائر ؟ ولاسيما في هذا العصر الذي أصبح فيه القابض على دينه كالقابض على الجمر !! ألسنا نرى المنكرات جهارًا نهارًا ولا ننكر ؟ ألسنا نرى المعروف مضيعًا ولا نأمر به ؟ أليس الكثيرون لا يُصَلّون ، ولا يصومون ؟ ! وإذا صلوها أخروها عن وقتها ؟ ! وتأخير الصلاة عن وقتها كبيرة ، ثم من أين لنا أن كل أعمالنا أو معظمها ، أو بعضها مقبول ؟ فلا تستكثر أيها المسلم أعمال الخير والعبادات مهما كثرت ، وسل الله العافية في الدنيا والآخرة ، ورضي الله تبارك وتعالى عن سيدنا عمر الفاروق الذي تمنى أن يخرج من الدنيا كفافًا ، لا له ، ولا عليه !! وقد دل هذا الجزء من الحديث على فضل الإكثار من العمرة ، وبه احتج بعض العلماء في تأييد مذهب الجمهور في استحباب

تكرار العمرة في السنة الواحدة مرارًا ، وبه قال الأئمة : أبو حنيفة ، والشافعي ، وأحمد ، وغيرهم ، وقال الإمام وأكثر أصحابه : يكره أن يعتمر في السنة أكثر من عمرة ، وقال آخرون : لا يعتمر في شهر أكثر من عمرة ، وهم جميعًا محجوجون بهذا الحديث ، والأصح والأظهر ما ذهب إليه الجمهور ، لأن قوله ﷺ خَرَجَ مَخْرَجَ الحث على تكرير العمرة والإكثار منها ، ولو حمل الحديث على غير ذلك بأن فعلت مرة واحدة يلزم أن لا تكون لها فائدة ، لأن التكفير مشروط بفعلها ثانية ، وبفوات المشروط تفوت الفائدة ، وقد طال المقال اليوم فلنرجئ شرح باقي الحديث إلى المقال الآتي إن شاء الله تعالى .

* * *

(٥)

يوم النحر - يوم الحج الأكبر[١]

روى الشيخان في صحيحيهما بسندهما عن ابن شهاب، عن حميد بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أَمَّرَهُ عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر: «لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان» قال ابن شهاب: فكان حميد بن عبد الرحمن يقول: يوم النحر يوم الحج الأكبر من أجل حديث أبي هريرة.

تخريج الحديث:

خرج هذا الحديث الإمام البخاري في صحيحه «كتاب التفسير - سورة براءة - باب قوله: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾إلى قوله: ﴿ٱلْمُشْرِكِينَ﴾».

وخرجه الإمام مسلم في صحيحه «كتاب الحج، باب لا يحج البيت مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وبيان الحج الأكبر».

الشرح والبيان:

أبو هريرة رضي الله عنه: تقدمت ترجمته.

قال: «بعثني أبو بكر الصديق رضي الله عنه في الحجة التي أَمَّرَهُ عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر».

المفردات:

أَمَّرَهُ: بفتح الهمزة وتشديد الميم، أي جعله أميرًا، الرهط: الجماعة من الثلاثة إلى العشرة. يؤذنون في الناس: أي يعلمونهم بما سيأتي في الحديث، مأخوذ من التأذين وهو الإعلام، قال تعالى لخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣]، أي إعلام...

وكانت حجة الصديق أبي بكر رضي الله عنه سنة تسع من الهجرة اتفاقًا،

---

(١) مجلة الأزهر - الجزء العاشر سنة ٤١ - ذو الحجة سنة ١٣٩٠هـ.

والصحيح أنها كانت في شهر ذي الحجة من هذا العام بدليل هذا الحديث وغيره من الأحاديث ، لا في شهر ذي القعدة كما قيل .

وفي الحديث إجمال بينته الروايات الأخرى ، وها هو ذا تفصيل ذلك كي يتضح المراد ، ذلك أنه لما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك ، وهي آخر غزوة غزاها ، أراد الحج ثم قال : « إنه يحضر البيت عراة مشركون يطوفون بالبيت فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك » ، فأرسل أبا بكر أميرًا على الحج سنة تسع ، وبعث معه نحو أربعين آية من صدر سورة براءة ؛ ليقرأها على أهل الموسم .

فلما خرج دعا النبي ﷺ عليًا وقال : « اخرج بهذه الآيات من صدر سورة براءة فأذن بها في الناس إذا اجتمعوا » ، فخرج علي رضي الله عنه ، على ناقة رسول الله ﷺ « العضباء » حتى أدرك أبا بكر الصديق بذي الحليفة ، فقال له أبو بكر لما رآه : أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، ثم سارا معًا ، فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية ، وقد خطب الصديق قبل التروية معلمًا الناس مناسكهم ، ثم خطب يوم عرفة ، ويوم النحر ، وكان كلما خطب الصديق قام سيدنا علي فقرأ على الناس صدر سورة براءة ، ثم ينادي في الناس بهذين الأمرين المذكورين في هذا الحديث ، وأمرين آخرين كما سيأتي عن كثب ، فالصديق كان أميرًا على الحج ، والإمام كان قارئًا لصدر السورة ومبلغًا للناس ما أمر به .

وهنا سؤال يرد على ذهن القارئ : إذا كان رسول الله ﷺ أَمَّرَ أبا بكر على الحج عام تسع ، وعهد إليه بتبليغ ما في صدر سورة براءة ، فَلِمَ عَدَلَ عن ذلك ووكل إلى علي قراءة صدر السورة ، وتبليغ ما أمر بتبليغه للناس ؟

والجواب : أن صدر سورة براءة تضمن نقض العهود المطلقة غير المؤقتة بوقت ، أو التي مدتها دون أربعة أشهر فيما زاد عن الأربعة وتوثيقها فيما زاد عن الأربعة ، ولم يبد منهم ما يخل بالعهد ، وكان العرب قد تعارفوا فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيد القبيلة أو رجل من رهطه ، فأراد رسول الله ﷺ أن يقطع ألسنة العرب ، ويحول بينهم وبين النيل منه ، والتشويش عليه بسبب ما تعارفوا عليه ، فأرسل ابن عمه الهاشمي كي ينقض العهد حتى لا يدع لهم مجالًا للتكلم فيه ، فهذا هو السبب ،

لا ما يزعمه بعض الرافضة وأضرابهم من أن ذلك كان لأن عليًا أفضل من أبي بكر، وأولى بالخلافة منه.

ولا أدري كيف يتفق ما زعموه وما ذكرته الروايات الموثوق بها من أن سيدنا عليًا لم يكن أميرًا بل كان مأمورًا، ويفصح عن السر في إرسال علي بعد الصديق ليقرأ على الناس صدر سورة براءة ما رواه الترمذي وحسنه، وأحمد من حديث أنس، رضي الله عنه، قال: «بعث النبي ﷺ براءة مع أبي بكر، ثم دعا عليًا فأعطاه إياه، وقال: لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهلي».

وفي رواية الطبراني: «أن جبريل عليه السلام هو الذي قال للنبي ﷺ: إنه لن يؤديها عنك إلا أنت أو رجل منك».

وفي تأمير الرسول للصديق على الناس في هذه الحجة ما يشير إلى أنه الأحق بالخلافة، وليس هنا مقام الاستدلال على ذلك، فلذلك مقام آخر.

في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، وقد اقتصر هنا على هذا القدر من الأمور التي أعلم سيدنا علي ومعاونوه الناس بها، وقد جاءت رواية الترمذي بأوفى من هذا، فقد روى بسنده عن زيد بن يثيع قال: سألت عليًا بأي شيء بعثت في الحج؟ قال: بعثت بأربع: أن لا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا.

قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وخرجه النسائي أيضًا، وفيه قال علي: «فكنت أنادي حتى صَحِل صوتي»[1].

وقد كان لعلي معاونون، منهم أبو هريرة كما يدل على ذلك هذا الحديث، وروى الإمام أحمد وغيره عن أبي هريرة قال: «كنت مع علي حين بعثه رسول الله ﷺ ببراءة إلى

(١) في القاموس: صحل صوته كفرح فهو أصحل، وصحل بح أو احتد في بحح، أو الصحل خشونة في الصدر، وانشقاق في الصوت من غير أن يستقيم.

أهل مكة ، فكنت أنادي معه بذلك حتى يَصحَل صوتي ، وكان ينادي قبل حتى يعيى »[١] .

ونعما فعل الصديق في أمرهم بمعاونته ففي مثل هذا الموسم الحافل الذي يجتمع فيه الناس من كل فج يتعذر على أي فرد أن يقوم وحده بالتبليغ مهما أوتي من قوة .

ولا يحج بعد العام مشرك : أي بعد الزمان الذي وقع فيه الإعلام ، وقد كان ، فقد نفي المشركون عن البيت ، وحج النبي ﷺ والمسلمون معه حجة الوداع ، فلم يشاركهم في حجهم أحد من المشركين ، وبذلك أكمل الله - للنبي والمؤمنين - الدين ، وأتم عليهم النعمة ، وهذا مأخوذ من قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ [براءة : ٢٨] .

وكان نزول هذه الآية سنة تسع -قبل الحج في شوال- في بضع وثلاثين آية من صدر سورة براءة ، وهي التي أَمَرَ النبي عليًا بقراءتها على الناس .

والمراد من نجاسة المشركين : النجاسة المعنوية ، وهي نجاسة المعتقد ، أو المراد أنهم لا يتنزهون عن النجاسات غالبًا ، أو لا يغتسلون من الجنابات ، والمراد بالمسجد الحرام : الحرم كله ، وعلى هذا فلا يُمَكَّن مشرك ولا كافر من الدخول في الحرم حتى لو جاء برسالة ، أو أَمْرٍ مهم لا يمكن من الدخول ، بل يخرج إليه من يقضى إليه الأمر المتعلق به ، وإلى شمول النهي للحرم كله ذهب جمهور العلماء ، وحمل بعضهم النهي على المسجد الحرام خاصة دون الحرم ، ودون غيره من المساجد ، وبعضهم قال : المراد به عدم تمكينهم من أداء الحج أو العمرة .

ولا يطوف بالبيت عريان : هذا وما قبله أسلوب خبر ، ولكن المراد به الأمر ، وهو أسلوب مستفيض في اللغة العربية ، وقد ذكر ابن إسحاق في سبب ذلك أن قريشًا ابتدعت قبل الفيل ، أو بعده ، أن لا يطوف أحد ممن يقدم عليهم من غيرهم أول ما يطوف إلا في ثياب أحدهم ، فإن لم يجد طاف عريانًا ، فإن خالف وطاف بثيابه ألقاها إذا فرغ ، ثم لم ينتفع بها ، فلما جاء الإسلام هدم ذلك ، وزاد ابن كثير في تفسيره[٢] للسبب توضيحًا فقال : كانت العرب ما عدا قريشًا لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي

(١) فتح الباري ج٨ صـ٣٥٥- ٣٥٧.

(٢) ج٣ صـ٤٦٤ .

عصوا الله فيها ، وكانت قريش يطوفون في ثيابهم ، ومن أعاره قرشي ثوبًا طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ، ثم يلقيه فلا يتملكه ، ومن لم يجد ثوبًا جديدًا ، ولا أعاره قرشي طاف عريانًا ، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة ، فتجعل على سوءتها شيئًا فيسترها بعض الستر ، وتقول :

اليومَ يبدو بَعْضُهُ أو كُلُّهُ   وَمَا بَدَا مِنه فَلَا أُحِلُّهُ

وأكثر ما كان النساء يطفن عرايا بالليل ، وقد قضى الإسلام على كل ذلك ، فللّه الحمد والمنة .

قال ابن شهاب : هو الإمام محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري ، نُسِبَ إلى جد أبيه من خيار التابعين ، وأجمعهم للحديث ، وأعلمهم به ، وقد ساهم بحظ وافر في تدوين الحديث تدوينًا عامًّا بأمر الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز .

وحُمَيد : هو ابن عبد الرحمن بن عوف الزهري ، وكان يقول : يوم النحر يوم الحج الأكبر من أجل حديث أبي هريرة هذا .

وقد استنبط حميد هذا من قوله تعالى : ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة : ٣] ، ومن تأذين أبي هريرة وغيره بهذا النداء يوم النحر ، فبضم الآية إلى الحديث نخلص إلى أن المراد بيوم الحج الأكبر هو يوم النحر ، والصحابة -رضوان الله عليهم- أعلم الناس بفهم المراد من كتاب الله تعالى ، ولولا أنهم فهموا أن المراد بالحج الأكبر هو يوم النحر لما أذنوا فيه .

وجمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم على أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر ، وهو مذهب مالك والشافعي في الصحيح عنه يدل على ذلك هذا الحديث ، ويدل عليه أيضًا الحديث الذي رواه البخاري في كتاب الجهاد عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر رضي الله عنه فيمن يؤذن يوم النحر بمنى . ويوم الحج الأكبر يوم النحر ، وإنما قيل : الأكبر من أجل قول الناس : الحج الأصغر ، فنبذ أبو بكر إلى الناس في ذلك العام ، فلم يحج عام حجة الوداع مشرك .

وروى أبو داود عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ وقف يوم النحر في الحجة التي حج فيها فقال : « أي يوم هذا ؟ فقالوا : يوم النحر ، فقال : هذا يوم الحج الأكبر » ، وأيضًا

ففيه الرمي والنحر، والحلق، والطواف.

وقيل: هو يوم عرفة، روي هذا عن عمر، وعثمان، ومجاهد وغيرهم، وهو مذهب أبي حنيفة، واحتج القائلون بهذا الحديث المشهور: «الحج عرفة»[1].

وأن يوم عرفة فيه الركن الذي لو فات الإنسان فقد فاته الحج، وقال الثوري وابن جريج: الحج الأكبر، أيام منى كلها، وهذا كما يقال: يوم صفين، ويوم بعاث، فيراد باليوم الحين والزمان لا اليوم المعروف، وهو مذهب واسع.

هذا وإنما قيل: الحج الأكبر للاحتراز من الحج الأصغر، وهو العمرة، وقد استدل جمهور العلماء بالحديث على أن ستر العورة شرط في الطواف حول البيت.

ما يؤخذ من الحديث من الأحكام والآداب:

١- فضل الصديق رضي الله تعالى عنه، وتكريم رسول الله ﷺ له بجعله أميرًا على الناس في الحجة التي كانت ممهدة لحجة الوداع.

٢- أدب الصحابة العالي بعضهم مع بعض، وشدة تواضعهم، ووقوفهم عند أمر الله ورسوله، فهذا هو الصديق رضي الله عنه، على جلالة قدره، وصحبته لرسول الله، هذه الصحبة التي نوه بها القرآن الكريم، وأياديه البيضاء على الإسلام، حتى قال الصادق المصدوق فيما صح عنه: «إن أَمَنَّ الناسِ عليَّ في ماله ونفسه أبو بكر»[2]، هذا الصديق يرى عليًا قد لحق به، فيقول له: أمير أم مأمور؟ فيسارع علي إلى قوله: بل مأمور، ويسير في الركب تحت إمرة شيخ الإسلام أبي بكر كغيره من الناس، ولا عجب فكلاهما خريج التربية المحمدية، والمدرسة النبوية التي صيرت منهم علماء، حكماء، فقهاء، رحماء، أدباء.

٣- إن تأمير أمير على الناس في الحج يهتدون بهديه، ويسيرون بسيره، ويعلمهم المناسك أمر مشروع، وإن الأمير ينبغي أن يكون عالمًا بالشرع بعامة، والحج ومناسكه بخاصة، عاملًا بما يعلم، حتى يتحقق الغرض المقصود من تأميره.

٤- حرمة دخول المشرك الحرم، وقد كان الشارع في هذا حكيمًا غاية الحكمة،

---

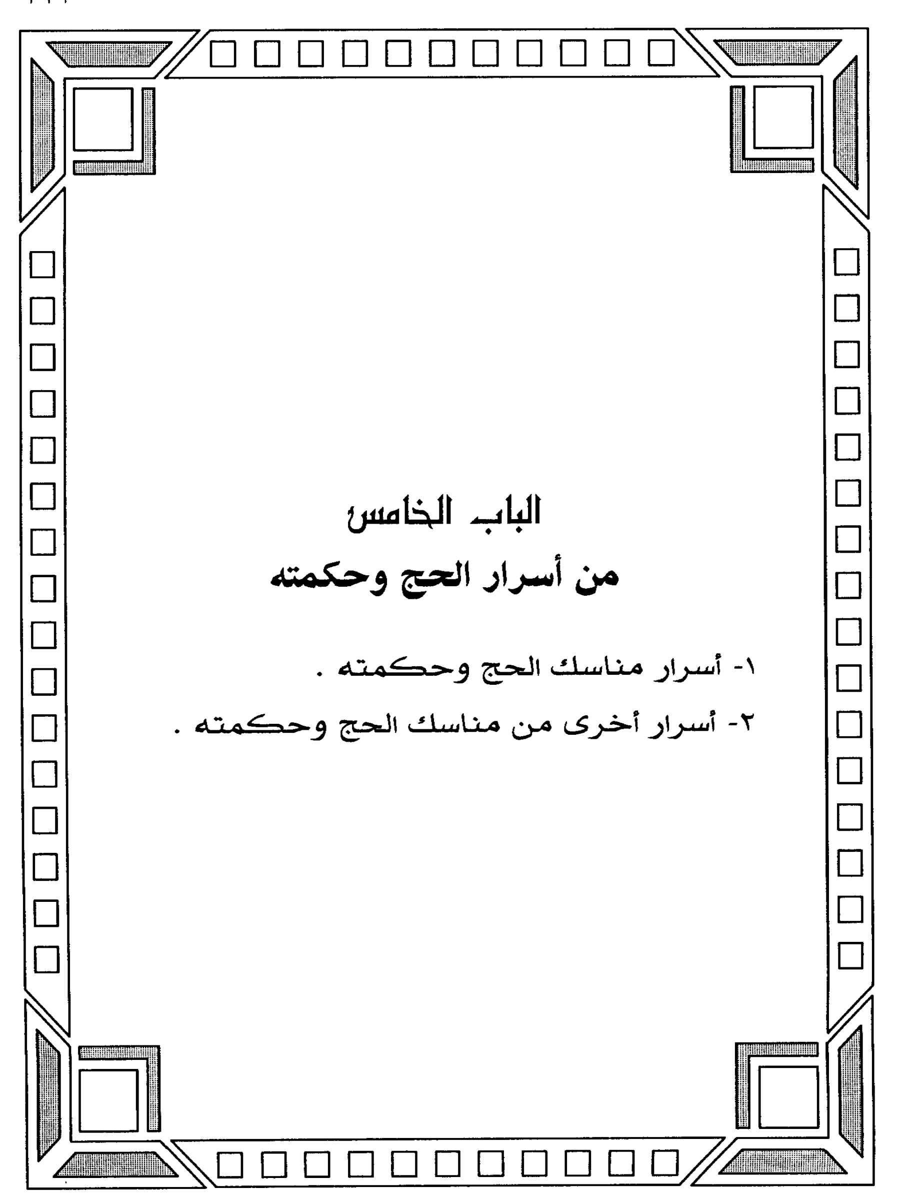
(١) الحديث رواه أصحاب السنن.

(٢) الحديث رواه البخاري ومسلم.

فالمشرك أو الكافر لا يؤمن إفساده الديني والدنيوي في الحرم ، وإشاعته الفتنة بين الناس ، ثم هو نجس ، فكان الواجب إذا منعه من دخول المكان المقدس الذي جعله الله حرمًا آمنًا وجعل فيه الكعبة المشرفة بيت الله ، ورمز العبادة والتوحيد في الأرض .

٥- أن يوم الحج الأكبر هو يوم النحر ، وأنه الرأي الذي عليه جمهور العلماء سلفًا وخلفًا ، وصلى الله تبارك وتعالى على نبينا وسيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *



الباب الخامس

من أسرار الحج وحكمته

١- أسرار مناسك الحج وحكمته .

٢- أسرار أخرى من مناسك الحج وحكمته .

(١)

أسرار مناسك الحج وحكمته[١]

الحج شريعة قديمة من لدن أبينا الخليل إبراهيم عليه السلام، وفريضة محكمة باقية إلى يوم القيامة، وسنة من سنن الأنبياء والمرسلين، فمن عهد خليل الله إبراهيم وأنبياءُ اللّـه ورسله يشدون الرحال إلى الكعبة البيت الحرام رافعين أصواتهم بالتلبية والتهليل والتكبير، ولم يحافظ العرب في جاهليتهم على شعيرة من الشعائر الدينية المأثورة عن الخليل وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام مثل ما حافظوا على شعيرة الحج، والعرب وإن كانوا غيروا وبدلوا في بعض مناسك الحج إلا أنه -والحق يقال- شيء قليل لم يلبث الإسلام - وقد ثبت سلطانه في الجزيرة - أن أزال ما غيروا وبدلوا و أعاده إلى ما كان عليه في عهد خليل الله طاهرًا نقيًا لا وثنية فيه ولا ابتداع.

وقد حرص الرسول عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع على تثبيت مناسك الحج كما شرعها الله وأوحاها إلى أبي الأنبياء فقال للمسلمين: «قفوا على مشاعركم فأنتم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم»[٢]، وأراهم المناسك بالعمل وقال لهم: «خذوا عني مناسككم»[٣].

وما من منسك من مناسك الحج إلا وفيه ذكريات وفي كل ذكرى عبر وعظات وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ [آل عمران: ٩٦].

وللحج أسرار وحكم منها ما هي ظاهرة واضحة ومنها ما هي خفية تحتاج إلى أناة وروية وإعمال الفكر، وإشراق النفس حتى إنها لخفائها على كثير من الناس اصطلح بعض العلماء على تسميتها: «أمورًا تعبدية» تطاع وتنفذ وإن خفي علينا سرها وحكمتها، وسنتحدث في هذا المقال عن بعض أسرار الحج وحكمته.

---

(١) مجلة الحج، السنة الحادية عشرة، الجزء ٥، ذو القعدة ١٣٧٦هـ، يونية ١٩٥٧م.

(٢) الحديث رواه أصحاب السنن والإمام أحمد.

(٣) الحديث رواه مسلم.

وأول ما سنتحدث عنه هو الإحرام بصفته الشرعية من المواقيت المعروفة وذلك بأن يخلع الإنسان المُحْرِم جميع ما عليه من الثياب والرياش ويأتزرَ بإزار يواري سوأته ويرتديَ برداء يواري صدره وظهره ، ثم يأخذ نفسه بالتلبية والتهليل والتكبير للَّه العلي العظيم ، ورب سائل يسألني ما الحكمة من الإحرام ولم كان من المواقيت للآفاقي ، ولم يكن من أدنى مكان من مكة ، وما السر في هذا ؟ الحكمة في هذا أن البشر اعتادوا إذا ما قصدوا عظيمًا أو ذا جاه لزيارته أن يأخذوا في الاستعداد للقائه ، بل قد يمكث الواحد منهم اليوم والأيام يتهيأ لذلك ، والحجاج في الحقيقة حينما يقصدون الكعبة بيت الله الحرام إنما يقصدون التقرب إلى الله والمثول بين يديه في أحب البقاع إليه وهم على حال من التذلل والخشوع والتقشف فما أجدر الحجاج بأن يستعدوا ويتهيئوا للتشرف بلقاء الله والمقام في بيته المعظم في الأرض ، إلا أن هذا اللقاء والمثول لا يحتاج إلى فاخر الثياب وغاليها كما يفعل الناس مع ملوك الدنيا ، وإنما يحتاج إلى طهارة القلوب وصفاء النفوس ، وإعلان التذلل والخضوع والبعد عن موجبات التغطرس والتكبر والتفاخر والتكاثر فمن ثَمَّ كان التشريع الحكيم أن يتجرد الحجاج من زينة الحياة الدنيا إلا من إزار ورداء ونعل ، وأن يأخذ نفسه بالتقشف وأن يشغل وقته بالذكر وتمجيد الحق جل وعلا ، وأن يقضي برهة في تزكية النفس وتطهيرها من أدرانها ومساوئها حتى إذا ما وصل إلى بيت الله وطاف به يكون قد استأهل للقاء الله واستحق أن يكون عبدًا من عباد الله المتشرفين بالإضافة إليه ، وحلول رحمته ورضوانه عليهم .

هذا إلى ما في الإحرام على هيئته الشرعية من القضاء على الفوارق الدنيوية بين الناس وتثبيت دعائم المساواة ، فالناس كلهم بعد الإحرام سواء لا فرق بين مَلِك وَسُوقة وغني وفقير وسيد وَمَسُود ، بل الكل أمام الله وفي شرعة الحج سواء .

وإنه لمشهد من المشاهد الدنيوية التي تُذَكِّر الناس بيوم الحشر الأكبر فيتوب العاصي وَيَرْشَد الغاوي ويتعظ المعتبر ، وإنما لم يوجب الله سبحانه الإحرام من حين الخروج من الأوطان لما في ذلك من المشقة والحرج على كثير من الحجاج إذ منهم من يكون بينه وبين مكة الشهر والشهران والثلاثة .

والإحرام من الأوطان لأمثال هؤلاء فيه حرج وأي حرج ، والله يقول : ﴿وَمَا جَعَلَ

عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج : ٧٨]، ويقول : ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة : ١٨٥]، فاقتضت حكمة الله ورحمته بخلقه أن يكون الإحرام من هذه المواقيت التي لا يبعد أقصاها عن مكة إلا بضعة أيام أو تزيد قليلًا والتي لا يخلو آفاقي من أي قطر من الأقطار من المرور على واحد منها وإنما اختار الله سبحانه لأهل المدينة أبعدها عن مكة لأنها دار الهجرة ومهبط الوحي ومأرز الإيمان وأول بلد آمن أهله بالله ورسوله ونشروا دعوة الحق فكانوا أحق بأن يبالغوا في إعلاء كلمة الله وأن يُخَصُّوا بزيادة طاعة الله والرغبة إليه.

وقد يسألني سائل أيضًا وما السر في قصد البيت والطواف حوله ؟

والجواب أن لملوك الأرض حِمًى مُصَانًا وبيوتًا تُقصد وتُزار حتى ولو لم يكونوا حَالِّينَ فيها، وقد جرت عادة الناس في دنياهم أن يقصدوا الملوك في دورهم فإن لم يجدوهم فبحسبهم شرفًا أن تفتح لهم أبوابها ويحلوا في عرصاتها كما استقر في طبائع البشر أن يعظموا ويكرموا بيوتًا ومعاهد ومشاهد وأماكن تنتسب لعظماء أو قوم شرفاء أو لابس بناءها ذكريات تهز المشاعر وتثير لواعج المحبة والشوق، والله سبحانه وتعالى يدرك[1] بالعقول، والبصائر وتقصر عن إدراكه في الدنيا العيون والنواظر، وتشتاق إليه قلوب المحبين وتهيم في التقرب إليه نفوس المخلصين فرحمة من الله بعباده وإرضاء لغرائزهم الكامنة في فطرهم وتوجيهها وجهة حق وخير جعل لهم في الأرض بيتًا ينسب إليه ولكنه بيت لا ككل البيوت بيت بناه نبي – وهو خليل الله – وعاونه في بنائه نبي وهو ذبيح الله وأحاطه الله بكل مظاهر التكريم فجعل حجه فريضة والطواف به فرضًا واستلام أركانه والتزامه والتعلق بأستاره أمرًا مسنونًا مشروعًا، في هذا البيت يتمثل الطائفون والعاكفون عظمة الله وكبرياءه ورحمته وإحسانه وعفوه وغفرانه، وبالطواف حوله يقضون حاجات النفس المشوقة ويطفئون أوار الحب الكامن في القلوب بما يعبون من زمزم ويرتشفون من رحيق الوصل وسلسبيل المعرفة واليقين، وصدق القائل :

إذا وَجَدْتُ أوار الحبِّ في كبدي أقبلتُ نحو سِقَاءِ القومِ أَبْتَرِدُ

---

(١) كلا، وإنما يقال : يعرف بالعقول ولا أعلم من كتاب ولا سنة نصًّا بأنه تعالى يُدرك بالعقول، بل تعالى : ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام : ١٠٣]. (الناشر).

ولا يفوتني وقد تكلمت على شيء من أسرار الحج أن أرد شبهة يتفوه بها أعداء الإسلام ومن على شاكلتهم ممن لم يصلوا إلى أغوار الإسلام ، فهم يقولون إن الإسلام وإن كان حارب الوثنية فقد أباحها في الطواف حول الكعبة وتقبيل الحجر الأسود ، واستلام الأركان ، وفي الحق أنهم في مقالتهم واهمون ، وفيما ذكرناه آنفًا في أسرار الحج ما يرد هذا الزعم ، والإسلام حينما شرع الطواف والاستلام إنما قصد التقرب إلى الله بهذا الفعل ، لا التقرب إلى حجارة لا تضر ولا تنفع ، وحينما عظم الكعبة لم يعظمها لذاتها وإنما عظمها لأنها بيت الله ورمز عظمته وتوحيده في الأرض ، فإليها يشد المسلمون رحالهم وإليها يتوجهون في صلواتهم في ليلهم ونهارهم وقد غفل هؤلاء المغرضون عن شيء يذهب بشبهتهم من أساسها ذلك أن الإسلام قد سنَّ لمن يطوف حول البيت أو يستلم الأركان أو يقبل الحجر أن لا يكف عن التهليل والتكبير ، أليس في هذا احتراس وأي احتراس من أن تتطرق هذه الشبهة إلى الأذهان ؟ وكيف يتفق التهليل والتكبير وما يزعمون من وثنية وتعظيم للأحجار ؟ ألا إن الهُدى هُدَى الله ، ومن يضلل فما له من هاد .

وبحسبنا من الأسرار هذا القدر اليوم وتتمة الحديث عن الأسرار في مقال تال إن شاء الله .

* * *

(٢)

أسرار أخرى من مناسك الحج وحكمته[1]

في المقال السابق تعرضت للكلام عن بعض أسرار مناسك الحج وحكمته وفي هذا المقال أتعرض للتحدث عن بعض أسرار أخرى ، وسأتناول أول ما أتناول شعيرة السعي بين الصفا والمروة ، وإن السعي ليذكرنا بقصة عجيبة من قصص أهل بيت خليل الرحمن ﷺ وحفاوة الله جل جلاله بولده الذبيح إسماعيل أبي العرب وجدهم الأعلى .

وذلك أن إبراهيم عليه السلام قد أسكن هاجر وابنها إسماعيل مكان البيت الحرام ، وكان واديًا غير ذي زرع لا ماء فيه ولا نبات ، فلما قفل راجعًا إلى الشام جرت وراءه السيدة هاجر وقالت : إلى من تتركنا بهذا الوادي الذي لا أنيس فيه ؟ قالت ذلك مرارًا وهو لا يلتفت إليها ثم قالت آلله أمرك بهذا ؟ قال لها : نعم ، قالت : إذًا لا يضيعنا الله ، وكان الخليل قد ترك لها ولولدها جريبًا من تمر ، وسقاء من ماء فلما نفد الماء صار الغلام يتلوى من العطش ، ولا تسل عن وجدان الأم وحالها وهي تجد وحيدها على هذه الحال فهامت على وجهها تطلب له الماء فصعدت الصفا وصارت تنظر حواليها عسى أن تجد ماء ، فانحطت في الوادي وهي مسرعة مجهودة نحو المروة فارتفعت عليه وصارت تنظر حولها تتحسس الماء فلم تجد ولم تزل تفعل ذلك بين الصفا والمروة حتى أتمت سبعة أشواط ، هنالك تداركتها وولدَها رحمة الله فسمعت صوتًا آنسها فقالت : أغثني إن كان عندك غواث ، ثم رجعت إلى حيث تركت ولدها إسماعيل فإذا جبريل عليه السلام ينزل فيضرب الأرض بعقبه فتفجرت العين الثرة المباركة - زمزم - فصارت هاجر تحوط حولها وتغرف وتضع في سقائها والعين تفور بالماء الزلال الصافي فشرب ولدها وشربت ، وكانت سبب الحياة والعمران في هذا الوادي القفر ولا تزال زمزم من يومها - وإلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض وما عليها - منهلًا عذبًا وطعامًا مباركًا وشفاء للعاكفين حول البيت والقادمين إليه ، وهكذا نرى أن في السعي بين الصفا والمروة تذكيرًا بهذه القصة العجيبة التي تجلت فيها رحمة الله على نبي من أكرم أنبيائه وهو

---

(١) مجلة الحج ، الجزء ٦، السنة الحادية عشرة ، ذو الحجة ١٣٧٦هـ ، يوليو ١٩٥٧م .

إسماعيل والتي تمثلت فيها عاطفة الأم وحدبها وسعيها على ولدها وثقتها الكبرى بالله حين قالت : إذًا لا يضيعنا الله ، فكان الله عز شأنه عند حسن ظنها بـه : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق : ٣] ، ألا ما أَجَلَّ الذكرى وأعظم العبرة فعلى الساعي حين يسعى أن يتذكر هذه المعاني وأن يمتلئ قلبه ثقة بالله وتوكلًا عليه وأن لا يلجأ في الشدائد إلا إلى الله سبحانه ، فعند الله يجد المخرج وأن لا ييأس من رحمة الله مهما ضاقت في عينيه السبل وتأزمت الأمور ، فـ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] .

وكأني بك أيها القارئ المسترشد تسألني : وما السر في رمي الجمرات ؟ والمرمي جماد لا يحس ولا يتألم ؟

والجواب : أن في هذا المنسك إعلانًا من الحاج بعد أن وقف بعرفات وتطهرت النفس عن أدرانها بالاستمساك بطاعة الله سبحانه والائتمار بأمره والانتهاء بنهيه ونبذ طاعة الشيطان وعدم الإصاخة إلى وسوسته وإغوائه ، وإيذانًا بانتصار النفس الخيرة المطمئنة على النفس الشريرة الأمارة بالسوء ومجاهرة بعداوة إبليس وذريته الذين تأصلت عداوتهم للبشر من لدن أبينا آدم عليه الصلاة والسلام لما امتنع عن السجود له ، وقال : ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف : ١٢، وص : ٧٦] ، وأقسم بعزة الله قائلًا : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص : ٨٢، ٨٣] ، وإعلانًا لمحاربتهم حربًا لا هوادة فيها برميهم بالحصى المرة تلو المرة حتى يكون في هذا العمل متنفس لما يجدونه في نفوسهم من الشيطان وحزبه .

ومن حكمة الإسلام أنه يربط كثيرًا بين المعاني النفسية والأمور الحسية كي يتم التوافق بين الظاهر والباطن والمحسوس والمعقول ، وقد أظهر الشارع الحكيم هذه المعاني النفسية التي أشرنا إليها آنفًا في هذه الصورة الحسية – صورة رمي رمز الشيطان بالحصى – تأكيدًا للمعاني النفسية وتثبيتًا لها في النفوس ، هذا إلا أن بعض طوائف البشر لا تسمو مداركهم إلى المعاني النفسية المجردة والروحانية الخالصة فجعل الله لهم هذه الصورة الحسية لشفاء نفوسهم من الشيطان ومحاربته والنيل منه رحمة بهم ومراعاة لحالهم ولعله يؤيد ما ذكرناه في بيان حكمة هذه الشعيرة من شعائر الحج ما ذكره بعض

العلماء من أنها إحياء لسنته وعمل جليل من أعمال أبينا إبراهيم عليه السلام تجاه إبليس اللعين وذلك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أمره الله سبحانه بذبح ولده ووحيده إسماعيل وشرع في تنفيذ أمر الله – وقد أذعن له ابنه الصادق الوعدَ الأمينُ – عرض له إبليس عند جمرة العقبة كي يصرفه عن تنفيذ أمر الله فرماه سيدنا إبراهيم بسبع حصيات فذهب وخنس، ثم عرض له مرة أخرى عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات أيضًا حتى بعد عنه، ثم عرض له مرة ثالثة عند الجمرة الكبرى فرماه بسبع حصيات فاختفى وغاب بعد أن يئس من الخليل، ثم مضى الخليل لتنفيذ أمر الله وما أن هَمَّ بالذبح وشرع فيه حتى رضي الله منه ذلك وجازاه على إخلاصه وامتثاله بأن فدى ابنه وفلذة كبده بذبح عظيم فذبحه إبراهيم ومن ثم صار الذبح قربانًا يتقرب به إلى رب العالمين لإشباع الفقراء والمساكينِ والمحرومينَ.

فنحن حينما نرمي رمز الشيطان بالجمرات فإنما نعلن أننا على عهد أبينا إبراهيم الخليل الذي رجم إبليس ورده مدحورًا مغلوبًا، وحينما نذبح وننحر فإنما نشكر الله سبحانه على نعمه المتكاثرة التي من أجلها هذا الفداء الكريم وتوفيقِنا لأداء المناسك وأحقُّ ما يشكر به الله سبحانه إطعام البطون الخاوية وترطيب الأكباد اليابسة.

وهكذا إذا أعمل المسلم فكره وأمعن في النظر لا يلبث أن تظهر له الحكم والأسرار.

نعم إن من مناسك الحج وشعائره ما لا تظهر له حكمة خاصة مقنعة ولا تطمئن النفس فيه إلى رأي قاطع مثلَ تقبيل الحجر الأسود وكون الطواف حول البيت سبعًا والجمرات سبعًا ونحوها من الأمور التي اصطلح العلماء على تسميتها بالتعبدية، بيد أني أرى لهذه التكليفات سرًّا عامًّا وحكمة عامة ذلك أن من مقاصد الشرع الشريف تربية ملكة الطاعة والخضوع والإذعان في النفوس البشرية وإذا ما تربت هذه الملكة في النفوس سهل عليها امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وهذه الأمور المعروفة بالتعبدية هي التي تربي هذه الملكة والله سبحانه وتعالى كلفنا بهذه الأمور ليعلمنا أن طاعته لازمة وأن شرعه واجب الاتباع ما دام وصل إلينا على لسان معصوم، وليبين لنا أن العقل له حد لا يعدوه ومنطقة لا يجاوزها وأن الإنسان مهما بلغ حظه من العلم والمعرفة

فما يزال عقله قاصرًا وما يجهله أكثر مما يعلمه ، وصدق الله : ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] ، وبهذا يتطامن العقل أمام شرع الله ، ويتخلى عن كثير من غروره وصلفه ، ولا تكاد تجد شيئًا يحد من تمرد العقل وطغيانه من أن يقف أمام بعض الحقائق عاجزًا ، وإذا ما تربت النفوس على الطاعة وعلمت العقول أن لها طاقة محدودة سهل على البشر تقبل الشرائع بنفوس مؤمنة وعقول مذعنة ، وإنا لنجد الأمم المتحضرة اليوم تحرص الحرص كله أن تنشئ جنودها على الطاعة والإذعان حتى ولو تراءى لبعضهم أن في الطاعة التهلكة وذلك لما يترتب على تربية الجنود على الطاعة من منافع أكثر مما يظن من مضرة ، وهذه الحكمة التي أدركتها هذه الأمم في عصر التقدم والرقي قد سبق إليها الإسلام في تربيته لأتباعه منذ أربعة عشر قرنًا فاعتبروا يا أولي الأبصار .

وبعد ، فلعلك أيها المسلم أدركت معي أن تشريعات ربك لا تخلو من حكمة ، وإن خفيت ودقت ، وأن منها ما يكون له حكمة خاصة ومنها ما تكون له حكمة عامة وصدق الله : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥] .

* * *

الباب السادس
يوم الحج الأكبر وحجة الوداع

١- في السنة التاسعة من الهجرة :
- لا يحج بعد العام مشرك .
- لا يطوف بالبيت عريان .
- من كان له عهد فهو إلى عهده .
- ومن لم يكن له عهد فهو إلى أربعة أشهر .
- لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة .

٢- في حجة الوداع .

٣- من ذكريات حجة الوداع .

(١)

يوم الحج الأكبر وحجة الوداع[1]

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [براءة : ٣- ٤] .

الأذان : هو الإعلام ومنه قوله تعالى : ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج : ٢٧] ، أي أعلمهم وقوله : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ [الأعراف : ١٦٧] ، أي أعلم - والآية في اليهود ، وأن الله سيسلط عليهم من يعذبهم ويُنَكِّلُ بهم جزاءً على جرائمهم وإفسادهم في الأرض - وقد كان هذا الإعلان بالبراءة في الحجة التي أمَّر فيها الرسول ﷺ الصديق - رضي الله تعالى عنه - وكانت سنة تسع من الهجرة اتفاقًا والصحيح أنها كانت في شهر ذي الحجة من هذا العام كما دلت على ذلك الروايات الصحيحة لا في شهر ذي القعدة كما قيل ، وإليك تفصيل ما كان في هذه الحجة ذلك أنه لما انصرف رسول الله ﷺ من تبوك وهي آخر غزوة غزاها أراد الحج ولكنه قال : « إنه يحضر البيت عراة مشركون يطوفون بالبيت فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك » فأرسل الصديق أميرًا على الحج سنة تسع وبعث معه أربعين آية من صدر سورة براءة ليقرأها على أهل الموسم ، فلما خرج دعا النبيُّ ﷺ « عليًا » - رضي الله تعالى عنه - ، وقال له : « اخرج بهذه الآيات من صدر سورة براءة فأذن بها في الناس إذا اجتمعوا ، فخرج عليٌّ على ناقة رسول الله ﷺ « العضباء » حتى أدرك الصديق أبا بكر بذي الحليفة فلما رآه أبو بكر قال له : أميرًا أم مأمور؟ فقال : بل مأمور ، ثم سارا فأقام أبو بكر للناس الحج على منازلهم التي كانوا عليها في الجاهلية ، وقد خطب الصديق قبل يوم التروية معلمًا الناس مناسكهم ، ثم

---

(١) مجلة الحج - العدد ٥ - السنة ١٧.

خطب يوم عرفة ، ويوم النحر ، وكان كلما خطب أمير الحج الصديق قام سيدنا « علي » فقرأ على الناس صدر سورة براءة ثم ينادي في الناس بهذه الأمور الأربعة ، روى الترمذي في جامعه عن زيد بن يثيع قال : سألت عليًا بأي شيء بُعثتَ في الحج ؟ قال : بُعثتُ بأربع :

« ١- أن لا يطوف بالبيت عريان .

٢- ومن كان بينه وبين النبي ﷺ عهد فهو إلى مدته ، ومن لم يكن له عهد فأجله أربعة أشهر .

٣- ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة .

٤- ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا » ، قال الترمذي : حديث حسن صحيح وخرجه النسائي أيضًا وفيه قال علي : « فكنت أنادي حتى صَحِل صوتي[1] » .

وقد أمر الصديق أبا هريرة في رهط آخرين أن يؤذنوا في الناس يوم النحر بهذه الأمور مساعدين لعلي ومعاونين له على إشاعة تبليغ ما كلف به بين الألوف من الناس ، فلم يكن ثم أفتيات على علي وإنما هي معاونة على الخير ، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمَّره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر : لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فكان حميد بن عبد الرحمن بن عوف يقول : يوم النحر يوم الحج الأكبر من أجل حديث أبي هريرة ، وذلك أن هذا الحديث والآية القرآنية : ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ﴾يدلان على أن يوم النحر هو يوم الحج الأكبر .

وهنا شبهة لابد أن نعرض لها ونبين الحق فيها لأن بعض الطوائف قد اتخذت منها وسيلة لبعض معتقداتها وهي : إذا كان رسول الله ﷺ أمَّر أبا بكر على الحج عام تسع وعهد إليه بتبليغ صدر سورة براءة فلم عدل عن ذلك ووكل إلى علي قراءة صدر سورة براءة وتبليغ ما أمر بتبليغه للناس ؟

والجواب : أن صدر سورة براءة تضمن نقض العهود المطلقة غير المؤقتة ، أو التي

(١) في القاموس : صحل صوته كفرح فهو أصحل ، وصحل بح أو احتد في بحح .

مدتها دون أربعة أشهر فيما زاد عن أربعة أشهر ، وكان العرب تعارفوا فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيد القبيلة أو رجل من رهطه ، فأراد الله سبحانه أن يكون المبلغ عن النبي رجل من أهله حتى يقطع ألسنة العرب المخالفين بالاحتجاج على أمر هو من مقرراتهم وتقاليدهم ، ولاسيما أنه ليس فيه منافاة للإسلام إن لم يكن يؤيده ، ولعل النبي ﷺ لم ينتبه إلى هذا في أول الأمر أو انتبه إليه ولكن لم يعول عليه حتى نزل الوحي منبهًا إليه .

روى الترمذي وحسنه وأحمد من حديث أنس رضي الله عنه قال : « بعث النبي ﷺ براءة مع أبي بكر ، ثم دعا عليًا فأعطاها إياه ، وقال : لا ينبغي لأحد أن يبلغ هذا إلا رجل من أهل بيتي » ، وفي رواية الطبراني : أن جبريل عليه السلام هو الذي قال للنبي ﷺ أنه لن يؤديها عنك إلا أنت أو رجل منك .

فهذا هو السر في إرسال سيدنا علي بعد سيدنا أبي بكر ؛ لإعلام الناس لا كما زعمت الرافضة من أن عليًا أفضل من أبي بكر ، وأحق بالتقديم ، وبنوا على هذا أن عليًا أحق بالخلافة من أبي بكر ، والروايات الصحيحة تكذبهم فلم يكن علي أميرًا بل كان مأمورًا كما سمعت آنفًا ، وإن في تأمير النبي ﷺ أبا بكر على الناس في هذه الحجة دون غيره ما يشير إلى أنه الأحق بالخلافة ، وليس هنا مقام الاستدلال على ذلك فلذلك مقام آخر .

وقد كان المشركون يجتمعون مع المسلمين في الحج ، فأراد النبي ﷺ أن لا يكون ذلك وآذنهم بهذا حتى لا تكون لهم معذرة ، ولم يجد المشركون بدًا من الامتثال فقد دالت دولة الشرك والأوثان وأصبحت كلمة الله كلمة التوحيد هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى فلم يأت مشرك إلى البيت عام حجة الوداع وانفرد المسلمون بالبيت لا يشاركهم فيه أحد فما كان لمشرك أن يدنس البيت بشركه ورجسه وصدق الله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً[١] فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٢٨] ، وهي من الآيات التي أُذِّنَ بها على الناس .

(١) العيلة : الفقر .

والمراد من نجاسة المشركين النجاسة المعنوية وهي نجاسة المعتقد ، أو المراد أنهم لا يتنزهون عن النجاسات غالبًا أو لا يغتسلون من الجنابات وجمهور العلماء على عدم تمكينهم من دخول الحرم كله ، وبعض العلماء حملها على المسجد الحرام خاصة دون الحرم ودون بقية المساجد ، وبعضهم قال : المراد عدم تمكينهم من أداء الحج والعمرة .

وقد ذكر ابن إسحاق أن قريشًا ابتدعت قبل الفيل أو بعده أن لا يطوف أحد ممن يقدم عليهم من غيرهم أول ما يطوف إلا في ثياب أحدهم فإن لم يجد طاف عريانًا ، فإن خالف وطاف بثيابه ألقاها إذا فرغ ثم لم ينتفع بها ، فلما جاء الإسلام هدم ذلك كله فيما هدم من العقائد والخرافات وقال ابن كثير[1] : كانت العرب ما عدا قريشًا لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها ، وكانت قريش وهم الحُمْس يطوفون في ثيابهم ومن أعاره أحمسي ثوبًا طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه ، ومن لم يجد ثوبًا جديدًا ولا أعاره أحمسي ثوبًا طاف عريانًا ، وربما كانت امرأة فتطوف عريانة فتجعل على فرجها شيئًا ليستره بعض الستر وتقول :

اليومَ يبدو بَعْضُهُ أَو كُلُّهُ وَمَا بَدَا مِنه فَلَا أُحِلُّهُ

وأكثر ما كان النساء يطفن عراة بالليل ، وكان هذا قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه أهواءهم ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع ، فأنكر الله عليهم ذلك فقال : ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف : ٢٨] ، وقد كانت حجة الصديق بمثابة التمهيد للحجة الكبرى ، حجة الوداع .

* * *

(١) تفسير ابن كثير ج ٣، صـ ٤٦٤.

(٢)
في حجة الوداع[1]

ذكرت في مقال سابق أن النبي صلوات الله وسلامه عليه أمَّر الصديق رضي الله تعالى عنه على الحج في سنة تسع من الهجرة ، وأرسل معه سيدنا عليًا رضي الله عنه بصدر سورة براءة وأن ينادي في الناس بهذه الأمور الأربع : أن لا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عهد فهو إلى عهده ، ومن لم يكن له عهد فهو إلى أربعة أشهر ، وأن لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة .

وقد كانت هذه الحجة بمثابة تمهيد للحجة الكبرى حجة الوداع ، وهي الحجة التي حجها رسول الله ﷺ بعد فريضة الحج وعلم فيها المسلمين المناسك ، والمشاعر التي ورثوها عن الخليل إبراهيم عليه السلام ، والتي ودع فيها أصحابه حيث قال : « خذوا عني مناسككم ، فلعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا » رواه مسلم ، فما أن وافى موسم الحج حتى أذن في الناس بالحج أن هلموا إلى حجة يكون الأميرَ فيها الإمام الأعظم ، والمشرع الأكبر سيدنا ونبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه ، فسالت شعاب الجزيرة وطرقها ، ووهادها ونجادها بالألوف المؤلفة من كل فج ، واجتمع في هذا المَوْسم عدد من الحجيج لم تعهده الجزيرة العربية من قبل وخرج الرسول يقود هذا الجمع الغفير ، وما أن أحرموا حتى عجت الأصوات بالتهليل والتكبير ، والتلبية قائلين : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

ولقد كان مشهدًا عجيبًا حقًّا ، فلم تعهد الجزيرة أن يخرج هذا الحشد الحاشد وهم جميعًا على قلب رجل واحد ، ويعبدون إلهًا واحدًا ، وجهتهم واحدة ، وقصدهم واحد ، وملتهم واحدة ، كما كان مشهدًا معبرًا عن جلال العقيدة ، عقيدة الوحدانية الخالصة المنزهة عن أي انحراف أو زيغ ، أو هوى ، وعن جمال الإسلام وروعته ، وعن بساطة الشريعة وسماحتها ، هذه البساطة التي حببت الناس في الدخول في الإسلام ، وهذه السماحة التي جعلت من دخل فيه إنما دخل عن طواعية واختيار ، وعقيدة وإذعان ، فلا

---

(١) مجلة الحج ، العدد ٦، السنة ١٧.

مجال لإكراه ، ولا إلجاء .

ألا ما أجمل أن تتجاوب الأصداء بأشرف عقيدة عرفتها البشرية ، وأسمى هتاف عرفته الدنيا ، هتاف للحق ، وفي الحق ، وإلى الحق .

وما أروع أن تتلاقى أصداء أهل الأرض بتسبيح وتكبير أهل السماء ، فإذا السماوات والأرضون يغمرها جلال الله وكبرياؤه ، وسبحاته وأنواره ، وتجلياته ورحماته .

وتسير هذه الألوف المؤلفة صاعدة الجبال والروابي حينًا ، ومنحدرة في بطون الوديان حينًا آخر ، وهي لا تفتر في كل أحوالها عن التهليل والتكبير ، والتلبية والتمجيد حتى وصلوا إلى البلد الحرام وهنالك طافوا وسعَوْا ، وصلَّوْا عند مقام الخليل عليه السلام ، وتضلعوا من العين الثرة المباركة التي هي هزمة جبريل ، وسقيا إسماعيل عليه السلام .

طاف الرسول والمسلمون فلم تقع أعينهم على مشرك قط ، فقد نُفِيَ المشركون عن البيت ، وتفرد به المسلمون ، فأي عزة تداني هذه العزة ؟ وأية نعمة أجل من هذه النعمة ؟ ولم تقع أعينهم على هذه المناظر المؤذية ، مناظر الذين يطوفون بالبيت عرايا ، وبذلك قضي على هذه العادة الجاهلية التي تتبرأ منها الشرائع وتأباها العقول ، والفطر السليمة .

وما أن وافى يوم التروية حتى خرج الرسول والحجيج إلى منى ، ثم إلى عرفات ، وفي عرفات نزلت على النبي صلوات الله وسلامه عليه هذه الآية الفذة الجامعة التي تمنن الله فيها على عباده بأجل النعم وأسماها ، وأزكاها وأبقاها ، وهي : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] ، نعم ، هذه هي الشريعة قد تقررت ، والأحكام كلها نزلت أو كادت ، فأي كمال في الدين يرتجى أكثر من هذا ؟ وهاهي دولة الشرك والأوثان قد دالت ، وهاهم المسلمون قد أصبحوا أعزة ، وانفردوا بالبيت بعد أن كانوا لا يستطيعون الطواف به ، فأي نعمة أجل من هذه النعمة ؟ وهاهو الإسلام بعقائده وعباداته ، ومعاملاته ، وآدابه ، قد استنارت به النفوس ، وأذعنت له القلوب ، وترطبت به الألسنة ، وتواترت الأدلة على أنه أساس السعادة ، وأن الكون لا يصلح إلا به ، وأنه الدين الوسط الذي لا تفريط فيه ولا إفراط ، فكيف لا يرضاه الله للناس كافة ؟ وقد كان المسلمون الأولون يعرفون لهذا اليوم منزلته ، ويقدرون هذه النعم

التي تمنن الله عليهم بها في هذه الآية ، روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله تعالى عنه أن رجلًا من اليهود قال له : يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرءونها لو علينا معشرَ اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا ، قال : أي آية ؟ قال : ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ ، قال عمر : قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم جمعة ، وفي رواية الطبري في تفسيره : « وكلاهما بحمد الله لنا عيد » .

وصدق الفاروق فالجمعة عيد أسبوعي ، ويوم عرفة عيد سنوي وفي يوم عرفة ، وفي المكان المعروف بوادي عرنة خطب النبي ﷺ خطبته المشهورة التي أعلن فيها بعض مبادئ الإسلام وأصوله القويمة ودستوره الخالد فقال : « إن دماءكم وأموالكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث –يعني ابن عبد المطلب– كان مسترضعًا في بني سعد ، فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربانا –ربا عباس بن عبد المطلب– فإنه موضوع كله ، فاتقوا الله في النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله ، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكبها إلى الناس : اللهم اشهد ثلاث مرات »[1] .

ومن هذه الخطبة نستخلص المبادئ السامية الآتية :

١– تقرير حقوق الإنسان ، وأن كل إنسان ينبغي أن يؤمَّن في نفسه ، وفي عقيدته ، وفي عرضه ، وفي ماله ، وقد أكد النبي ﷺ هذا الأصل الأصيل بشتى أنواع التأكيدات .

٢– الإيذان بأن كل شيء من أمور الجاهلية باطل ، وأنه لا يزيد عن الشيء الحقير المهين الذي يوطأ بالأقدام ، فعقائد أهل الجاهلية ، وعاداتها ، وأخلاقها المرذولة يجب

---

(١) انظر خطبته ﷺ في حجة الوداع في صحيح مسلم .

أن تتطهر منها النفوس ، وأن يصان منها المجتمع ، وقد ذكر النبي الأخذ بالثأر والتعامل بالربا مثلين لهذا ، وعلى الداخل في الإسلام أن يستقبل من حياته صحيفة مشرقة طاهرة ، وأن يتجاوز عما كان قبل ذلك فالإسلام يَجُبُّ ما قبله ، وعفا الله عما سلف .

٣- أن على الحاكم إذا أمر بشيء أو نهى عن شيء أن يبدأ بنفسه وبأهله فإن ذلك أدعى إلى استجابة الآخرين وقطع قالة السوء ، وهكذا فلتكن العدالة ، وليكن الإنصاف .

٤- التوصية بالنساء وإحسان معاشرتهن ، والرفق بهن ، وهذا يدل على غاية العناية بإصلاح الأسرة فإنها إذا صلحت صلح المجتمع ، وإذا فسدت فسدت الأمة .

٥- التنويه بالكتاب الكريم ، والدعوة إلى الاعتصام به لأنه أساس السعادتين الدنيوية والأخروية .

٦- استطلاع رأي جماهير الأمة في تبليغه الرسالة وأدائه الأمانة ، وفي النصح للأمة وعدله في معاملة الرعية استطلاعًا مبنيًا على غاية الحرية والمصارحة ، فما كان صلوات الله عليه ممن يرهب الناس أو يخيفهم ، أو يجلد أبشارهم ، أو يغتصب أموالهم ، وقد كانت الأمة عند حسن ظنه بها ، فقد صدعت بالحق وشهدت أنه بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح للأمة ، فما كان منه ﷺ إلا أن سجل عليهم هذه الشهادة الحقة أمام الله سبحانه فقال : اللهم اشهد ، اللهم اشهد ، اللهم اشهد .

* * *

(٣)

من ذكريات حجة الوداع[1]

ها هي الوفود قد جاءت تترى إلى رسول الله ﷺ من كل ناحية ، وأضحت الجزيرة العربية مؤمنة موحدة ، وها هي دعائم الإسلام قد استقرت وبيَّنها النبي بقوله وعمله ، ولم يبق من أصول الإسلام ما هو في حاجة إلى البيان القولي والعملي من المشرع صلوات الله عليه إلا الحج ، وها هو الصديق رضي الله تعالى عنه قد مهد بالحج سنة تسع للنبي أن يحج بالناس ليوقفهم على مناسكهم كما شرعه الله من لدن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ولينفي عن شعائره ما شابها من بدع ومستحدثات ، وتغييرات ، وإنا لنلمس هذا المعنى جليًّا في قوله ﷺ : « كونوا على مشاعركم فإنكم على إرث من إرث أبيكم إبراهيم » رواه النسائي وأبو داود والترمذي وابن ماجه ، وقوله في هذه الحجة وهو يرمي جمرة العقبة : « لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه » رواه مسلم .

وتسمى هذه الحجة : حجة الوداع ؛ لأن النبي ﷺ ودع المسلمين بهذا القول ، وحجة الإسلام ؛ لأنه ﷺ لم يحج بعد الهجرة غيرها ، وأما قبل الهجرة فقد حج مرارًا قبل النبوة وبعدها ، وحجة البلاغ ، لأن النبي بلغ الناس شرع الله في الحج قولًا وعملًا ، وذكَّرهم بالمهمات من شرائع الإسلام ، وحقوق الإنسان وأشهد الله والناس على ذلك .

« الأذان بالحج » : ولم يَحِلَّ ذو القعدة من عام عشر حتى أخذ رسول الله ﷺ في التجهز للحج وأذن في الناس بذلك ، وأمرهم بالتجهز فصادفت الدعوة هوى في النفوس ، فجاء الناس من كل فج عميق ، من القرى والبوادي ، والسهل والجبل ، والوديان والصحاري ، مشاة وركبانًا تحدوهم الرغبة الصادقة في حج بيت الله مهوى القلوب ، ومثابة الناس ، والحرص على أن يحظوا بالشرف الرفيع ، شرف مصاحبة الرسول ﷺ والنظر إليه ، والسماع منه ، وضربت حول المدينة الخيام لمائة ألف أو

(١) مجلة الحج ، ج ٦، ذي الحجة ١٣٨٦هـ ، مارس ١٩٦٧م .

يزيدون ، وحد بينهم الإسلام ، وربط قلوبهم على المحبة والإخاء ، بعد أن كانوا أوزاعًا متفرقين وأعداء متنابذين .

« الخروج للحج » ، وفي يوم السبت الخامس والعشرين من ذي القعدة خرج رسول الله ﷺ في هذه الألوف المؤلفة بعد أن صلى الظهر بالمدينة ، وقد استخلف عليها أبا دجانة ، وقيل : سباع بن عرفطة حتى وصل إلى ذي الحليفة ، فصلى العصر بها ركعتين ثم بات بها ، فلما أصبح اغتسل للإحرام ، وتطيب ولَبَّدَ رأسه ، وصلى ركعتين ، وكان رسول الله ﷺ قد ساق معه الهدي قيل : مائة ناقة وقيل دون ذلك ، فأشعر واحدة منها ، وقلدها نعلين ، وتولى إشعار الباقي وتقليدها غيره ، ثم ركب ناقته « القصواء » ، وأهل بالحج قائلًا : « لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك لبيك » ، ولما أشرفت ناقته على البيداء أدخل العمرة على الحج قائلًا لبيك بعمرة وحجة وأما المسلمون فمنهم من أحرم بحج ، ومنهم من أحرم بعمرة ، ومنهم من أحرم بعمرة وحج معًا كما روي في الصحيحين ، وسار الرسول والمسلمون وهم يلبون ويكبرون ويهللون ، لا ينفكون عن ذلك كلما علوا شرفًا – مكانًا عاليًا – أو هبطوا واديًا ، وتجاوبت الأصداء بالتوحيد والتهليل ، وشهدت الصحراء هذا المشهد الفريد الذي لم تشهد له مثيلًا من قبل ، ولن تشهد له مثالًا من بعد .

وفي « سرف » أمر رسول الله ﷺ من أحرم بالحج ولم يسق الهدي أن يجعل حجه عمرة ، وفي « ذي طوى » على مشارف مكة بات الرسول وأصحابه حتى صلى بهم الصبح ، ثم اغتسل لدخول مكة .

ودخلت هذه الجموع الحاشدة مكة من الثنية العليا نهارًا جهارًا وكان ذلك في يوم الأحد الرابع من ذي الحجة هذا العام ، فلما عاين الرسول البيت قال : « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، فحينا ، ربنا بالسلام ، اللهم زد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا ، وتكريمًا ومهابة وبرًا ، وزد من حجه أو اعتمره تكريمًا وتشريفًا ، وتعظيمًا وبرًا » رواه الشافعي والبيهقي .

« الطواف بالبيت » : وطاف رسول الله ﷺ وهو راكب ناقته يستلم الحجر الأسود بمحجن في يده لأجل أن يراه الناس فيقتدوا به ويسألوه ، ولأجل أن لا يدفع عنه الناس

فقد غشوه وأحاطوا به من كل جانب وطاف بطوافه المسلمون ، حتى إذا فرغ من طوافه أتى مقام إبراهيم وهو يتلو قول الله تبارك وتعالى : ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة : ١٢٥] ، فصلى عنده ركعتين ، ثم استلم الحجر مرة أخرى .

« إلى الصفا والمروة » : ثم خرج من باب بني مخزوم إلى الصفا وهو يقرأ قول الله تبارك وتعالى : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ١٥٨] ، أبدأ بما بدأ الله به فصعد عليه حتى عاين البيت فاستقبله قائلًا : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله أنجز وعده ، وصدق عبده ، وهزم الأحزاب وحده » ، ثم نزل إلى المروة ثم عاد إلى الصفا وهكذا حتى أتم سبعة أشواط ، فلما فرغ من السعي بينهما أمر أصحابه بأن من لم يكن معه هدي ، فليجعل حجه عمرة وليتحلل منها ، فتباطأ بعض الصحابة في ذلك تأسفًا على عدم الاقتداء به فطيب خاطرهم ، وبين لهم السبب في عدم تحلله ، فقال : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت ، لما سقت الهدي ، ولجعلتها عمرة » فحل الناس وقصروا ولم يبق محرمًا إلا من ساق الهدي ، ثم سار إلى الأبطح ، فأقام هناك هو والمسلمون إلى يوم الأربعاء ، ولم يعد إلى الكعبة من تلك الأيام كلها .

« الخروج إلى منى » : وفي يوم الخميس الثامن من ذي الحجة ويقال له : يوم التروية خرج النبي ﷺ وأصحابه إلى منى بعد أن أحرم بالحج الذين كانوا قد تحللوا من عمرتهم ، وساروا حتى جاءوا منى فصلى بها النبي الظهر والعصر والمغرب ، والعشاء ، والفجر .

« إلى عرفات » : وبعد شروق الشمس خرج النبي ﷺ قاصدًا عرفات وأمر أن تضرب له قبة « بنمرة » فسار رسول الله ولا تشك قريش إلا أنه سيقف بالمشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية ، ولكن النبي أخلف ظنهم وسار حتى أتى عرفات ائتمارًا بقول الله تعالى : ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ [البقرة : ١٩٩] ، فوجد القبة قد ضربت بنمرة فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس ركب ناقته « القصواء » حتى أتى بطن الوادي « وادي عرنة » وهناك خطب خطبته المشهورة الجامعة .

« من خطبة النبي ﷺ في عرفات » ، وفي هذه الخطبة الجامعة قرر النبي ﷺ أصول الحقوق الإنسانية ، وقرر القضاء على كثير من أمور الجاهلية ، وأوصاهم بالوصايا النافعة المفيدة التي لا صلاح للمجتمعات الإسلامية إلا بها ، ولن أتناول هذه الخطبة بالذكر والتحليل فذلك يحتاج إلى مقال آخر ولكني سأجتزئ منها بهذا القدر ففيه الكفاية والغَنَاء .

« أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة ، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد ، فلا ترجعُنَّ بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فإني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا ، كتاب الله وسنة نبيه » .

نعم إنما المؤمنون إخوة ، ومن شأن هذه الأخوة أن لا يظلم مسلم مسلمًا في دين ، ولا دم ، ولا عرض ، ولا مال ، ومن شأن هذه الأخوة الإصلاح بين المتخاصمين ، وإزالة أسباب الفرقة والشقاق والخلاف ، وأن تتكافل الأمة كلها في هذا وتتضامن لا أن تتصام الآذان ، وتدع الخلاف يعمق ويتسع حتى يؤدي إلى الصدام والقتال ، إن على ولاة الأمور من العلماء والرؤساء والملوك والأمراء في كل قطر وفي أي بلد إسلامي أن يعملوا ما استطاعوا إلى العمل الجاد المخلص إلى القضاء على أي نزاع أو شقاق يقع بين طائفتين من طوائف المسلمين ائتمارًا بأمر الله سبحانه في قوله : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات : ٩- ١٠] .

أين نحن أيها المسلمون – شعوبًا وحكومات – من قول الله هذا ، وأين نحن من مقالة رسول الله ﷺ هذه ؟ : « فلا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض » .

ألا ما أشد حاجتنا نحن المسلمين إلى أن نكون يدًا واحدة ، وعلى قلب رجل واحد ، لقد كنا نقرأ في كتب أسلافنا -رحمهم الله- ونسمع من أفواه أشياخنا أن الكفر ملة واحدة ، وصدقوا فيما قالوا ، فكلا الكتلتين الشرقية ، والغربية أعداء للإسلام والمسلمين ، والشواهد على ذلك كثيرة في القديم والحديث لا يحصيها العد واقرءوا ما

كتبه المستشرقون أو إن شئت فقل المبشرون الذين لبسوا مسوح العلم والبحث من الطعون الآثمة المتجنية على الإسلام وعلى نبي الإسلام لتروا كيف سَخَّر هؤلاء العلم لنهش الأعراض وإرضاء تعصبهم الممقوت الموروث، ونزواتهم الشيطانية، وصليبيتهم التي لا تزال تعمل عملها إلى عصرنا هذا !!

ومن العجيب المؤسف أن بعض الذين أرضعوهم من لبانهم، وصنعوهم على أيديهم من المسلمين قد تأثروا بهم إلى حد كبير، وصاروا أبواقًا تردد ما يقولون باسم العلم والبحث، وهما بريئان مما يقولون !!

أين نحن - يا مسلمون - من قول رسول الله في خطبته الجامعة في حجة الوداع : « قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا : كتاب الله وسنة نبيه »، أين نحن من العمل بالقرآن وسنة خاتم الأنبياء؟ ها أنتم قد جئتم تحجون بيت الله الحرام، وتزورون مسجد خير الأنام، وستقفون خاشعين أمام قبره الشريف ترددون عليه وعلى صاحبيه السلام، وتجشمتم المشاق والمتاعب، وأنفقتم الأموال الطائلة، فهل تظنون أنكم بهذا أرضيتم الله ورسوله، وكتابه مهمل بين ظهرانيكم ؟! وسنة نبيه لا يعمل بها في تشريعاتكم ؟

لا . لا . أيها المسلمون إن العمل على تنفيذ شريعة القرآن المبين، وسنة خاتم الأنبياء والمرسلين، هو فرض محتم لازم، كالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، إذا رجعتم - أيها الحجاج - إلى بلادكم وأقوامكم فأعلنوها كلمة قوية صريحة ألَّا نحتكم إلا إلى الله ورسوله، ولا نرضى بغير شريعة الإسلام بديلًا، فإن مِتَّ يا أخي المسلم بسبب هذا مت شهيدًا، وإن عشت في ظلها عشت حميدًا .

أليس من المؤسف حقًا أن بعض أقطار الإسلام لم تكتف بإهمال تعاليم الإسلام فقام فريق من بينها المنحرفين باعتناق الشيوعية واتخذوها نحلة ومذهبًا . بل حاولوا أن يحدثوا انقلابات كي يأخذوا بزمام الحكم، وكان الله سبحانه وتعالى لهم بالمرصاد ففشلوا - وحق لهم أن يفشلوا - ولكن بعد أن جرت الدماء أنهارًا ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] .

إننا بإسلامنا لسنا في حاجة إلى هذه المذاهب المستوردة الفاسدة ليكن لكم أيها

المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها عبرة بما حدث في «أندونسيا» هذا القطر الإسلامي الشقيق الأصيل الذي كاد يتمزق بفعل الشيوعيين، الذين لو قدر لهم النجاح في حركتهم الرعناء لذهبوا بتاريخ أمة، ومفاخرها في بضعة قرون، ولكن الكثرة الكاثرة من أبنائها المؤمنين المخلصين قضوا على الفتنة في مهدها، ولن تقوم للفئة الباغية الظالمة من الشيوعيين قومة - إن شاء الله - أبدًا، وأخيرًا يا قومي أضع بين أعينكم هذه الوصية النبوية في حجة الوداع: «قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا: كتاب الله وسنة نبيه».





الباب السابع

كيف تحج أيها المسلم ؟

(١)

كيف تحج أيها المسلم [٢][1] ؟

فريضة الحج :

الحج ركن من أركان الإسلام وفريضة محكمة من فرائضه باقية إلى يوم القيامة ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة والإجماع .

أما الكتاب : فقوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران : ٩٧] .

أما السنة : فقوله ﷺ : « بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان والحج » ، رواه البخاري وغيره وقد أجمع المسلمون قاطبة على فرضيته ولم يخالف في ذلك أحد وهو فرض في العمر وما زاد فهو تطوع ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : خطبنا رسول الله ﷺ ، فقال : يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا ، فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟ فسكت حتى قالها (ثلاثًا) فقال النبي ﷺ : « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ، ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإن أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فاتركوه » ، رواه الإمام أحمد والنسائي بزيادة « الحج مرة فما زاد فهو تطوع » .

والأئمة وإن اختلفوا في أنه فرض على الفور أو على التراخي فالأولى والأفضل التعجيل به للمستطيع عند عدم الموانع الشرعية لأن الآجال غير معلومة والأليق بالمسلم اغتنام الخير والمسارعة إليه .

وحد الاستطاعة القدرة على الزاد والراحلة فمن كان حُرًّا عاقلًا سليمًا قادرًا على الزاد والراحلة الفاضلين عن حوائجه الأصلية ونفقة من يعول من حين ذهابه إلى إيابه فقد صار الحج لازمًا في حقه وينبغي لمن يريد الحج أن يتخير نفقته من خير ماله وأطيبه ويتجنب الخبيث الحرام ففي الكتاب الكريم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ

---

(١) مجلة الحج – العدد الخامس – ذو القعدة ١٣٧٢هـ .

﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة : ٢٦٧] .

وفي الحديث الشريف : « يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا ، وإن الله قد أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾ [المؤمنون : ٥١] ، وقال : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ﴾ [البقرة : ١٧٢] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يا رب ، يا رب ومطعمه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب له » رواه مسلم .

كما ينبغي للمسلم أن يتوب توبة نصوحًا ويتحلل من المظالم ويعطي كل ذي حق حقه حتى يكون ذلك أدعى إلى قبول حجه وغفران ذنوبه وأن يطهر قلبه من العقائد الفاسدة والحقد والحسد والبغضاء وأن يقصد بما هو قادم عليه وجه الله وأداء فريضته لا الرياء والسمعة والجاه فإن ذلك مما يحبط الأعمال ويذهب بالثواب .

فاحرص أيها المسلم على هذه الوصايا فإنها مما تقربك إلى الله وتحل عليك رضوانه[1] .

الإحرام من الميقات :

ها أنت قد عزمت أمرك وشددت رحلك وتوجهت إلى البيت الحرام وشارفت على الميقات ، والميقات : هو المكان الذي لا يحل لك تجاوزه إلا وأنت محرم بحج أو بعمرة أو بهما معًا ، وهو لأهل المدينة : ذو الحليفة (آبار علي الآن) ، ولأهل الشام : ومن على شاكلتهم – كأهل مصر وشمال أفريقيا – الجحفة (رابغ الآن) ، ولأهل نجد : (قرن المنازل) ، ولأهل اليمن : (يلملم) ، ولأهل العراق : (ذات عرق) ، هي لأهل هذه البلاد ولمن أتى عليها من غيرهم ، فإذا قاربت الميقات فاخلع ما عليك من ثياب ومخيط واغتسل وتعطر بما شئت من طيب ثم البس إزارًا ورداءً جديدين أو غسيلين ونعلين ثم صل ركعتين وهما سنة عند الإحرام ثم قل : « اللهم إني أريد الحج فيسره لي وتقبله مني » ثم ارفع صوتك بالتلبية ناويًا بها الحج والتلبية أن تقول : « لبيك اللهم لبيك ،

(١) ويشترط في حق المرأة أن يكون لها محرم تحج معه أو زوج في سفر ثلاثة أيام فما فوقها عند أبي حنيفة وأحمد . وقال الشافعي : يجوز لها الحج إذا خرجت في رفقة ومعها نساء ثقات لحصول الأمن بالمرافقة .

لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » وبالتلبية تصير محرمًا .

ما يجوز للمحرم وما لا يجوز :

ها أنت قد أحرمت بالحج أيها المسلم فاجعل همك في التلبية والتكبير والتهليل سواء كنت في البر أم في البحر أم في الجو وإياك والرفثَ والفسوق والجدالَ والمماراة مع إخوانك المسافرين معك ومع الحاملين والأجراء والبيع والشراء ولا يجوز لك المخيط ولا القميص ولا السراويل ولا العمامة والقلنسوة ولا الخفان إلا أن لا تجد النعلين فتلبس الخفين وتقطعها أسفل الكعبين ولا تقبل ولا تلمس بشهوة ولو كانت امرأتك ولا تقتل صيدًا ، ولا تدل عليه مُحْرِمًا أو حلالًا ، ولا تقتل القمل ولا تقطع شيئًا من شعرك ولا تقص ظفرك ولا تغطِّ رأسك ووجهك بملاصق لهما ولا تحلق شعرك قبل الحل ولا تمس طيبًا أو تغسل رأسك وبدنك بما فيه طيب كالسدر ، أما غسل الرأس والجسد بالماء القراح ولو بغير جنابة فلا شيء فيه فقد ثبت عن ابن عباس القول بجوازه كما في صحيح مسلم فإن اضطر المحرم إلى حلق شعر رأسه لمرض أو كثرة قمل يؤذيه فله أن يحلق وعليه الفداء وهو ذبح شاة أو صيام ثلاثة أيام أو إطعام ستة مساكين ثلاثة آصع وهو بالخيار بين هذه الثلاثة وذلك لقوله تعالى : ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] .

في مكة المكرمة :

ها أنت قد دخلت مكة ملبيًا فاقصد إلى المسجد الحرام ، فإذا عاينت البيت فكبر وهلل واقصد الطواف حول البيت وهو طواف القدوم ، وابدأ بالحجر الأسود فاستقبله فإن أمكنك أن تستلمه وتقبله فافعل وإلا فأشر إليه بشيء في يدك وقبله ، وإلا فاستقبله مكبرًا ومشيرًا إليه ثم طف بالبيت سبعة أشواط مضطبعًا[١] وارمل في الثلاثة الأشواط الأولى وسر في الأربعة الباقية على هينتك[٢] ، وليكن طوافك حول الكعبة والحِجْر وادع

---

(١) الاضطباع : أن يجعل طرف ردائه الأيمن تحت إبطه الأيمن ، ثم يلقي طرفه على كتفه الأيسر ، والرَّمَلُ : الإسراع في المشي مع هز الكتفين إظهارًا للقوة والجلد .

(٢) على مهل .

بما شئت من خير الدنيا والآخرة وإن اتبعت المأثور كان أفضل ولا تستلم من الأركان إلا الركن الأسود واليماني ، وإن أمكنك الاستلام في كل شوط فافعل ، وإلا فتكفي الإشارة ، ولا يليق بك أيها المسلم المزاحمة على الحجر كما يفعل بعض الحجاج فيؤذي الضعفاء من الرجال والنساء ، والأجمل بك الرفق بإخوانك المسلمين في هذا الموقف الذي تخشع فيه القلوب وتطمئن النفوس ، فإن انتهيت من طوافك فأتِ مقام إبراهيم ثم صل ركعتين واقرأ في الأولى سورة الكافرون ، وفي الثانية سورة الإخلاص ، فإذا فرغت منهما فاستلم الركن - إن أمكن - فهكذا فعل رسول الله ﷺ .

إلى الصفا والمروة :

ثم اخرج من باب الصفا قاصدًا السعي بين الصفا والمروة ، واقرأ قول الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة : ١٥٨] .

ثم قف على الصفا متوجهًا نحو البيت مهللًا ومكبرًا ، ومن المأثور أن تقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » ، وادع بما تشاء ثم سر في بطن الوادي « السعي » ، فإذا حاذيت أحد الميلين الأخضرين فاشتد في السعي حتى تبلغ الآخر فسر على هينة حتى تصل إلى المروة فاصعد عليها وافعل كما فعلت على الصفا ، وهذا شوط ثم عد إلى الصفا ، وهذا شوط آخر ، وهكذا حتى تتم السبعة الأشواط ، ثم أقم أيها الحاج محرمًا بمكة حتى يوم التروية ولتحرص مدة مقامك بمكة على الطواف بالبيت والذكر والدعاء والصلاة بالحرم فقد ورد أن الصلاة فيه بمائة ألف صلاة فيما عداه من المساجد إلا المسجد النبوي والمسجد الأقصى ، وعليك بالتخلق بالأخلاق الإسلامية والآداب النبوية في حسن العشرة والمعاملة للتحرز عما يخل بالإحرام .

يوم التروية :

فإذا كان يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة يتوجه الحاج إلى منى فيصلي بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء وفجر يوم عرفة حتى تطلع الشمس(١) ، فيتوجه إلى

(١) وهذا هو الأفضل والمسنون إلا إذا تعذر ذلك .

عرفات ويقيم بها فإذا زالت الشمس يخطب الإمام أو نائبه للناس خطبتين بمسجد نمرة يفصل بينهما بجلسة خفيفة يعلم الناس فيها الوقوف بعرفة والمزدلفة ورمي الجمار والنحر والحلق وطواف الزيارة وغيرها من المناسك ثم يصلي بهم الظهر والعصر جامعًا بينهما جمع تقديم بأذان وإقامتين يؤذن الظهر ويقيم له ثم يقيم للعصر فحسب ولا يتطوع بينهما وبعد الصلاة يتوجه الإمام ومعه الناس إلى الموقف فيقف هو والناس بقرب الجبل المعروف بجبل الرحمة عند الصخرات حيث وقف النبي ﷺ والوقوف عندها أفضل وإلا فعرفات كلها موقف إلا بطن عرنة فمن وقف في أي جزء من أجزائها فقد حصل الركن وليس من السنة صعود الجبل كما يظن بعض الحجاج وعليك أيها الحاج أن تطهر قلبك من كل سوء وأن تتوجه إلى الله في هذا اليوم المشهود الذي تنزل فيه الرحمات وتستجاب الدعوات ولا تفتر عن التلبية وذكر الله في هذا المشهد الكريم حتى تغرب الشمس ، وقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة » .

وروى عبد الرزاق في مسنده من رواية ابن عمر قال : « إن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة يقول هؤلاء عبادي جاءوني شعثًا غبرًا يرجون رحمتي ويخافون عذابي ولم يروني فكيف لو رأوني » .

إلى المزدلفة :

فإذا غربت الشمس أفاض معه الناس إلى المزدلفة فإذا جاءوها يصلي الإمام بالناس المغرب والعشاء جمع تأخير بأذان وإقامة واحدة من غير أن يتطوع بينهما ثم يبيت الناس بالمزدلفة إلى الفجر فإذا ما طلع يصلي الإمام بالناس الفجر بغلس ثم يذهب هو والحجيج إلى المشعر الحرام وهو جبل قزح وهو سنة فيستقبلون القبلة ويدعون ويكبرون ويلبون ولا يزالون واقفين حتى يسفر الصبح والمزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر فبالوقوف في أي جزء منها يحصل النسك ، أما الضعفة من النساء والأطفال والمرضى ومن على شاكلتهم فلهم أن يدفعوا من المزدلفة إلى منى قبل طلوع الفجر ، ففي صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « استأذنت سودة رسول الله ﷺ ليلة المزدلفة أن تدفع قبله وقبل حطمة الناس وكانت امرأة ثبطة – والثبطة الثقيلة – فأذن لها فخرجت قبل دفعه

وحبسنا حتى أصبحنا فدفعنا بدفعه ولأن أكون استأذنت رسول الله ﷺ كما استأذنته سودة فأكون أدفع بإذنه أحب إلي مفروح به » ، وفي حديث ابن عباس قال : « بعثني رسول الله ﷺ في البقل أو قال : في الضعفة من جمع بليل »[١] .

ولا تنس أيها الحاج أن تأخذ الحصا معك وأنت بالمزدلفة لترمي به يوم النحر والأيام بعده .

* * *

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم .

(٢)

فريضة الحج[1]

كيف تحج أيها المسلم [٢] ؟

إلى منى :

ها أنت أيها الحاج قد صليت الفجر بمزدلفة ودعوت بما تشاء في هذا الموطن الذي يستجاب فيه الدعاء ، فلتفض قبل طلوع الشمس يوم النحر إلى منى فإذا بلغتها فابدأ بالذهاب إلى جمرة العقبة ، فارمها بسبع حصيات متفرقات مكبرًا مع كل حصاة منها ، كل حصاة مثل حصا الخذف ، فوق الحمصة ودون البندقة ، حتى لا يؤذي الحجيج بعضهم بعضًا ، واقطع التلبية مع أول حصاة ، فإذا انتهيت من الرمي فلا تقف ، بل اذهب إلى المنحر ، فانحر هديك وهو هدي تطوع لا واجب ، فإذا نحرت هديك فاحلق أو قصر ، وبذلك حل لك أيها الحاج كل شيء إلا النساء فلك أن تلبس ثيابك ، وتفعل ما كنت ممنوعًا منه قبل التحلل .

إلى مكة :

ثم اذهب من يومك هذا - يوم النحر - إلى مكة ، وهو الأفضل والذي فعله رسول الله ﷺ ، وطف بالبيت سبعة أشواط ، وهذا الطواف هو ما يسمى بطواف الزيارة ، أو الإفاضة ، وهو ركن عند جميع الأئمة ، فإن كنت قَدَّمْتَ السعي - كما ذكرنا - فلا سعي عليك ، وإلا فطفْ واسعَ بين الصفا والمروة على نحو ما فصلناه فيما سبق ، وبعد ذلك يحل لك كل شيء حتى النساء ، ثم اشرب من زمزم وتضلع منها وادع بما ورد من الأدعية .

إلى مِنى :

ثم عد إلى منى فأقم بها ليالي منى ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ بات بها وكان عمر رضي الله عنه يؤدب الناس على ترك المقام بها ، فإذا زالت الشمس من اليوم الثاني من

---

(١) مجلة الحج - العدد السادس - ذو الحجة ١٣٧٢هـ .

أيام النحر فارم الجمار الثلاثة بادئًا بالتي تلي مسجد الخيف ، وارم بسبع حصيات مكبرًا مع كل حصاة ، ثم الجمرة الثانية كذلك ، ثم ارم جمرة العقبة بسبع حصيات أيضًا ، وقف بعد الجمرتين الأوليين مكبرًا ومهللًا ، وحامدًا الله ومثنيًا عليه بما هو أهله ومصليًا على النبي ﷺ ، وداعيًا بحاجتك ، فإذا كان الغد – وهو اليوم الثالث من أيام النحر – فارم الجمار الثلاث بعد زوال الشمس ، ثم أنت أيها الحاج مخير إما أن تعجل بالنفْر إلى مكة وإما أن تقيم إلى اليوم الرابع فترمي جماره الثلاث كذلك ، وهو الأفضل لما ثبت في الصحيح أنه ﷺ صبر حتى رمى الجمار الثلاث في اليوم الرابع ، وفي هذا يقول الله سبحانه : ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ الآية [البقرة : ٢٠٣] ، ثم عد إلى مكة ويستحب أن يكون نزولك بالمحصب – وهو الأبطح – حيث نزل رسول الله ﷺ ، وبذلك يكون قد تم حجك – على ما أمر الله سبحانه ، وسن رسوله ﷺ – ونرجو من الله أن يكون حجك مبرورًا وعملك مقبولًا .

إذا كنت متمتعًا :

ما قدَّمناه لك من المناسك والأحكام فيما إذا كنت مفردًا بالحج ، أما إذا أردت التمتع بأن تجمع بين أفعال الحج والعمرة في أشهر الحج مع التحلل بينهما فَانْوِ بإحرامك من الميقات : العمرة ، وأَهِلَّ بها قائلًا : « اللهم إني أريد العمرة فيسرها لي وتقبلها مني » .

ثم اشرع في التلبية بالصيغة التي ذكرناها لك فيما سبق ، والتزم في إحرامك بالعمرة ما التزمته في إحرامك بالحج من التجرد من المخيط والتحرز عن المحظورات التي ذكرناها لك فيما مضى فإذا ما قدمت مكة فطف بالبيت سبعة أشواط مع الاضطباع والرمل في الثلاثة الأشواط الأولى والمشي في الباقي على هينة ، فإذا انتهيت من الطواف وصليت ركعتي الطواف ، فاقصد إلى الصفا ساعيًا بينه وبين المروة مع الإسراع بين الميلين الأخضرين ، ومراعيًا الكيفية التي ذكرناها لك في صفة المفرد للحج ، فإذا ما فرغت من السعي فاحلق أو قصر وبذلك تمت عمرتك ، وجاز لك التحلل منها بلبس المخيط ، وفعل جميع ما كان محظورًا عليك ، ثم أقم بمكة حلالًا حتى يوم التروية ،

فأحرم بالحج من الحرم[1] ، ثم اخرج إلى منى ، ثم إلى عرفات ، ثم ارجع إلى المزدلفة ، ثم إلى منى ، ثم إلى مكة يوم النحر طائفًا وساعيًا بين الصفا والمروة على النحو الذي فصلناه لك في المفرد بالحج .

هدي التمتع :

وعلى التمتع هدي واجب ، فإن قدر عليه ذبحه ، ومن لم يجده لعدمه أو لعدم وجود ثمنه مثلًا ، فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج ، وذلك قبل يوم النحر ، وسبعةٍ إذا رجع إلى أهله بأن عاد إلى وطنه أو فرغ من أفعال الحج ، ولو لم يرجع إلى وطنه ، وذلك لقوله تعالى : ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ﴾ [البقرة : ١٩٦] ، والهدي إما شاة أو بدنة أو بقرة ، وتجزئ الشاة وما يشبهها كالمِعْزَى عن واحد والبقرة والبدنة عن سبعة ، والسنة في الإبل النحر ، وفيما عداها الذبح ، والأفضل أن يتولى ذبحها بنفسه – إن كان يحسن ذلك – وإلا فيوكل غيره في الذبح .

إذا كنت قارنًا :

أما إذا أردت أن تكون قارنًا ، وهو أن تجمع بين الحج والعمرة في الإحرام بهما ، فَانْوِ من الميقات الإحرام بهما ثم قل : « اللهم إني أريد الحج والعمرة فيسرهما لي ، وتقبلهما مني » ، ثم اشرع في التلبية رافعًا الصوت بها ، ويعتبر قارنًا أيضًا إذا ما أهل بالعمرة من الميقات ثم أدخل عليها الإحرام بالحج قبل أن تطوف للعمرة ، وقد اختلف الأئمة في القارن أيطوف طوافين ، ويسعى سعيين لعمرته وحجته ، أم يكفي طواف واحد وسعي واحد ؟ فذهب الأئمة مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله إلى أن القارن يجزيه عن عمرته وحجه طواف واحد وسعي واحد وعلى ذلك فتكون المناسك للقارن على نحو ما ذكرنا في المفرد بالحج ، فكن على ذكر منه .

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أنه لابد من طوافين وسعيين ، وكيفية المناسك للقارن عنده أنه إذا قدم مكة طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة بالطريقة التي شرحناها ، وهذه هي أفعال العمرة ، ثم يشرع في أفعال الحج ، فيطوف بالبيت طواف القدوم ،

(١) الإحرام بالحج لمن في مكة من الحرم وأما الإحرام بالعمرة فمن الحل .

ويسعى بين الصفا والمروة ، ويبقى على إحرامه بمكة حتى يكون يوم التروية فيخرج إلى منى ، ثم يتم أفعال الحج على نحو ما ذكرنا في المفرد .

وقد اتفقوا على لزوم الهدي للقارن بعد الرمي يوم النحر ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله مثل ما ذكرنا في المتمتع ، وللمفرد والمتمتع والقارن أن يأكل من هديه وهو السنة ، وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه أمر أن تؤخذ بضعة من كل هدي ، هُدِي به في حجته ثم وضعت في قدر فأكل من لحمها ، وشرب من مرقها .

حكم النساء في المناسك :

المرأة – في كل ما ذكرنا من المناسك للمفرد أو المتمتع أو القارن – كالرجل ، إلا أنها تنفرد عنه بأنها يجوز لها أن تلبس الجلباب والقميص والسروايل والخف ، وما شاءت من مخيط ، لأن أمرها مبني على الستر والصيانة ، ولا يشترط لإحرامها الثياب البيضاء كما يظن بعض النساء ، ولا يجوز لها أن تكشف رأسها ، وعليها أن تكشف وجهها ، بل إن إحرام المرأة في وجهها ، ورخص لها أن تسدل على وجهها سترًا لا يمس بشرة وجهها ، ولا ترفع صوتها بالتلبية ، لما في صوتها من الفتنة ، ولا ترمل ولا تشتد في السعي بين الميلين الأخضرين ، ولا حلق في حقها ؛ لأنه مُثْلَة ، وإنما عليها تقصير بأن تأخذ من شعرها قدر أنملة عند التحلل من الحج أو العمرة ، وإني لأوصي النساء المسلمات الحريصات على رضاء الله ورسوله ، والراغبات في قبول حجهن وعمرتهن أن يكن على أحسن حال وأكرم صفة فلا يلبسن الضيق من الثيات الذي يصف الجسم ، ولا الرقيق الذي لا يستر ولا يبدين زينتهن ، ولا شيئًا من أجسامهن ، ولا يغيرن خلقة الله التي خلقهن عليها ، وليتحاشين مزاحمة الرجال في الطواف ، وعند استلام الحجر وفي السعي ، فإن قدرت المرأة على أن تمس الحجر بلا مزاحمة فبها ونعمت ، وإلا فيكفيها أن تشير إليه بيدها مكبرة مهللة ، وإن صيانة المرأة لنفسها عن المماسة والمزاحمة لأفضل عند الله من استلام الحجر ، فالاستلام سنة والصيانة أمر واجب .

طواف الوداع :

ها أنت قد أتممت حجك وانتهيت من مناسكه ، وقد عزمت على الإياب إلى

بلدك ، فليكن آخر عهدك أن تطوف بالبيت سبعة أشواط لا رمل فيها ، وهو ما يسمى بطواف الوداع ، فإذا انتهيت من طوافك وصليت ركعتيه فَأْتِ الملتزم « وهو ما بين الحجر الأسود وباب الكعبة » فاحتضنه وتعلق بأستار الكعبة وادع بما تشاء من خيري الدنيا والآخرة ، واذرف الدمع خشية وخوفًا من الله في هذا الموطن الذي تسكب فيه العبرات وتستجاب الدعوات وتتنزل الرحمات ، ثم اقصد زمزم فتضلع منها ، وفي الحديث الشريف « إنها طعام طعم وشفاء سقم »[(١)] ، وفيه أيضًا : « فرق ما بيننا وبين المنافقين التضلع من زمزم »[(٢)] ، وروي : « ماء زمزم لما شرب له »[(٣)] ، ثم عد إلى بلدك على الطائر الميمون وقد قضيت الوطر ، وأديت الفريضة ووفيت بالعهد ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء : ٣٤][(٤)] .

وبعد ..

فهذه أيها المسلم كيفية النسكين : الحج والعمرة ، وقد روعي في ذكرها اتباع ما صح في السنة وثبت عن رسول الله ﷺ في حجة الوداع .

إلى المدينة المنورة :

يستحب لك أيها المسلم – وقد قضيت نسكك وتمتعت بالتنقل بين هذه المعاني المقدسة – أن تشد الرحل إلى زيارة مسجد الرسول ، ثم السلام على النبي صلوات الله وسلامه عليه ، وقد ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » رواه البخاري ومسلم ، فإذا وصلت إلى المدينة فاقصد المسجد النبوي ، وَصَلِّ به ركعتين ثم توجه إلى القبر الشريف ، فقف تجاهه ثم سلم على النبي ﷺ ، وصل عليه ، واذكر ما مَنَّ الله به عليه وما من الله به علينا ، ثم سلم على صاحبيه ووزيريه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، ذاكرًا ما امتن الله به عليهما من الخصائص والفضائل ، فإذا فرغت فاستقبل

---

(١) الحديث رواه مسلم بلفظ : « طعام طعم » ، وأما بهذا اللفظ فهو عند الطيالسي والطبراني .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه والدارقطني وغيرهما .

(٣) الحديث رواه ابن ماجه والإمام أحمد .

(٤) ورخص للحائض ترك طواف الوداع .

القبلة ، وادع الله بما شئت من خيري الدين والدنيا ، وقد روى الإمام مالك في الموطأ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان إذا دخل المسجد النبوي قال : « السلام عليك يا رسول الله ، السلام عليك يا أبا بكر ، السلام عليك يا أبتِ » ، وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ما من رجل يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام »[١] ، ولا يجوز لك التمسح بحاجز المقصورة أو تقبيله ، فإن ذلك ليس من الدين في شيء وعليك أن تلتزم غاية الأدب عند السلام فلا ترفع صوتك وتنطق بِهُجْر ولا تؤذ غيرك بالمزاحمة ، كما يفعل كثير من الزائرين اليوم ، وخذ نفسك بهدي النبي ﷺ وما كان عليه الصحابة والسلف الصالح قولًا وفعلًا ، وابتهل مدة مقامك بالمدينة فأكثر من الصلاة في المسجد النبوي ، لاسيما في الروضة الشريفة ، وفي الحديث الذي روي في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام »[٢] ، وقال : « ما بين منبري وبيتي روضة من رياض الجنة »[٣] .

ولا تنس وأنت بالمدينة أن تزور البقيع مقبرة المدينة التي دفن فيها الخيار من صحابة رسول الله ﷺ الذين أقاموا الإسلام ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وشهداء أحد وتدعوَ لهم بخير ، وقباءَ ومسجدَها الذي هو من أوائل المساجد التي أسست على التقوى ، وكان النبي ﷺ يأتي مسجد قباء كل سبت راكبًا أو راجلًا فيصلي فيه ركعتين ، وكذا كان يفعل ابن عمر ، وصدق الله حيث يقول : ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، ويقول : ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] ، نسأل الله أن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب .

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحابته وسلم ، وعلى تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *

(١) الحديث رواه أبو داود وأحمد والبيهقي .
(٢) الحديث رواه البخاري ومسلم .
(٣) الحديث رواه البخاري ومسلم .

(٣)

من آداب الحج[1]

(لا رفث ولا فسوق ولا جدال)

من محاسن الإسلام أنه يحيط شرائعه وتكاليفه بحدود وآداب تحقق الغرض الذي قصده الشارع الحكيم من هذه العبادات، وترتفع بمؤديها إلى درجات من السمو النفسي، والخلقي والاجتماعي، فجعل للصلاة التي هي عمود الإسلام وسنامه آدابًا وسننًا، وللزكاة التي هي رأس العبادات المالية آدابًا ومعالم، وللصيام الذي هو نصف الصبر آدابًا وفضائل، وكذلك جعل للحج الذي هو الإرث الخالد عن أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام آدابًا وشعائر تحقق الحكم السامية التي أرادها الله من هذا الأصل من أصول الإسلام، ولا عجب فالإسلام هو الدين العام الخالد الذي جاء لإكمال ما نقص من الديانات السابقة، وإتمام ما قصر من التشريعات الماضية، والذي لا يختص بجنس دون جنس، ولا بشعب دون شعب، وصدق الحق تبارك وتعالى حيث قال في الكتاب الكريم: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله عز شأنه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨]، وقوله صلوات الله وسلامه عليه: «وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة». رواه البخاري ومسلم.

فمن آداب الحج ما ذكره الله سبحانه في قوله: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ١٩٧].

و«الرفث»: كلمة جامعة تشمل مباشرة النساء، ودواعيها ومقدماتها، والتكلم بما يستهجن من فحش القول، سواء كان ذلك في حضرة الرجال أم النساء، روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: «الرفث: غشيان النساء، والقبلة، والغمزة، وأن يعرض

---

(١) مجلة الأزهر – الجزآن التاسع والعاشر – السنة السابعة والثلاثون – ذو القعدة وذو الحجة سنة ١٣٨٥هـ – مارس ١٩٦٦م.

لها بالفحش من الكلام ونحو ذلك » ، فكل ذلك منهي عنه بل المباشرة ولو كانت للزوجة مبطلة للحج بإجماع العلماء ، والحاج الذي لا يراقب الله في المحافظة على أعراض أخواته المسلمات والترفع عن سفاسف القول ، ولا يفطم نفسه عن الهوى والشهوة أولى به ألا يذهب إلى هذه البقاع المقدسة ، ومثله ليس له من حجه إلا المشقة والتعب ، والخيبة وسوء المنقلب .

وأما « الفسوق » : فقيل هو السباب والمشاتمة ، وفي الحديث الصحيح المتفق عليه يقول النبي ﷺ : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » ، وقال الضحاك : الفسوق : التنابذ بالألقاب كأن يقول لأخيه المسلم يا أعمى ، يا أعور ، يا أعرج ، يا قميء ونحوها ، وكأنه أخذ تفسيره – الفسوق – بهذا من قول الله سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات : ١١] .

والصحيح أن الفسوق شامل لجميع المعاصي من سباب ونبذ بالألقاب ، وإيذاء باليد أو اللسان أو الجوارح وارتكاب ما نهي عنه في الإحرام كقتل الصيد ، وحلق الشعر ، وقلم الأظفار ، والمعاصي وإن كان منهيًا في جميع أيام السنة إلا أنها في الأشهر الحرم وفي حال الإحرام أشد وزرًا وأعظم ، وأما « الجدال » : فهو المراء والمخاصمة مع الرفقة والأصحاب ، ومع الحمالين والمكارين ، ومع الباعة والتجار ، وأيام الحج ليست أيام مراء ، ومخاصمة ومشاحنة ، ولكنها أيام تهليل وتكبير ، وسلام وأمان ، ومن المراء أن يدعي الحاج لنفسه الكمال في أداء المناسك ومحاولة تنقيص غيره ، عن محمد بن كعب القرظي قال : « كانت قريش إذا اجتمعت بمنى قال هؤلاء : حجنا أتم من حجكم ، وقال هؤلاء : حجنا أتم من حجكم ، فنهوا عن ذلك . وفي الكتاب الكريم : ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم : ٣٢] ، والمراء شر كله ، وكثيرًا ما يؤدي الجدال بين الإخوان إلى السباب والمشاتمة ثم إلى القطيعة والهجران .

فمن وفى من الحجاج بهذه الثلاثة ، ووقف عند هذا الأدب القرآني في الحج ، فقد تقبل الله حجه ونسكه ، وغفر له ذنوبه حتى يعود من حجه أبيض الصحيفة ، ميمون

النقيبة ، حسن الأخلاق ، ففي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال : « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » رواه البخاري ، ورواية مسلم بلفظ : « من أتى هذا البيت » ؛ وهي أعم لأنها تشمل الحج والعمرة ، وروى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله قال : « قال رسول الله ﷺ : من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وإذا علمنا أن الحج هو المؤتمر الإسلامي الأكبر الذي يجتمع فيه ألوف المسلمين من الرجال والنساء من كل قطر ومصر ، مع ما هم عليه من اختلاف الطبائع والعادات ، والنزعات ، أدركنا سمو هذا التأديب الإلهي ، وحاجة هذا الجمع الحاشد إلى أمثال هذه التأديبات والتوجيهات الإلهية .

إن مما يؤسفنا حقًّا أن بعض الحجاج يذهبون إخوانًا متصاحبين ، فإذا بهم يعودون أوزاعًا متفرقين ، ومتخاصمين ومتشاحنين لأجل شيء تافه ، أو كلمة نابية ، مع أن في رحابة صدر المسلم ، وسمو أخلاقه ما يغفرها وأكثر منها ، ولا أدري كيف غاب عن هؤلاء هذا التأديب الإلهي ؟ والحج من مقاصد الوحدة لا الفرقة ، لا التباغض والشحناء .

ومن آداب الحج أن يتزود الحاج بما يقيه ذل السؤال والحاجة فلا يكون كلًّا على الناس ، روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن عباس قال : « كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا مكة سألوا الناس ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة : ١٩٧] » . والمراد بالتقوى ما يقي الإنسان السؤال والتكفف فعلى هذا تكون الكلمة قد جاءت على أصل معناها اللغوي وهي الوقاية ، وفي اتخاذ الزاد وقاية من السؤال وذل الحاجة ، وفيه حفظ الحياء وصيانة الدين والمروءة ، وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال : « إن من كرم الرجل طيب زاده في السفر » ، ولعل في هذا مزدجرًا لهؤلاء الذين يتخذون من موسم الحج وسيلة لجمع الأموال بالسؤال ، والإلحاف فيه ، وهم بفعلهم هذا يهدرون كرامتهم الإنسانية ، والله سبحانه لم يكلف بالحج إلا المستطيع ، قال سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران : ٩٧] ، فمن لا استطاعة له فلا عليه لو أقام ببلده ورضي بما قسم الله ، وصان نفسه عن هذا الابتذال ولا سيما أن من

مقاصد الحج الإنفاق والبذل لا التسول واكتناز الأموال أو العيش عالة على الناس ، وليس هذا بتوكل وإنما هو تواكل وضعة ، والتوكل الحق هو الأخذ في الأسباب مع الاعتماد على الله ، وسيد المتوكلين سيدنا محمد كان يأخذ معه زاده وهو يتعبد في غار حراء ، فلو كان ترك الزاد توكلًا لتركه ، وما أحسن ما قال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي : « وقد لَبَّسَ إبليس على قوم يدعون التوكل فخرجوا بلا زاد وظنوا أن هذا هو التوكل وهم على غاية الخطأ ، وقال رجل للإمام أحمد بن حنبل : أريد أن أخرج إلى مكة على التوكل بغير زاد ، فقال له الإمام : اخرج من غير قافلة ، فقال : لا إلا معهم ، فقال له : فعلى جرب الناس توكلت » .

وقيل في قوله تعالى : ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة : ١٩٧] ، إن المعنى فإن خير زاد الآخرة هو التقوى ، فالتقوى على معناها الشرعي الشامل ، ومن التقوى التزود عند الخروج إلى الحج ، وذلك أن الله سبحانه لما أمرهم بالتزود للسفر في الدنيا ناسب أن يذكر الزاد الباقي الحقيقي الذي لا ينفد وهو زاد الآخرة ، وهو من الاستطرادات البديعة في القرآن المعجز ، ومثل ذلك قول الله سبحانه : ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف : ٢٦] ، فإنه سبحانه لما ذكر اللباس الحسي الذي يستر العورة ، ويُتَزَيَّنُ به نبه إلى اللباس المعنوي : لباس التقوى ، فهو خير وأبقى وأنفع ، ومن آداب الحج أن يأخذ نفسه بالرفق بإخوانه الحجاج ولا سيما النساء والضعفاء من الرجال وأن يكون لين الجانب سهل العريكة ، معوانًا على الخير ، وأن يسير على هينته فلا يؤذي أحدًا بمنكبه إن كان راجلًا ، ولا بدابته أو سيارته إن كان راكبًا ، وقد كان من هدي الرفيق الرحيم ﷺ أنه كان يسير السير الوسط ، فإذا وجد فرجة ومتسعًا أسرع بدابته ، ففي الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه سُئِل : « كيف كان رسول الله ﷺ حين دفع -يعني من عرفة- ، قال : كان يسير العنق[١] فإذا وجد فرجة نَصَّ » . وروى البغوي بسنده عن ابن عباس : أنه دفع مع النبي ﷺ يوم عرفة ، فسمع النبي ﷺ زجرًا شديدًا ، وضربًا للإبل فأشار بصوته إليهم وقال : « أيها الناس عليكم السكينة فإن البر ليس بالإيضاع - يعني بالإسراع - » ، ولعل في هذا

(١) العَنَقُ من السير : المُنبَسِطُ . لسان العرب . [الناشر] .

عظة للذين يغترون بقوتهم البدنية فيزاحمون ويكفئون الناس على وجوههم، أو يطرحونهم على ظهورهم أو الذين يسرعون بدوابهم وسياراتهم رغبة في السبق فيؤذون إخوانهم، وربما يزهقون أرواحهم فيتعرضون لغضب الله ورسوله.

إن أكثر ما يشتد الزحام في الطواف وعند إرادة تقبيل الحجر الأسود وعند الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة ومنى، وأحب أن أقول للحجاج: إن الإقلال من الطواف حول البيت من غير إيذاء خير من الإكثار مع الإيذاء، وإن تقبيل الحجر ليس بواجب عند كل شوط يكفي المسلم أن يقبله ولو مرة، فإن لم يستطع تقبيله فليلمسه بعصا في يده مثلًا، فإن لم يستطع أشار إليه بيده وكبر، وهذا هو الثابت من هدي رسول الله ﷺ، والإفاضة من عرفات إلى المزدلفة ثم إلى منى وقتها موسع، ولكن الناس يعجلون، وكل يريد أن يصل قبل الآخر، وببعض من التؤدة والإيثار تسير الأمور على خير ما يرام.

ومن آداب الحج أن يدعو الحاج بما يشاء من خيري الدنيا والآخرة ولا سيما المأثور ولا يقتصر على مرغوبات الحياة الدنيا. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان ناس من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد، ولا يذكرون من أمر الآخرة شيئًا فأنزل الله فيهم: ﴿فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، فأثنى الله عليهم وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٠٢]».

«وبعد».. فهذه أيها الحاج أهم آداب الحج فخذ بها يكن حجك مبرورًا، وكنت من الذين وعدهم النبي ﷺ بقوله: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»[1].

* * *

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم.

(٤)
مناسك الحج ميسرة مبسطة[١]

ها هم الألوف المؤلفة من الحجاج موجودون بمكة بلد الله الحرام استعدادًا لأداء مناسك الحج الذي شدوا إليه الرحال من أقاصي البلاد وأبعدها ومن أدانيها وأقربها .

فإذا كان يوم التروية وهو اليوم الثامن من ذي الحجة فاخلع ما عليك من الثياب التي تلبسها في العادة ، واغتسل ، وتعطر بما شئت من طيب ، ثم البس إزارًا ورداء جديدين أو غير جديدين ولكنهما مغسولان نظيفان ، ثم صل ركعتين وهما سنة الإحرام ، ثم قل : « اللهم إني أريد الحج فيسره لي وتقبله مني » ، ثم ارفع صوتك بالتلبية ناويًا بها الحج ، والتلبية بأن تقول : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

وبالإحرام أصبحت ملتزمًا برعاية سمت خاص ، وهدي خاص ، وحرم عليك ما كان حلالًا لك قبل الإحرام بالحج من لبس المخيط والمحيط ، ومن لبس العمامة ونحوها .

التلبية والتهليل والتكبير :

فإذا أحرمت بالحج فاجعل همك وشغلك الأكبر في التلبية والتهليل والتكبير ، وإياك والرفث[٢] والفسوق[٣] والجدال[٤] مع إخوانك الحاجين معك ، ومع الحمالين والأجراء ، وفي البيع وفي الشراء ، وأن تنزه عينك عن النظر إلى العورات سواء أكان ذلك بالنسبة إلى الرجال أم بالنسبة إلى النساء .

وإياك وحلق الشعر أو نتفه ، أو الصيد أو الدلالة على المصيد ، أو تغطية الرأس بملاصق ، أما تغطية الرأس بشمسية ونحوها فلا حرج فيه ولا سيما عند اشتداد الحر حتى

---

(١) مجلة رابطة العالم الإسلامي ، العدد (١٢) ، السنة العشرون ، ذو الحجة ١٤٠٢هـ ، أكتوبر ١٩٨٢م .

(٢) الرفث : هو الجماع ودواعيه كالقبلة : المعانقة مثلًا ، وذكر ما لا يليق بحضرة النساء .

(٣) والفسوق هي المعاصي ، وهي وإن كانت حرامًا لكنها في الحج أعظم حرمة .

(٤) هو الخلاف والمماراة مع زملائك ومع غيرهم مع رفع الصوت بما لا يليق .

تقي نفسك من ضربات الشمس .

ثم توجه إلى منى فصل بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء وفجر يوم عرفة وهو اليوم التاسع من ذي الحجة ، والمبيت بمنى ليلة التاسع من ذي الحجة والصلاة بها سنة ، فمن تعذر عليه الذهاب إليها يوم الثامن والمبيت بها ؛ فحجه صحيح ، ولكنه يكون تاركًا للسنة .

فإذا زالت الشمس يوم عرفة يخطب الإمام أو نائبه للناس خطبتين بمسجد نمرة ، وهو مسجد معروف ، يفصل بينهما بجلسة خفيفة يعلم فيهما الناس الوقوف بعرفة ، ومزدلفة ، ومنى ورمي الجمار والنحر والحلق وطواف الزيارة وغيرها من المناسك المطلوبة من الحاج فيما بعد .

صلاة الظهر والعصر جامعًا بينهما جمع تقديم :

ثم يصلي بهم الإمام أو نائبه -وهو من ينصبه أميرًا للحاج- الظهر والعصر جامعًا بينهما جمع تقديم بأذان وإقامتين يؤذن للظهر ، ويقيم له ، ثم يقيم للعصر ، ولا يؤذن ، ولا يصلي تطوعًا بين الصلاتين .

إلى الموقف :

وبعد الصلاة يتوجه الإمام أو نائبه ومعه الناس - الحجاج - إلى الموقف ، فيقف هو والناس بقرب الجبل المعروف بجبل الرحمة عند الصخرات حيث وقف النبي ﷺ ، والوقوف عندها هو الأفضل ، وإلا فعرفات كلها موقف إلا بطن عرنة ، وهو مكان معروف هناك .

وعليك أيها الحاج أن تطهر قلبك من الشرك والكفر ، والنفاق وغيرها من الرذائل في هذا اليوم المشهود الذي تنزل فيه الرحمات ، وتستجاب الدعوات ، ولا تفتر عن التلبية وذكر الله ، وأكثر من الدعاء بعرفة بما تحب وترجو من خيري الآخرة والدنيا ففي الحديث الذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال : « ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة ، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول : ما أراد هؤلاء » .

وروى عبد الرزاق في مصنفه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما : « إن الله ينزل

إلى السماء الدنيا فيباهي بهم - أي الحجاج- الملائكة فيقول : هؤلاء عبادي جاءوني شعثًا غبرًا[١] ، يرجون رحمتي ويخافون عذابي ، ولم يروني فكيف لو رأوني » ، والدعاء بالمأثور أفضل ، فإذا لم يحفظ شيئًا من المأثور فليدع بما يشاء من خير الدنيا والآخرة ، وأوصي الحجاج أن يدعوا الله بما يفهمون ، لا بما لا يفهمون من الأدعية التي توجد في بعض الكتيبات .

إلى المزدلفة :

فإذا غربت الشمس أفاض الإمام وأفاض معه الناس إلى المزدلفة ، فإذا جاءوها صلى الإمام بالناس المغرب والعشاء جامعًا بينهما جمع تأخير ، بأذان واحد ، وإقامة واحدة ، أو بإقامتين من غير أن يصلي نوافل بينهما ، ثم يبيت الناس بالمزدلفة إلى الفجر ، ومن لم يتمكن من البيات بها إلى الفجر فحجه صحيح ، ولا سيما إذا كان لضرورة ؛ وهي عدم وجود المواصلات مثلًا ، فإذا ما طلع الفجر يصلي الإمام أو نائبه بالناس الفجر بغلس ، ثم يذهب هو والحجيج إلى المشعر الحرام ، وهو جبل قزح ، وهو سنة ، فيستقبلون القبلة ، ويدعون ، ويكبرون ولا يزالون واقفين حتى يسفر الصبح ، يعني إلى قرب شروق الشمس ، والمزدلفة كلها موقف ، إلا وادي محسر[٢] فبالوقوف في أي جزء منها يحصل النسك .

أما الضعفة من النساء والأطفال والمرضى ومن على شاكلتهم فلهم أن يذهبوا من المزدلفة إلى منى قبل طلوع الفجر قبل الزحام ؛ وذلك لما في صحيح مسلم من جواز ذلك .

إلى منى :

ها أنت أيها الحاج قد صليت الفجر بمزدلفة ودعوت بما تشاء في هذا الموطن ، فلتفض قبل طلوع الشمس يوم النحر إلى منى ، فإذا بلغتها فابدأ بالذهاب إلى جمرة العقبة

---

(١) شعثًا : جمع أشعث ، وهو من شعره غير ممشوط ولا نظيف ، غبرا : جمع أغبر ، وذلك لما يكون على وجهه وجسمه وثيابه من التراب والغبار ، ولا بد في الحج من الشعاثة والاغبرار مهما كان الإنسان ؛ لأن الحج أعظم درس للتقشف في الإسلام .

(٢) محسر : بضم الميم وفتح الحاء وكسر السين المشددة .

فارمها بسبع حصيات فوق حجم الحمصة ودون البندقة ، واقطع التلبية مع أول حصاة ، ثم اذهب إلى المنحر فانحر هديك ، وهو هدي تطوع للمفرد بالحج وليس بواجب ، فإذا نحرت هديك فاحلق رأسك أو قصره ، وبذلك حل لك كل شيء إلا النساء فلك أن تلبس ثيابك وتفعل ما كنت ممنوعًا منه قبل التحلل .

إلى مكة :

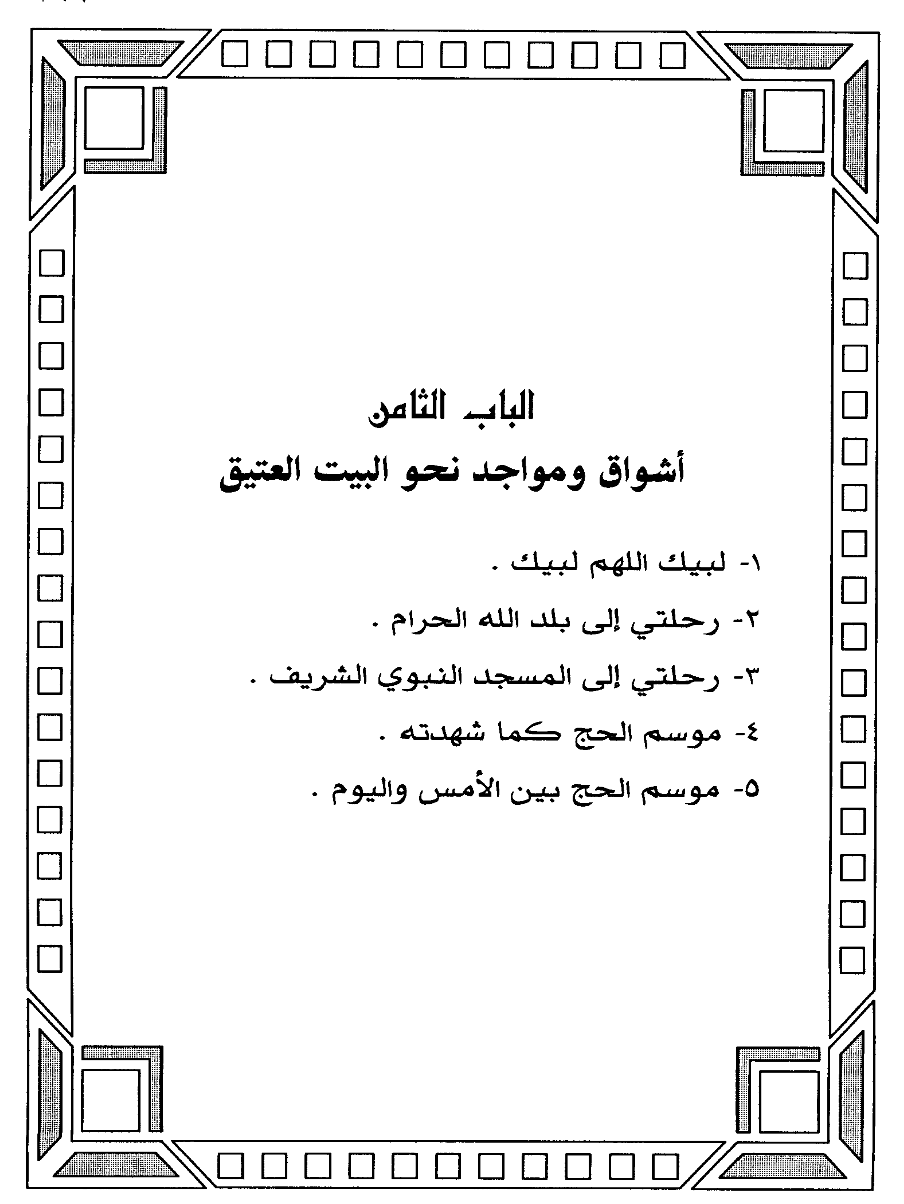
ثم اذهب من يومك إلى مكة ، وهو الأفضل لأنه الذي فعله رسول الله ﷺ ، وطاف بالبيت سبعة أشواط ، وهذا الطواف هو ما يسمى طواف الزيارة أو الإفاضة ، وهو ركن عند جميع الأئمة بالإجماع ، فإن كنت قدمت السعي قبل الخروج فلا سعي عليك ، وإلا فطف واسع بين الصفا والمروة ، وبعد ذلك يحل لك كل شيء حتى النساء ، ومن لم يستطع أن يذهب إلى مكة يوم النحر فليذهب في اليوم الثاني أو الثالث أو الرابع ولا حرج عليه في هذا .

إلى منى :

ثم عد إلى منى والبيات بها واجب عن الأئمة الثلاثة وسنة عند الإمام أبي حنيفة رحمه الله ، فمن لم يبت بها عنده فلا شيء عليه وإن كان هو الأفضل وفي اليوم الثاني من أيام النحر إذا زالت الشمس فارم الجمار الثلاث بادئًا بالتي تلي مسجد الخيف ، ثم بالتي تليها ، ثم بالتي تليها وهي جمرة العقبة ، وارم في كل جمرة سبع حصيات متوسطة ، مكبرًا الله مع كل حصاة وحامدًا الله ومثنيًا عليه ومصليًا على النبي ﷺ ، وداعيًا الله سبحانه وتعالى بما تحب من أمور الدنيا والآخرة ، فإذا كان اليوم الثالث من أيام النحر فارم الجمار الثلاث بالترتيب الذي اتبعته في اليوم الثاني بعد زوال الشمس .

ثم أنت بعد هذا بالخيار إما أن ترجع إلى مكة في اليوم الثالث ، وإما أن تبيت إلى اليوم الرابع فترمي الجمرات الثلاث وهو الأفضل ، وبذلك يكون قد تم حجك وأديت فريضة فرضها الله عليك ، ونسأل الله لنا ولك القبول والثواب ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وكل عام وأنت بخير أيها الحاج الكريم .

* * *



الباب الثامن

أشواق ومواجد نحو البيت العتيق

١- لبيك اللهم لبيك .

٢- رحلتي إلى بلد الله الحرام .

٣- رحلتي إلى المسجد النبوي الشريف .

٤- موسم الحج كما شهدته .

٥- موسم الحج بين الأمس واليوم .

(١)

لبيك اللهم لبيك[1]

« لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

بهذا النشيد الإلهي الحبيب إلى النفوس المؤمنة ، وبهذه الكلمات المشرقة العُذَاب التي هي رمز التوحيد والإيمان ، وعنوان الخضوع والإذعان ، والاعتراف بالجميل والإنعام ، يرفع الحجاج أصواتهم مسلمين وجوههم للّه ومقبلين عليه ، يحدوهم الرجاء في عفو الله ومغفرته ، ويحثهم الشوق إلى زيارة هاتيك البقاع المقدسة التي فيها الكعبة المشرفة أول بيت وضع للناس ، وزمزم العين الثرة المباركة ، ومقام إبراهيم عليه السلام الذي يشهد للّه بالقدرة والجلال ، ولإبراهيم بالإخلاص والامتثال .

وقد شاء المشرع الحكيم أن يكون الإهلال بالحج والعمرة بهذه الصيغة المأثورة ليكون إيذانًا من الحاج والمعتمر بنبذ الشرك وعبادة كل ما سوى الله من حجر أو شجر أو كوكب أو حيوان أو إنسان ، وتخصيص العبادة باللّه الواحد القهار ، وإقرارًا من المسلم بأن قصد بقاع شرفها الله ودعا لزيارتها على لسان أنبيائه ورسله ليس من الشرك ولا من الوثنية في شيء ، وإنما هو امتثال لأمر الله ، فهو الآمر الحكيم المتصرف كما يشاء .

فلا تعظيم إلا لما عظمه الله ، والحلال هو ما أحله الله والحرام هو ما حرمه الله ، وليسا بالعقل ولا بالتشهي واتباع الأهواء .

وفي رفع الصوت بهذا التوحيد الخالص إزالة لكل اشتباه ، واحتراس بالغ لأي إيهام قد يتطرق إلى بعض الأذهان ، وكأني بك أيها المسلم ترغب في معرفة صيغة ومعنى هذه التلبية التي يرفع أصواتهم بها الآلاف المؤلفة من المسلمين حين يقصدون إلى بيت الله الحرام محرمين بحج أو عمرة ، وإليك البيان :

« صيغة التلبية » : في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن تلبية رسول الله ﷺ كانت بهذه الصيغة : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد

---

(١) مجلة الأزهر ، ج ١٠، المجلد ٢٨.

والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » ، وهذا القدر هو الذي اتفق عليه البخاري ومسلم في صحيحيهما وكثير من أصحاب السنن المعتمدة ، لذلك رأى بعض الأئمة الاقتصار في التلبية على هذا القدر الذي اتفقت عليه غالب الروايات الثابتة ، وذهب البعض الآخر إلى جواز الزيادة ، وقالوا : لا بأس بها من غير استحباب أو كراهة ، واستدلوا بما روي عن بعض الصحابة من زيادتهم بعض العبارات على هذا ، فمن ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه بسنده عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه ، وفيه : « كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يهل بإهلال رسول الله ﷺ من هؤلاء الكلمات ، ويقول : لبيك اللهم لبيك ، لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، لبيك والرغباء إليك والعمل » .

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقتدي بأبيه الفاروق ويزيد هذه الزيادة ، ففي صحيح مسلم من رواية نافع عن عبد الله بن عمر أن تلبية رسول الله ﷺ : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

قال : وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يزيد فيها : « لبيك لبيك وسعديك ، والخير بيديك ، والرغباء إليك والعمل » . وقد وردت هذه الزيادة أيضًا في مسند الإمام أحمد ، ومما يشهد للزيادة أيضًا ما رواه النسائي وابن ماجه وابن حبان وصححه والحاكم عن أبي هريرة قال : « كان من تلبية رسول الله ﷺ : لبيك إله الحق لبيك » ، وروي أن أنسًا رضي الله عنه كان يزيد : « لبيك حقًّا حقًّا تعبدًا ورقًّا » . وهكذا نرى أن الزيادة على المتفق عليه من المأثور عن النبي أو الصحابة لا بأس منها .

معنى التلبية :

« لبيك اللهم لبيك » : لبيك مصدر مثنى ، وهو ما عليه إمام العربية سيبويه ، وتبعه على ذلك جماعة من أئمة اللغويين . والتثنية هنا غير حقيقية ، والمراد بهذا التعبير وما شاكله التكثير أو المبالغة في الإجابة ، ومثل هذا قولهم : حنانيك ، أي : تحننًا بعد تحنن . والمعنى : أجيبك يا ربي إجابة بعد إجابة ، وأسعى في طلب مرضاتك سعيًا بعد سعي ، وقيل في معنى هذه الفقرة : اتجاهي وقصدي إليك يا الله . وقيل : أنا مقيم على طاعتك ، لا أبرح عنها .

وقيل : إخلاصي لك[1] ، والأولى والأظهر : هو المعنى الأول ؛ لأن استعمال « لبيك » في الإجابة أمر معروف ، ولأن الملبي مجيب داعي الله سبحانه وتعالى ، وهو الخليل إبراهيم عليه السلام ، يوم أن فرغ من بناء الكعبة وأمره الله سبحانه أن يؤذن في الناس بالحج ، فقد روي عن ابن عباس بإسناد قوي قال : « لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت قيل له : « أذن في الناس » . قال : رب وما يبلغ صوتي ؟ قال : « أذن وعليّ البلاغ » . فنادى إبراهيم : « يا أيها الناس ، إن الله كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق » ، فسمعه مَنْ بين السماء والأرض ، ألا ترى أن الناس يجيبون من أقصى الأرض يلبون » . وفي رواية عنه : « فأجابوه بالتلبية في أصلاب الرجال وأرحام النساء »[2] .

وفي اختيار هذا اللفظ الدال على هذا المعنى الكريم تنبيه على تكريم الله سبحانه لعباده المستجيبين له وإشعارهم بأن وفودهم على بيته إنما كان باستدعاء منه ، فهم ضيوفه وزواره ، وحق على المضيف أن يكرم ضيوفه وزواره .

« لبيك لا شريك لك لبيك » إقرار بالوحدانية ، ونفي للشريك وما عسى أن يتوهم ، فنحن وإن كنا جئنا قاصدين تعظيم بيتك وأداء مناسكك ، فما عظمنا إلا ما أمرتنا بتعظيمه ، وقلوبنا عامرة بتوحيدك ، وألسنتنا لاهجة بنفي كل شريك لك ، وكيف لا وآثارك الدالة على وحدانيتك في الأنفس والآفاق متكاثرة ، وفي كل شيء لك آية تدل على أنك الواحد الأحد الفرد الصمد .

وكان أهل الجاهلية يلبسون الحق بالباطل ، وينقضون التوحيد بالإشراك فيقولون : « لبيك لا شريك لك ، إلا شريكًا هو لك ، ملكته وما ملك » فأبطل الإسلام هذه الزيادة الكافرة ، وأبقى الحق المأثور من لدن الخليل عليه السلام .

« إن الحمد والنعمة لك والملك » : روي لفظ « إن » بكسر الهمزة وفتحها ، فالكسر على أنه كلام مستأنف ، والفتح على أنه تعليل لما قبله ، والذي عليه جمهور العلماء

---

(١) في القاموس : ألب : أقام كلب . ومنه « لبيك » أي أنا مقيم على طاعتك إلبابًا بعد إلباب وإجابة بعد إجابة . أو معناه اتجاهي وقصدي لك . من داري تلب داره أي تواجهها أو معناه محبتي لك ، من امرأة لبة أي محبة ، أو معناه إخلاصي لك من حب لباب أي خالص .

(٢) الحديث رواه ابن أبي حاتم في تفسيره .

ترجيح الكسر ، لأنه يقتضي أن تكون الإجابة للّه سبحانه غير معللة بعلة ، وأن الحمد للّه على كل حال ، ولفظ « الملك » يجوز فيه النصب على العطف ، أو الرفع على أنه مبتدأ ، والخبر مقدر ، أي : والملك لك ، وكأن الحاج أو المعتمر يقول : إنا نجيبك يا ربنا ، ونسعى إليك ، وندوم على طاعتك وكيف لا ؛ وأنت لك الحمد في السماوات والأرضين ، ولك الحمد في الأولى والآخرة ، ولك الحمد ؛ لأنك متصف بكل كمال وجلال ، ولك الحمد ؛ لأنك مولى النعم ومعطيها ، وما من نعمة من النعم الظاهرة والباطنة والجليلة والعظيمة إلا وهي منك ، ومردها إليك ، ونعمك يا رب لا تعد ولا تحصى ، وكيف تحصى نعمك ؛ وما من إنسان يتنفس إلا ولك يا ربنا في كل نفس نعم ومنن ، وما من نعمة من نعمك إلا ولك فيها حق الشكر علينا ، ومهما شكرنا فنحن عاجزون عن الوفاء ، فكيف لا نَجِدُّ في السعي إليك ، ونرفع أصواتنا بتوحيدك والثناء عليك ، وأنت مالك الملك والمتصرف في الكون كما تشاء ، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، وما أجمل أن نكرر في هذا الموقف شعار التوحيد ، وأن تترطب ألسنتنا بقولنا : « لا شريك لك » .

« لبيك وسعديك » : أي إسعادًا لك بعد إسعاد ، ومسارعة في طاعتك وطلب رضاك بعد مسارعة .

« والخير بيديك » : فكل خير فهو منك ، وبتوفيقك وفضلك ، ومهما يكن من خير فمرده إليك ، وفي تعريف الخير بالألف واللام والاقتصار عليه في هذا المقام حسن وأي حسن .

« والرغباء إليك والعمل » : وروي الرغباء بفتح الراء والمد ، وبضم الراء والقصر . أي : الرُّغبى ، والمعنى : الضراعة والمسألة إنما هي إليك يا الله ، فأنت المقصود في الحوائج ، وأنت الحقيق بالإجابة ، وأنت المقصود بما نعمل من طاعات ، فتقبل منا أعمالنا ، وارحم ضراعتنا ، وأجب سؤلنا ، واغفر لنا ما قدمنا وما أخرنا ، إنك أنت الغفور الرحيم .

هذه هي التلبية وهذا هو معناها ، فعليك أيها المسلم أن تستشعر هذه المعاني وأنت تلبي رافعًا صوتك بها ، وأن تملأ قلبك بها ، فخير الذكر ما كان مفهوم المعنى نابعًا من أعماق القلب .

* * *

(٢)

رحلتي إلى بلد الله الحرام[1]

لقد شاء الله سبحانه وتعالى أن أقضي هذا الصيف في رحلات روحية ، أقوم فيها بحق الله وحق الإسلام علي وهي وإن كانت تحتاج إلى جهد ومشقة ، ولكني بعد حصول الغاية الشريفة التي هي طلبتي كثيرًا ما كنت أردد : عند الصباح يحمد القوم السرى[2] ، وقد يبدو هذا الكلام غريبًا ، فبحسب الإنسان في الصيف أن يقوم برحلة واحدة لا أن يقوم بثلاث والصيف عند الناس أو عند معظمهم ولاسيما أساتذة الجامعات ، والمعاهد ، والمدارس يعتبر فترة استجمام وراحة ، وتجديدًا لما فقد الإنسان من حيوية ، وتعويضًا لما بذل من جهد ونشاط طيلة العام الدراسي .

ولكني بذلت فيه في هذا العام جهدًا أرجو أن أجد جزاءه عند الله سبحانه ، فقد كان فرصة أتممت فيها القسم الأول من السيرة النبوية ، الذي يبدأ من الميلاد إلى الهجرة عدا مقدمات قدمتها بين يدي السيرة ، بينت فيها المنهج الذي أخذت نفسي به في تأليف هذه السيرة بقسميها ، وتاريخ الكتابة في السيرة من لدن العصر الأول إلى عصرنا هذا ، وطرفًا من تاريخ العرب قبل الإسلام ، والحضارات القديمة التي نشأت في الجزيرة العربية ، والديانات السماوية التي كانت بها ، وهي مقدمات لا بد منها لمن يؤلف في السيرة ، فهي كمدخل إليها .

أما الرحلات التي قمت بها فأولاها رحلة إلى غرب السودان بمديرية دارفور ألقيت فيها بضعة محاضرات في القرآن وعلومه والسنة وعلومها ، وقد أوفدتني إلى هذه البلاد التي تبعد عن الخرطوم بضع ساعات بالطائرة[3] الجامعة الإسلامية بأم دِرمان ، وقد زرت مدينة « الفاشر » عاصمة المديرية ، وبلدة « نبالا » من مدن هذه المديرية ، وقد كانت رحلة مباركة استفدت منها تعرفًا بهذه البلاد وأهلها الكرام ، وأفدتهم بما ألقيت من

---

(١) مجلة الحج – العدد ١٠ – السنة ٢٢.

(٢) السرى : السير ليلًا .

(٣) لعل من وجوه الشبه الجغرافية بين الجزيرة العربية والسودان أن كلًّا منها يكاد يكون قارة وحده وأن مساحتها متقاربة وأن بعض الجهات النائية فيهما لا يتيسر الوصول إليها إلا بالطائرة .

بحوث ، ومحاضرات ، ودروس ، أما الرحلة الثانية فهي رحلتي إلى مكة ، بلد الله الحرام حيث توجد الكعبة المشرفة ، ويوجد المسجد الحرام ، وما أحق المسجد الحرام بأن تشد إليه الرحال ؛ فهو أول بيت وضع للناس ، مشرفًا ومباركًا ، وأحد المساجد المشرفة الثلاثة التي تشد إليها الرحال ، وصدق الحق تبارك وتعالى حيث يقول : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران : ٩٦- ٩٧] ، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى » .

ولمكة في نفسي ذكريات عزيزة لا تنسى ، فقد قضيت بها مطلع حياتي العلمية والدراسية مدة أربع سنوات متوالية أو تزيد معارًا من الأزهر الشريف إلى المعهد العالي السعودي بمكة المكرمة ، وقد اشتركت مع إخوة كرام في وضع مناهج العلوم الدينية من تفسير وعلومه ، وحديث وعلومه ، للمعاهد والمدارس ، كما وضعنا اللبنات الأولى في تأسيس : « كلية الشريعة » بمكة المكرمة ، وقد أصبحت الكثرة الكاثرة من أبنائنا بالمعهد ، والكلية ، ومدرسة تحضير البعثات ، بيدها مقاليد الأمور في وزارة المعارف السعودية ، وغيرها من الوزارات والمصالح ، منهم من وصل إلى منصب الوزارة عن جدارة ، ومنهم من وصل إلى درجة وكالة الوزارة ، ومنهم من وصل إلى درجة الإدارة ، وصدق الرسول الكريم حيث قال : « كل ميسر لما خلق له »[1] ، وهكذا الحياة تتشعب بأبناء المعهد الواحد ، أو الكلية الواحدة إلى حيث تشاء الأقدار الأزلية ، وقد كانت مدة إقامتي بمكة المكرمة من أخصب أيام حياتي ، فقد كانت مستهل حياتي العلمية والدراسية ، كما كانت وقت اكتمال الشباب وأنا غض الإهاب ، قوي ، وأذكر أننا سكنا في جبل الهندي أو سمّه « قعيقعان » إن شئت ، وكنت مع بعض الزملاء حريصين على أداء الصلوات كلها في المسجد الحرام ، وكان متوسط نزولنا وصعودنا مرتين أو ثلاثًا ، وكنا نتسابق في هذا ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين : ٢٦] ، وما أذكر أني تخلفت في هذه السنوات أنا وزميلي عن هذا الحرم ، وبالتحديد عند مقام

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم .

« الحنفي »[١] من العصر إلى ما بعد العشاء، إلا إذا كانت ضرورة ملحة.

وفي هذه الفترة المباركة – ولله الحمد والمنة – وضعت أساس بعض الكتب التي ألفتها، وكتبت مئات الصحائف، وعشرات المقالات، والأحاديث الإذاعية من إذاعة « جدة »، وقد صاحبت مجلة « الحج »، وهي مولود ظهر إلى الوجود، ثم وهي طفل يحبو، ثم وهي في دور الشباب، ثم وهي في فترة الاكتمال إلى وقتنا هذا.

ثم انتهى بي الأمر إلى أن أصبح البحث والقراءة والتأليف والكتابة والتنقيب والتمحيص هواية، ولا أكتمك يا قارئي الكريم أني قد أطيل الجلوس في البحث أو الكتابة إلى بضع ساعات متواصلة، وفي بعض ليالي الشتاء الطويلة في القاهرة وقد نام الكل، وخشعت الأصوات، وغفا الكون قد لا أتنبه إلا والمؤذن يقول في الفجر: الله أكبر، وكانت الوالدة –رحمها الله وأسكنها فسيح جناته– لا تفتر عن الذهاب والمجيء إلى حجرة الكتب تحضني على النوم، وكانت تقول بطيبة قلبها وصفاء نفسها: أنا كنت أظن أنك وقد أخذت الشهادة الكبيرة أنك استرحت، ولكنك تتعب أكثر من الأول، فكنت أرد عليها قائلًا: إن الشهادة الكبيرة هي أولى درجات السلم، حتى أصل إلى السطح، فلا تملك إلا الدعاء لي بالوصول إلى القمة.

وفي بعض الأحيان في الصيف أعزم على أن لا أفتح كتابًا، وعلى الخلود إلى الراحة، والنوم ملء جفني مدة، ويأخذ علي أهلي وولدي العهد على هذا، فإذا بهم يفاجئون بعد يوم أو يومين أني أجلس مستخفيًا منهم أقرأ أو أكتب، وأخيرًا تركوني لشأني.

هذه صورة –ورب الكعبة– صادقة ما أردت بها تفاخرًا أو تباهيًا، أو محمدة وثناء من الخلق، ولكني أردت أن أكون نبراسًا للشباب اليوم، وعبرة لكل من يحصل على شهادة أن يعتبرها أول سلم، ومقال السلم هذا أصبح أمرًا معروفًا في وصاتي[٢] للمتخرجين من الكليات والمعاهد، والدراسات العالية من أقاربي، وأبنائي، ومعارفي،

---

(١) مقام الحنفي: هو مكان أُعد لطلبة الأحناف ومحاضريهم كغيرهم من أصحاب المذاهب، وليس هو قبر كما يظن البعض، فليس في الحرم قبر. [الناشر].

(٢) في « لسان العرب »: الوَصَاة؛ كالوَصِيَّة. [الناشر].

حتى إن بعضهم إذا قابلني يقول : لا زلنا عند درجات السلم !! والحياة ليست مناصب أو جاهًا ، أو متعًا زائلة ، وإنما هي خلود وبقاء ، ولن يخلّد الإنسان مثل آثاره ومؤلفاته ، وكونه صاحب مذهب ورسالة في الحياة ، وصدق الشاعر الحكيم :

والذكرُ للإنسانِ عُمْـرٌ ثانِ

فلا تعجب -أيها القارئ الكريم- إذا كنت دائم الحنين إلى بلد الله الحرام ، كي أقضي حاجات النفس المشوقة ، وأسترجع الذكريات الماضية ، وها أنا ذا عدت بعد سبعة عشر عامًا معتمرًا ، عمر يصيِّر الغلام رجلًا ، والكهل شيخًا ، فماذا كان مني ؟ وماذا كان من مكة ؟ ومن البيت الحرام ؟ إليك حديث صدق عن أحاسيسي النفسية ، وما أثارته الزيارة من ذكريات ، وما تركته من انطباعات في نفسي ، وهي اليوم مقال ، ولكنها غدًا -إن شاء الله- ستكون فصلًا من كتاب حينما أستوفي رحلاتي إلى البلاد الإسلامية والعربية إذا أذن الله تعالى .

« في جدة » : ووصلت الطائرة التي نهبت الأرض نهبًا ، وذكرتني ببساط سليمان عليه الصلاة والسلام ، لقد كنت الغداة بالخرطوم ، وها أنا ذا ولما يحن الزوال قد وصلت إلى جدة ، وقد أعطاني المطار فكرة عن التقدم العمراني بالمملكة ، فعهدي به معظم طرقه رملية ، مسوَّاة غير مسفلتة ، وها هو يضارع أعظم المطارات في الشرق ، ولم تأخذ الإجراءات -والحق يقال- إلا بضع دقائق ، وجئت للتفتيش بالجمارك ، ولم يكن معي شيء يستحق المؤاخذة ، ولكن الموظف لمح معي بضع نسخ من مؤلفاتي فاحتجزها عنده ، وحاولت إقناعه فلم يفد ، وقال : لا بد من فحص موظف الإعلام لها ، فقلت له : مرحبًا ولكن أين مندوب الإعلام ؟ فقال : انتظر حتى يجيء ، وما كان يدور بخلدي قط أن كتبي تمنع ، فهي من صميم الإسلام ، وفي سبيل الإسلام ! ، ولكل دولة أن تأخذ من الإجراءات ما يكفل لها أمنها ونظامها الديني والتشريعي والاجتماعي ، لكن ما ذنب القادم إلى البلاد المقدسة أن يتعطل ولو بعض الوقت حتى يحضر الموظف المختص ؟ !

وتركت الكتب ونزلت على عالم الحجاز ورجل جدة فضيلة الشيخ محمد نصيف -مد الله في عمره ، وأبقى بابه مفتوحًا على مصراعيه- وكان الرجل كريمًا في لقائه

كريمًا في ضيافته، عذبًا في حديثه، فعلى الرغم من شيخوخته الموقرة لم يفتر عن الحديث معي، ولم نفترق في اليوم والليلة التي قضيتها عنده إلا ساعة النوم، ولقد أحسست في نفسي أن الشيخ الجليل قد عاد إليه نشاط الشباب، ودب فيه دبيب القوة، وأنه الذي عهدته من منذ عشرين عامًا، فصار يتنقل بي من الردهة إلى الشرفة، ومن الشرفة إلى المكتبة، وقد ازددت له سرورًا بهذا النشاط، وقد فاتني أن أذكر أني بعدما استرحت أرسل الشيخ الجليل من أحضر لنا الكتب من المطار، وشيء آخر فاتني يستحق التسجيل، ذلك أني قد نسيت عَيْبَة[1] يدي التي أضع فيها أوراقي الخاصة وبعض مذكراتي، وجواز سفري، وهويتي إلى غير ذلك بالسيارة التي ركبتها من المطار إلى المنزل، ولا أكتمك يا قارئي أني أسفت ولا سيما على جواز سفري الذي هو تكئتي في رحلتي، وسفري، ولكني كنت متفائلًا لما أعلمه من الأمان والأمانة في هذه البلاد، فأرسل الشيخ الوقور من يبحث عن السيارة وسائقها، وسار على غير هدى في كل الطريق، ولكن السائق الأمين كان أسبق منه فأحضرها إلى المنزل العامر ومضى لسبيله من غير أن ينتظر شيئًا ولو كلمة شكر!!

« في مكة »، وفي اليوم التالي لقدومي حضر إلي الأستاذ محمد سعيد العامودي، رئيس تحرير هذه المجلة، وهو صديق قديم، وأحر به أن يكون صديقًا صدوقًا، فاصطحبني إلى مكة المكرمة، وفي الطريق تذاكرنا، وتحادثنا حديث الود والأخوة الصادقة، ورأيت مظاهر العمران والتقدم بادية للعيان، وما أن وصلنا مكة حتى ظننت أن السائق ضل الطريق، وفي الحق أنه ما أضل ولكن مظاهر العمران والحضارة والتقدم قد أخذت منها بلد الله بحظ عظيم، وقد خُيِّل إلي وأنا أسير في شوارع مكة التي تحف بها الأشجار من جانبيها أني أسير في شوارع القاهرة، أو دمشق أو بغداد، أو الخرطوم، طرق نظيفة مسفلتة، وعمارات شاهقة تزيد عن العشر الطوابق، ومنازل خاصة تزينها الحدائق والزهور، ومؤثثة بفائق الرياش، والأسرة، والستائر، والزرابي المبثوثة، ووسائل التهوية، وهكذا نَعِمَ أهلُ مكة وقُصَّادُها من كل فج عميق، ومن كل قطر ومصر بمظاهر الحضارة، ووسائل الراحة، ولا أدري أكان من الخير أن تبقى كما كانت، أم من الخير

---

(١) العَيْبَة: وعاء من أَدَمٍ، يكون فيها المتاع، والجمع عِياب وعِيَب. « لسان العرب ». [الناشر].

أن تصير إلى ما هي عليه ؟ ! العلم عند الله تعالى ، ولكن الذي لا شك فيه أن الإسلام لا يحرم اتخاذ الزينة والتمتع بالحلالات الطيبات ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف : ٣٢] ، وأنه يبيح الأخذ بمظاهر الحضارة ووسائلها في المسكن ، والمركب ، والمأكل ، والمشرب ، ولكن من غير إسراف ، ومن غير أن يكون ذلك على حساب ديننا وعروبتنا ، وأخلاقنا الإسلامية ، وتقاليدنا العربية الكريمة ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف : ٣١] ، ومن غير أن يلهينا ذلك عن الأخذ بأسباب القوة ، وإعداد العدة ، وأخذ الأهبة للأعداء حسبما قال تعالى : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٦٠].

إن التوسع في هذه المباحات والاشتغال بها عن هذا الواجب المقدس يعتبر كبيرة من الكبائر ، وأنا –والله– أفضل أن نلبس النعال المخصوفة ، والثياب المرقعة ، ونتغذى بالتمر والماء ، ونركب الإبل والخيل والبغال والحمير ، كما كان يفعل آباؤنا وتكون لنا العزة في الأرض كما كانت لهم ، وأن نكون مرهوبي الجانب كما كانوا ، وحتى تهاوت تحت أقدامهم المملكتان اللتان كانتا تقتسمان العالم آنئذ : فارس والروم !!وأن لا تنتقص دويلة مصطنعة كإسرائيل من أطراف بلاد العرب والإسلام اليوم !! وما أظن أحدًا من المسلمين والعرب يجادلني في هذه القضية أبدًا ، نسأل الله سبحانه أن يحقق لنا النصر ونسترد ما فقدناه من بلادنا في حرب يونيه المشئومة ، وأن نقضي على هذا السرطان المهلك في جسم الوطن العربي ، وتعود الأرض المغتصبة إلى أهلها .

« **في المسجد الحرام** » ثم ذهبت إلى المسجد لأقضي عمرتي ، وأتحلل من إحرامي فطفت حول البيت وصليت الركعتين ، وسعيت بين الصفا والمروة ثم قَصَّرْتُ وبذلك تحللت ، وقد تَضَلَّعْتُ من زمزم ، كل ذلك وأنا بالمسجد ، لم أخلع نعلًا ، ولم يشوش عليَّ صخب الباعة والمارة في طريق السعي كما كان الأمر أولًا فقد أضحى المسعى في جانب الحرم والسعي في الحرم ، وإن هذه العمارة والتوسعة الأخيرة لتعتبر من غير شك ومراء أعظم العمارات وأوفاها بالغرض ، وأبقاها على الزمان ، وقد أنافت

على كل إصلاح سبق وعلى كل توسعة كانت ، نسأل الله سبحانه أن تكون في موازين جلالة مليك هذه البلاد : وأن يثيبه عليها ، وكل من ساهم بفكر ، أو عمل ، أو جهد ، وإذا كان لكل قرن مفخرة فمفخرة القرن الرابع عشر الهجري لهي توسعة الحرمين الشريفين ، وصدق القائل :

تلك المفاخرُ لا قعبانَ من لبنٍ شيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

وقد أحسن القائمون على هذا العمل الجليل المذكور المشكور في الحفاظ على المعالم القديمة وهي وإن كانت بدت كالقزم بجانب العملاق ، إلا أنها رمز لعمل مشكور قام به الأسلاف على قدر جهدهم وطاقتهم ، وإمكانيات عصورهم ، غفر الله للجميع وأثابهم ، هذا إلى ما فيه من الاقتصاد في النفقة الذي دعا إليه الإسلام ، وعدم الإسراف والتبذير الذيْنِ نهي عنهما ، فلله هذا العمل الجليل .

« **مقامي بمكة شرفها الله** » وقد وصلت إلى مكة يوم الأحد ليوم بقي من صفر ، وقد أقمت بها بضعة أيام ، مرت كطيف الخيال ، وقد رغبت إلى الأستاذ صاحب الفضل والفواضل العامودي أن أنزل بفندق بجانب الحرم كي أشبع نفسي في هذه الأيام القلائل فأبى إلا أن أنزل ضيفًا عليه بمنزله العامر الزاهر الأنيق كأناقة صاحبه بضاحية من ضواحي مكة ، وأرجو أن لا يجد في هذا حرجًا ، فقد قال معلم الناس الخير والأدب الرفيع : « من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه عليه ، فإن لم تقدروا فادعوا له بخير »[1] . أو كما قال . « ولا يشكر الله من لم يشكر الناس »[2] .

وقد كان داره منتدى لبعض إخواني وأبنائي الذين علموا بوجودي بمكة يقابلهم بما عهد فيه من رقة شمائل ، وكرم ضيافة ، وشكر الله للقائمين على صحيفة « المدينة » ، فقد نشروا عني خبرًا وتعريفًا موجزًا ، ولولاه لما علم بي إلا عدد أقل من القليل ، وشكر الله للسيد الأديب الأستاذ محسن باروم فقد كان أول من رأى خبر « المدينة » ، وهرع إليَّ وللأديب الكبير الأستاذ عبد القدوس الأنصاري صاحب « المنهل » العذب ، فقد شرفنا وزارنا واستضافنا بمصطافه الجميل على ساحل البحر الأحمر بجدة وقضينا

---

(١) الحديث رواه أبو داود والنسائي وأحمد .

(٢) الحديث رواه أبو داود والترمذي وأحمد وغيرهم .

فيها أمسية الخميس الثالث من ربيع الأول سنة ١٣٨٨هـ . وشكر الله لكل من زارني من أبنائي الذين أصبح أغلبهم في مناصب مرموقة ، واعتذر عمن لم أرهم منهم فقد كثرت مشاغل الحياة وصوارفها ، وبعضهم - كما قيل لي - في غير مكة ، وبعضهم قد لا يعلم بوجودي بمكة ، وكنت أحب أن أقابل إخواننا العلماء الذين يشتغلون بالتدريس بالحرم الشريف ، وقد طفت بالحرم غير مرة فلم أعثر على أحد منهم أعرفه ، وقد آلمني أن حلقات الدرس والعلم بالحرم المكي الشريف قد قلت ، وأرجو أن تعود جذعة كما كانت ، وقد عادت بي الذاكرة إلى أيام أن كنت أقوم بالتدريس بكلية الشريعة والمعهد العالي السعودي بمكة ، فقد سعى الشيخ الجليل محمد بن مانع - رحمه الله رحمة واسعة - أن تعقد لنا دروس بالمسجد الحرام وكان قد استقدم بعض الوعاظ من مصر لهذا الغرض ، وكنت الوحيد من الأساتذة الذي وقع عليه اختيار الشيخ لأشارك في إلقاء الدروس - على ما أذكر - وقد آثرت أبانها أن لا يكون مسلكي في دروسي وعظيًا صرفًا فحاضرت طيلة المدة في موضوع « إعجاز القرآن » لأني كنت أعلم أن الكثيرين ممن يحضرون الدرس قد تستهويهم الموضوعات العلمية أكثر من الطريقة الوعظية ، وقد كانت هذه المحاضرات نواة لما كتبته بعد في مجلة « الحج » تحت هذا العنوان ، والأساس للكتاب الذي سيظهر إن شاء الله تعالى بعنوان « إعجاز القرآن » ، وعسى أن يهيء الله لي فرصة أتمم فيها ما بقي منه من فصول ثلاثة .

هذا وفي يوم الجمعة بعد الصلاة والغذاء شددنا الرحل إلى المسجد النبوي ، فإلى المقال الآتي إن شاء الله .

* * *

(٣)

رحلتي إلى المسجد النبوي الشريف[1]

الخروج من مكة المكرمة :

وكان ذلك يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول لعام ثمان وثمانين وثلاثمائة بعد الألف ، وبعد أن صليت الجمعة ثم العصر بالمسجد الحرام ، شددنا الرحل إلى المسجد النبوي الشريف ، ولم تكن راحلتنا بعيرًا أو ناقة ، وإنما كانت سيارة فسيحة مريحة فخمة ، وسلكنا الطريق الذي لا يمر « بجدة » ، وإنما الطريق الذي يمر « بالتنعيم » ، ثم وادي فاطمة ، ثم « خليص » في منتهى وادي عسفان ، ثم « القضيمة » ، ثم « رابغ » ، ثم « مستورة » ، ثم « بدر » ، ثم « وادي الصفراء » ، ثم « المسيجيد » ، ثم « الفريش » ، ثم « ذو الحليفة » ، وكان معي بالسيارة رجل فاضل أخبرني بأنه مدرس بمدرسة القراءات بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم ، وهو الذي دلني على هذه الأماكن والقرى التي مررنا بها ، وكتبتها عنه في مذكراتي التي أحتفظ بها ، فالعهدة عليه ، وكم كنت أود من بعض إخواننا أبناء شبه الجزيرة ولاسيما الحجازيين أن يقوم بتحقيق الأماكن التي يرد ذكرها – وما أكثرها وأجل ذكراها –في السيرة ومغازي رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ويبين لنا ما بقي ، وما اندثر ، وأبعادها بالدقة من مكة والمدينة ، وقد أصبح ذلك ميسرًا بحمد الله بعد إنشاء هذا الطريق الذي ضبطت فيه المسافات بالكيلو متر ، والطريق الآخر الذي يمر بجدة ، ثم يلتقي مع هذا عند « رابغ » التي تسامت « الجحفة » التي اندثرت والتي هي ميقات المصريين والشاميين ، ومن يمر عليها من أبناء البلاد الأخرى .

ولما مررنا بـ« التنعيم » وجدت عندها مسجدًا ، وعنده نُصُبَان علامة على حد الحرم الشمالي ، وتذكرت أن النبي ﷺ أمر السيدة عائشة رضي الله عنها أن تذهب بصحبة أخيها عبد الرحمن بن أبي بكر إلى التنعيم ليعمرها ، لأنها لم تتمكن عند القدوم من أداء العمرة بسبب حيضتها ، وكان ذلك عام حجة الوداع .

---

(١) مجلة الحج ، العدد ١١، السنة ٢٢.

ومررنا بوادي فاطمة ، ولكن من بعد ، وهو الوادي الخصب الممرع الذي تجلب « لمكة » من خيراته وخضره الكثير ، ومررنا ببدر ، ولكن كان بعد الغروب ، وقد أشار لي صاحبي إلى العدوة الدنيا ، والعدوة القصوى ، والحقيقة أني لم أتبين شيئًا ، وكم كنت أود أن يكون هذا نهارًا ، وننتظر بها ساعة لنرى مواقع الجيشين ، ونأخذ فكرة ولو مصغرة عن سير المعركة ، ولكن أنى لنا هذا ، والسائق ينهب الأرض نهبًا ليصل إلى المدينة مسرعًا ، إن هذا يحتاج إلى سيارة خاصة ، يسير بها الإنسان حيث يريد السير ، ويقف حيث يريد الوقوف ، وأن يكون ذلك في فصل الشتاء ، حيث تساعد برودة الجو على ارتياد هذه الأماكن ذات الذكريات العزيزة ، وعلى المقام بعض الوقت فيها ، لقد أهاجت بدر في نفسي الذكريات ، ذكرى الثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ، الذين كانوا خرجوا على غير استعداد كامل للحرب يريدون العير[1] ، فإذا العير تفلت ، ويأبى الله إلا أن يكون لقاء النفير -جيش المشركين- ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا ، وليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حي عن بينة ، وليحق الحق ويبطل الباطل ، ولو كره المشركون .

وكيف تمكن هؤلاء المئات على قلة في الظهر ، إذ لم يكن معهم إلا سبعون بعيرًا يعتقبونها[2] ، وفرسان ، أحدهما للزبير بن العوام ، والآخر للمقداد بن عمرو المشهور بابن الأسود ، وكيف كان كل ثلاثة يعتقبون بعيرًا ، وكانت نوبة رسول الله ﷺ مع علي وأبي لبابة ، ثم لما رد أبا لبابة إلى المدينة صار ثالثهم مرثد بن أبي مرثد الغنوي ، وأنهما عرضا على النبي لما جاءت نوبة مشيه أن يمشيا عنه ويستمر في الركوب فقال هذه الكلمة : « ما أنتما بأقوى مني ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما » ، وهكذا ضرب النبي المثل الأعلى للقائد الحربي في عدله ورحمته !!

وتذكرت استشارة النبي صلوات الله عليه لأصحابه لما خرجت قريش بخيلها وخيلائها ، ورجلها وقيانها ، وترجح جانب القتال وقوله لهم : « أشيروا علي أيها الناس ، وقام أبو بكر فتكلم وأحسن الكلام ، وقام عمر فتكلم وأحسن الكلام ، وقام المقداد

---

(١) الإبل التي كانت تحمل التجارة لقريش آتية من الشام .

(٢) في « لسان العرب » : اعْتَقَبْتُ فلانًا من الركوب ؛ أي نزلتُ فركب وأعقبتُ الرجل ، وعاقبته في الراحلة ؛ إذا ركب عُقْبَةً وركبتُ عُقْبَةً . [الناشر] .

فقال : يا رسول الله امض لما أمرك الله ، فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : ﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] ، ولكنا نقول : « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون » ، وفي رواية : « ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك ، ومن بين يديك ، ومن خلفك ، فوالله لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه » ، فدعا له الرسول وقال خيرًا ، وتكلم متكلم الأنصار سعد بن معاذ فتكلم كلام الوفاء بالعهد ، والصدق عند اللقاء ، وكان مما قال : « فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد » !! كلام مؤمن صادق ، لا تزويق فيه ولا تزوير ، وإنما هو الحقيقة التي لم يلبث اللقاء بعد قليل أن أيدها وصدقها .

لقد وقفت عند هذه المقارنة الصادقة التي لهج بها السيد البطل المقداد وبَيَّنَ معدن العرب الأصيل النفيس ، وبين معدن اليهود الخسيس ، وكنت في شبه غيبوبة عمن حولي ، وعما حولي إلا من هذه الذكريات ، ويقفز بي الخاطر قفزة سريعة إلى حاضرنا المؤسف المؤلم اليوم !! وهل يا ترى لا زلنا نحن معاشر المسلمين والعرب كما قال السيد المقداد تضحية وفداء ، وعدم نكوص عن الحرب مهما كانت قوة العدو الحربية ؟ ولا زال اليهود يقولون لقادتهم ورؤسائهم كما قال بنو إسرائيل لموسى ؟ أم أن الأمر قد تغير وتبدل وانعكست الآية ؟ !! أدع الجواب للقارئ ليذهب فيه أي مذهب .

إن من المؤسف المحزن أن بضعة ملايين من اليهود الصهاينة يكون عندهم من العزم والتصميم على القتال ، ما لا يكون عند مائة مليون من العرب ، وإن شئت فقل عند خمسمائة مليون من المسلمين ، وكان آخر ما قرأت من تصريح لبعض المسئولين أن تنسحب الدول العربية من هيئة الأمم ، وماذا يجدي يا أخي الانسحاب ، كنت أحب من هذا المسئول أن يقترح على دولته أن ترسل إلى ميدان القتال ، بضع عشرات من الطائرات ، وبضع مئات من الدبابات والعربات المصفحة ، وبضعة آلاف أو تزيد من خيرة الجنود المدربين تدريبًا حربيًا عصريًا الذين يحبون الموت أكثر من حبهم للحياة ، ويرون في الشهادة في سبيل الله والوطن أغلى الأماني وأسماها ، وكذلك تفعل كل دولة عربية ، بل وكل دولة إسلامية ، وحينئذ سيكون النصر مكفولًا بإذن الله مهما كان وراء

العدو الخبيث الماكر من قوى الشر والعدوان .

وبينما أنا في غفوة تفكيري صحوت على قول صاحبي : ها هي ذو الحليفة ، وها نحن قد قاربنا المدينة المنورة ، وأفرغت نفسي من كل أمور الدنيا مهما جلت ، وبدأت أفكر ماذا أصنع حينما أدخل المدينة ، وماذا سيكون موقفي عند اللقاء !! والوقوف بين يدي الحبيب الذي حبه إيمان ودين ، وتفديته بالنفس والنفيس واجب مقدس ، وبدأ الدمع يتساقط في خفية من ظلام الليل ، وكففت عن الكلام إلا عن الصلاة والسلام على النبي المصطفى في السر خشية أن تخنقني العبرات ، ويحتبس الكلام في الحلق ، ووصلنا إلى المدينة ، وكان ذلك بعد هزيع من الليل ، في مساء هذا اليوم الجمعة ، فوجدنا المسجد مغلق الأبواب ، ولكن الأبواب ما كانت لتحجب النفحات الإلهية القدسية ، والأنوار المحمدية النبوية من هذا المكان الطاهر ، وتلك البقعة المشرفة ، وقلت : أهذا هو المسجد النبوي ؟ ! وهذه هي المدينة ؟ ! فقلت : سبحان الله ، مقلب القلوب ، ومغير الأمور !!

وقد استغرقت هذه الرحلة المباركة ما يقرب من ست ساعات بما فيها الاستراحة في الطريق ، فقلت يا عجبا ، رحلة كنا نقضي فيها يومين ، وبعض اليوم ، تستغرق بضع ساعات !! ألا رعى الله من فكر ومن أنفق ، ومن نفذ .

ونزلت بفندق « بهاء الدين » على بضعة أمتار من باب المسجد النبوي ، وهو مؤثث ومجهز تجهيزًا حسنًا ، ومكيف ، يجد فيه المقيم كل وسائل الراحة والاستقرار ، وقد قابلني القائمون بكل تجلة ، وتكريم ، ولاسيما بعد أن عرفوا هويتي وأني الكاتب الملازم للمجلة الزهراء ، « مجلة الحج » من لدن نشأتها إلى وقتنا ، وقد أصبحت الفنادق تحيط بالحرم ، وقد أغنت القادم من طرق الأبواب ، ولاسيما بالليل حتى يجد مكانًا ينزل فيه ، فشكرًا للّه على هذا ، ولكني أوصي أصحاب الفنادق أن لا يغالوا في الأجر تكرمة لهذا الجوار الكريم ، جوار رسول الله ﷺ ، ورفقًا برواد المسجد النبوي -وما أكثرهم- ، وفيهم المستطيع وغير المستطيع ، وليكن ذلك بوازع من أنفسهم ، وليدخروا شيئًا من هذا ليكون لهم عند الله يوم القيامة ، فهل هم مستجيبون ؟ !!

في صبيحة السبت : وقبيل الفجر من يوم السبت قمت بعد نوم هادئ ، فاغتسلت

وتوضأت وذهبت إلى الصلاة ، وبعد الصلاة ذهبت مقابل الرسول ﷺ ، وسلمت عليه ، وفي هذه اللحظات التي تعتبر من لحظات العمر المعدودة ، غبت عن الزمان والمكان ، وصرت أخاطب رسول الله ﷺ بما مَنَّ الله به عليه من خصائص وفضائل ، ومنازل ودرجات ، وتأدية الأمانة وتبليغ الرسالة ، وكل ما ذكرت إما من قرآن ، أو حديث صحيح ، أو سيرة مشهورة ، ومن غير إرادة مني أجهشت بالبكاء حتى تحشرجت الكلمات في صدري ، وعرضت بغربة الإسلام الآن ، ثم قلت : لا تزال طائفة من أمتك يا رسول الله قائمة على الحق ، وعلى تأدية رسالتك حتى يأتي أمر الله !! ثم سلمت على شيخ الإسلام ، وصديق هذه الأمة ، وثاني اثنين إذ هما في الغار أبي بكر رضي الله تعالى عنه ، ثم سلمت على الوزير الثاني ، وثاني الخلفاء ، وصاحب الموافقات ، والفارق بين الحق والباطل ، الفاروق عمر رضي الله عنه ، ثم ذهبت وأنا أجفف الدمع ، فدعوت الله لي ولأهلي ولولدي وللمسلمين ، والمسلمات بما فتح الله به علي ، ألا ما أحلاها من سويعات ، وما أعذبها من أمان تحققت أدعو الله لكل مسلم ومسلمة أن يحظى بها .

« وبعد » .. فقد بقي ملاحظات لي على الرحلات الثلاث ، ومشاهدات لي ، ولقاءات لم أعرض لها ، فإلى المقال الآتي إن شاء الله تعالى ..

***

(٤)

موسم الحج كما شهدته[1]

ما هذه الآلاف المؤلفة التي تسيل بها شعاب مكة المكرمة من كل صوب وفج وقد تجردت من زينة الدنيا إلا من إزار ورداء؟

وما هذه القلوب الوجلة التي ترفع الصوت عاليًا بالتهليل والتكبير، فتلتقي أصداء تلبيتها بتسبيح الملائكة الأطهار؟

وما هذه الألسن الرطبة بالذكر التي تجأر بالدعاء وتستمطر رحمات رب الأرض والسماء؟

وما هذه العبرات الغزار والدموع المدرار التي تسكب حول البيت العتيق وفي المطاف، وفي المشاهد المقدسة؟ فتخضل منها اللحى ويبل منها الثرى، وتنجلي منها العيون، وتطمئن بها القلوب؟

ألا إنها جموع المسلمين من كل صقع وقطر جاءت لتقضي أصلًا من أصول دينها وتؤدي فرضًا لازمًا عليها، وتشهد منافع لها، وقد نبذت زخارف دنياها وتمثلت أمر أخراها، استجابة لأمر ربها، ورسوله، ولنداء الخليل إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم، يوم فرغ من بناء البيت وخرج على أبي قبيس ونادى في الناس بالحج فاستجاب له كل من كتب الله سبحانه له الحج إلى يوم القيامة، لبيك اللهم لبيك، وصدق الله ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ۝٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ۝٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٧- ٢٨].

إلا أنها القلوب المتعطشة إلى رضوان ربها، تشهد بوحدانية خالق الأرض والسماء، وأنه الحقيق بالحمد والثناء جاءت نابذة لكل شرك تائبة من كل ذنب، تغسل الحوبة بالدموع وصدأ المعاصي بالاستغفار والخشوع، وتجأر إليه بالدعاء، لأنها تعتقد أنه لا

(١) مجلة الحج، العدد السابع، والثامن، السنة الثالثة، محرم، صفر، ١٣٦٩هـ، نوفمبر- ديسمبر سنة ١٩٤٩م.

يقدر على الغفران إلا هو ، وتستمطره الرحمات لأن رحمته وسعت كل شيء ، وأحق الناس بها التائبون المستغفرون ، وصدق رسول الله ﷺ حيث يقول : « من حج فلم يرفث ، ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه »(١) ، إي وربي إنها لمشاهد تثير كوامن النفوس وتأخذ بمجامع القلوب وتجدد الذكر ، وتحقق العبر ، مشهدهم في القدوم ، ومشهدهم في الطواف والسعي ، ومشهدهم في عرفات والمزدلفة ومنى ، وعند رمي الجمرات ، فلا عجب أن جاء في الحديث الشريف أن الله سبحانه يباهي بحجاج بيته الملائكة الأطهار فيقول : « هؤلاء عبادي جاءوني شعثًا غبرًا يرجون رحمتي ويخافون عذابي ، ولم يروني فكيف لو رأوني »(٢) ، اجلس معي حول البيت ساعة وتأمل في المطاف وما يموج به من أصناف الخلق فإنك -لا شك- ستجد العجب العجاب .

ها هو ذا شيخ هرم بلغ من الكبر عتيًا يأبى إلا أن يطوف حول البيت صباح مساء ، وها هي ذي عجوز مسنة تأبى إلا أن تصل إلى الحجر الأسود لتقبله ، ولا تزال تغالب وتجاهد حتى تصل إلى غايتها ، وقد بقيت منها صبابة من نفس ، وها هو مقعد يزحف على يديه ورجليه ، وها هو مفلوج يجر نفسه في المطاف جرًا وكل راض بما يصنع قرير العين بما يلاقي من نصب وتعب ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على العقيدة القوية الكامنة في قلب المسلم تسيطر على النفوس ، تستهين بكل شيء في سبيل غايتها والحصول على رضاء ربها .

ولا يظن ظان أن ذلك شيء يكون في موسم الحج فقط ، فمن عجائب صنع الله أن لا يخلو المسجد الحرام طوال العام من طائف ، أو راكع أو عاكف ، ففي أي وقت ذهبت إلى المسجد الحرام في صيف أو شتاء في ليل أو نهار في حر أو قر إلا ولابد أن تجد من يطوف حول البيت وهذا شيء عَايَنَّاهُ بمجاورتنا البيت العتيق ، وهل هذا إلا مصداق قول الله عز وجل : ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج : ٢٦] ، ومن المحاسن التي شاهدتها أني قابلت كثيرًا من المسلمين ممن لا يجيدون اللغة العربية فإذا به يقرأ القرآن الكريم قراءة عربية صحيحة سليمة مستوفية

---

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم .

(٢) الحديث رواه عبد الرزاق في مصنفه .

لشروط الأداء فقلت : يا سبحان الله إن هذا سر من أسرار كتابك الكريم ، وصدق الله : ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر : ١٧] ، فقد يسر الله حفظه على الألسنة كما يسر فهمه على العقول ، ولأمر ما أوجب الله حفظ القرآن وأداء الصلاة بلفظه العربي الفصيح ليكون ذلك من أسباب نشر اللغة العربية وتعميمها وبذا تتحقق الوحدة بين المسلمين في اللغة كما تحققت الوحدة بينهم في الدين ، وسيبقى هذا القرآن على وحدة المسلمين -وإن فرطوا فيها- إلى يوم الدين ولو أن المسلمين استغلوا هذا المؤتمر الإسلامي الذي يضم الكثير من صفوة المسلمين وخيارهم في تحقيق أهداف الإسلام والعمل على لم الشمل وإزالة الرتق والتشاور فيما بينهم على حل قضاياهم والتعاون على البر والتقوى ، وما يعود على المسلمين بالخير والنفع من أمر الدين والدنيا ، لكان للمسلمين شأن غير شأنهم اليوم ، ولأصبحوا سادة كما كان أسلافهم من قبل .

ولكن – وياللأسف – لا يزال الفاحص يجد آثار التفرق بادية بين المسلمين مما يحز في قلب كل مؤمن غيور على دينه ، ومرجع ذلك -في رأيي- إلى الجهل الذي يخيم على كثير من النفوس فأفقدها سماحة الإسلام وسموه ، ودعوته إلى رحابة الصدور ، ونبذ الشقاق والخلاف ، وأحب يوم تطلع عليَّ شمسه هو اليوم الذي أرى فيه المسلمين قد فهموا دينهم على حقيقته ، وأخذوا فيه باللباب ، وتركوا القشور التي جعلتهم شيعًا وأحزابًا وقد قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ [الأنعام : ١٥٩] ، وليس بعزيز على الله العزيز الذي كَوَّنَ من العرب على اختلافهم وتنازعهم أمة قوية متماسكة سادت الدنيا أجيالًا ، أن يعيد للمسلمين عزهم إذا ما أخلصوا النية وصمموا على العمل بدينهم ، ولا يفوتني وقد تعرضت لمشهد الحج إلا أن أشيد بالمجهود القيم الذي قامت وتقوم به الحكومة السعودية في عهد العاهل العظيم من تأمين السير وتعبيد الطرق ، وتسهيل المواصلات والعمل على كل ما فيه راحة الحجيج ، مما كان له أكبر الأثر في تزايد الحجاج كل عام ، بيد أني لي ملاحظات دفعني إلى إبدائها حب الخير لهذه البلاد المقدسة التي هي عزيزة على نفس كل مسلم ، وها هي الملاحظات :

١– جهل الكثيرين من الحجاج بمناسك الحج ومعرفة حكمته ، والغاية المرجوة

منه ، وهؤلاء في حاجة إلى تنويرهم وتعليمهم ، والوسيلة إلى ذلك أن تلقى محاضرات عامة في مناسك الحج وفائدته ، يقوم بها نخبة من علماء الحجاز والأقطار الإسلامية الوافدين إلى هذه البلاد المقدسة ، ومما يجعل فائدة هذه المحاضرات محققة ، ونفعها عامًّا وجود مكبرات الصوت بالحرم الشريف ، وقد لمسنا فائدة هذا المكبر في إذاعة الصلوات والأذان والحجاج في حاجة إلى من يعلمهم أمر مناسكهم من أناس موثوق بهم ؛ لأن بعض الذين يدعون المصلحة ينتهزون فرصة جهلهم ويفتونهم بغير ما شرع الله ، بل بعضهم يتخذون من اختلاف المذاهب الفقهية في الفروع سبيلًا للغش والتدليس ، وقد سمعت بعض المطوفين يفتي الحجاج بأن تقديم الرمي عن الزوال في اليوم الثاني والثالث من أيام النحر جائز على مذهب أبي حنيفة ، مع أنه خلاف السنة وافتراء على مذهب الإمام أبي حنيفة ، وهذا مثل من أمثلة كثيرة .

٢- مع عناية الحكومة السعودية بشأن الصحة والمرافق العامة ، فإنا نطمع في أكثر من ذلك ، ونأمل أن تعمل الحكومة على تعميم المراحيض والمغتسلات بعرفات ومنى حتى لا تنبعث هذه الروائح الكريهة من العذرات المنبثة في الطرق وحول الخيام ، بحالة تشمئز منها النفوس وتتنافى مع ما دعا إليه الدين الإسلامي من النظافة والبعد عن النجس والقذارة ، وهذه المراحيض المتنقلة ، فضلًا عن أنها لا تستر قاضي الحاجة ، فهو بؤر لانبعاث الروائح الكريهة ، وفيما تلاقيه الأنوف في هذه الأماكن ما يقطع أي جدال في هذا الباب ، والوسيلة إلى ذلك أن تقوم الحكومة ببناء هذه المراحيض والمغتسلات ، ولو بتحصيل ضريبة بسيطة لذلك ، أو تلزم المطوفين ببناء هذه المراحيض ، وينبغي إبعاد مجاريها عن سطح الأرض ، وأن تهيأ بحالة صحية ، بحيث لا ينبعث منها الروائح الكريهة ، وبعض المطوفين بمنى قد أعد مراحيض مقبولة ، فما أحسن وأجمل أن تعم هذه المراحيض بمنى وعرفات ، وكذا الحمامات ولا سيما بمنى ، حيث يحتاج الحجيج إلى التحلل من إحرامهم وإزالة تفثهم .

٣- المجزرة العامة في حاجة إلى التنظيم وإلى إزالة متخلفات الهدايا والأضاحي من كرش وأمعاء ودماء ، والانتفاع بها حسبما يشير به الأخصائيون إن أمكن حتى لا تنبعث منها الروائح الكريهة ، كما أن الآلاف من أصناف الهدايا مما يذبحه الحجاج نسكًا

ينتفخ ويتعفن ويترك دون أن ينتفع به أحد ، ولو أن هذه الذبائح التي تذهب ضحية الإهمال أخذت وحفظت في ثلاجات أو جففت بطريقة فنية ثم وزعت على الفقراء والمحتاجين ، لكان أجدى وأحسن ، وإنشاء مصانع للتجفيف ، وحفظ اللحوم مما يساعد على رخاء هذه البلاد وتشغيل الأيادي العاطلة ، فتزدوج المنفعة ويعم الخير ، ونحن في عصر تقدمت فيه المعرفة والفن الصناعي ، فلماذا لا نستغل هذا التقدم الصناعي في الانتفاع بهذه الذبائح التي تذهب سدى ، ولاسيما والشرع الإسلامي يحض على عدم إضاعة الأموال .

٤- راعني ما شهدت من ترك سنة الذهاب إلى منى يوم التروية « ثامن ذي الحجة » والمبيت بها تركًا يكاد يكون جماعيًا ، والذي سمعته من الكثيرين التعلل بقلة وسائل المواصلات وهذا لا يصلح عذرًا لترك هذه الشعيرة بهذا الوضع ، وما على المسئولين لو أنهم وفروا سبل المواصلات -ونحن في عصر السرعة- حتى يكون ذلك حافزًا للقيام بهذه السنة ، وإذا كان رسول الله ﷺ ، والخلفاء من بعده قد قاموا بهذه الشعيرة على وجهها المشروع مع قلة الظهر ، وجهد الحال ، أفلا نقوم بها ونحن في عصر بلغت فيه السرعة أوجها ، وتعددت فيه سبل المواصلات ، مع كثرة المال ورخاء الحال ، الحق أن الأمر يحتاج إلى شيء من العزم والتصميم .

هذه ملاحظاتي أبديها إلى حكومة جلالة العاهل العربي العظيم الذي لا يدع وسيلة من وسائل الإصلاح إلا أمر بها ، والذي صار بالبلاد خطوات فسيحة في التقدم والرقي ، وكلي أمل ورجاء في أنها ستنال من أولي الأمر أذنًا صاغية ، والخير أردت وما أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

* * *

(٥)

موسم الحج بين الأمس واليوم[1]

منذ ربع قرن أو يزيد كتبت في هذه المجلة ، وكانت تسمى آنذاك « مجلة الحج » مقالا تحت عنوان « موسم الحج كما شهدته »[2] وقد ذكرت في هذا المقال يومها بعض ما كان يعاني منه الحجاج من ضيق الطرق والمسالك الموصلة إلى المشاعر المقدسة في ذاك الحين . ولا سيما حول الجمرات الثلاث ، فقد كانت أقرب إلى الحارات منها إلى الشوارع الشارعة ، والميادين الفسيحة . ولذلك كان يعاني الحجاج عند رمي الجمرات ، ما يعانون من الزحام ، ولو أن الأمر اقتصر يومها على الزحام لربما كان محتملًا ، ولكن كان الغبار المتصاعد من الأقدام عند الزحام أشد من الزحام لأنه كان يسد مسالك الهواء حتى يصل الكثير من الحجاج إلى حد الاختناق ، هذا إلى ما كان يسببه هذا الغبار من أذى للعيون ، وأذى للصدر : فقد كانت الطرقات أو إن شئت فقل الحارات المحيطة بالجمرات الثلاث متربة غير مرصوفة زيادة على الفرق الكبير بين عدد الحجاج من منذ ربع قرن ، وعدد الحجاج في الأعوام الأخيرة الآن ، فقد زاد عددهم أضعافًا مضاعفة عن ذي قبل ، وأذكر أني اقترحت في ذلك المقال الاستفادة من ألوف الذبائح التي كانت تذهب لحومها هدرًا ، ويكون مآلها إلى التعفن والفساد ، ثم الحرق أو الدفن في الأرض حتى لا تكون سببًا لانتشار الأوبئة والأمراض ، وذلك بعمل مصنع لتجفيف ما فضل عن حاجة الفقراء والمساكين ، وما أكثره !! ثم توزع على الفقراء والمعوزين أثناء العام ، أو توزع على فقراء الحجاج الذين لا يقدرون على شراء اللحم ، ومن ثم لا يطعمون اللحم أبدًا ، أو إن طعموه فقليلًا أو أقل من القليل مع أن اللحم من الأطعمة التي لا يستغني عنها الجسم ، وإلا أصيب بالهزال والإعياء والأمراض ، وليس من شك في أن الإسلام يدعو إلى صحة الأبدان كما دعا إلى صحة الأديان ، قال عز شأنه : ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف : ٣١] . وقال ﷺ : « المؤمن القوي خير وأحب

---

(١) مجلة التضامن الإسلامي – السنة الثلاثون – الجزآن السادس والسابع .

(٢) مجلة الحج – السنة الخامسة عدد المحرم وصفر لعام ١٣٦٩هـ .

إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ..» رواه الإمام مسلم . والقوة تشمل : القوة في الدين ، والقوة في العقل والتفكير ، والقوة في الأجسام ، والضعف على الضد من ذلك – إلى غير ذلك من الأحاديث .

وقد عزمت – وقد حضرت موسم الحج في هذا العام – أن أكتب مقالًا تحت هذا العنوان لأبين الفرق الشاسع بين موسم الحج في هذا العام ، وما كان من منذ ربع قرن ، وأحب أن أقول أن الفرق ما بين الأمس واليوم هو الفرق ما بين أحوال المملكة العربية السعودية في النواحي الحضارية والعمرانية بالأمس وما بين أحوالها اليوم !!

وفي الحق أن المملكة قد خطت في هذه الفترة التي ليست بطويلة في تاريخ التطور الحضاري خطوات فسيحة ، أو إن شئت الأنصاف ، فقل جرت أشواطًا بعيدة المدى في ربع القرن هذا ، وهي كلمة حق لا يكاد يختلف فيها اثنان ، وما راءٍ كمن سمعا !!

فقد عشت بالمملكة منذ ما يزيد عن ربع قرن بضع سنوات ، وأنا في شرخ الشباب واقتبال العمر ، وعدت إليها اليوم وأنا في سن الشيخوخة ، وقد اكتسبت تجارب في الحياة وازددت علومًا ومعارف ، فأنا عاصرت الفترتين ، وإذا تكلمت فإنما أتكلم عن خبرة ، ومشاهدة وإحساس بما كانت فيه البلاد في ذلك الوقت ، وما صارت إليه حينما فتح الله على المملكة بركات الأرض وبركات السماء ..

وما وصلت إليه المملكة في هذه الفترة القليلة يسرنا ويسر كل مسلم يعتز بالإسلام ويحمد الله أن هداه إليه ، لأن هذا التطور الحضاري شاهد قوي وملموس ، لا يحتمل المراء والجدال ، على أن الإسلام لا يأبى الحضارة الحقة الأصيلة ، الحضارة القائمة على كفاء حاجات الروح والجسم ، والتي لا تخل بدين ، ولا مروءة ، ولا بخلق كريم ، وأن الإسلام دين حضاري بكل ما تحتمله كلمة الحضارة من معان ، وجوانب فسيحة ، ومناح كريمة .

من محاسن هذا الموسم

من محاسن هذا الموسم هذا التخطيط العظيم الذي جرى في « عرفات » وفي « منى » من شق طرق جديدة وتوسعة للطرق القديمة ، ويأتي في القمة من هذا التخطيط هذا العمل الذي قامت به هذه الحكومة الرشيدة بتوجيه كريم من جلالة عاهلها الكبير

خالد بن عبد العزيز ، وسمو ولي عهده المحبوب فهد بن عبد العزيز وسمو أمير إمارة مكة المكرمة ونائبه ، وهو تخطيط منطقة الجمرات الثلاث ، فقد وسعت منطقة الجمرات منذ بضع سنوات حتى أضحى ميدانًا فسيحًا يسع الألوف من الحجاج ولكن الزحام عند رمي الجمرات كان يصل بالكثيرين إلى حد الإغماء ، بل كان من تخونه قواه حول الجمرات وسقط على الأرض فقل عليه العفاء ، وذلك لأن كل حاج يريد أن يرمي ثم يذهب ، ولا يتمهل قليلًا حتى يفرغ أخوه من الرمي ، وقلما تجد في هذا الموقف - موقف رمي الجمرات - إيثارًا للغير على النفس ، وإنما هي الأثرة بأجلى معانيها .

وقد كنت في العام الماضي ممن اقترحوا عمل كوبريين بمنطقة الجمرات ليمر عليهما المارون ، ثم يرمون عند محاذاة مناطق الرمي ، ثم يذهبون ولا يعودون من حيث جاءوا ، وبذلك يسهل عليهم الرمي ، ويتفادون الصدام والزحام ، وفي الحق أنه ما كان يجول بخاطري أن سيكون هناك طابقان ؛ طابق أرضي ، وطابق علوي كلاهما لأجل رمي الجمار ، ولذلك لما رأيت ما تم في منطقة الجمرات أعجبني ذلك غاية الإعجاب واعتبرت هذا فنًا هندسيًا جميلًا ، وأن العقل الذي تفتق عما تم في منطقة الجمرات عقل هندسي أصيل ، ويشهد للعقلية الإسلامية بالنبوغ ، والنضج ، والتجديد ، والابتكار ، فلله در هؤلاء الذين أشاروا بهذا العمل الجليل ، والذين خططوا ، والذين نفذوا كفاء ما قدموا للمسلمين وحجاج بيت الله الحرام من هذه الخدمات الجليلة ، وأشهد الله أن الحجاج ما كانوا يتهيبون من شيء تهيبهم من رمي الجمرات ، ولكنه غدًا أيسر وأسهل ما يكون بفضل هذا الصنع الجميل .

الحق أن هذا العمل المجيد قد يسر الرمي على النساء ولا سيما العجائز وعلى الشيوخ الكبار وعلى الضعاف والمرضى من الحجيج ، وهذا أمر لهج به كل الناس واعتبروه مكرمة من مكارم ولاة الأمور في هذه البلاد المقدسة التي هي مواطن الوحي ومنها نبع الإسلام ، وإليها يأرز[1] الإيمان في آخر الزمان كما تأرز الحية إلى جحرها ، والتي يحمل كل مسلم لها في نفسه ذكريات عزيزة .

---

(١) ينضم ويجتمع إليها بعد أن ينحسر عن غيرها ، وذلك في آخر الزمان قبيل الساعة ، وتأرز بفتح التاء وسكون الهمزة وكسر الراء آخره زاي .

ولكي يؤدي هذا العمل العظيم بمنطقة الجمرات مهمته على أكمل وجه أرى أن تكتب لافتات بجميع اللغات التي يتكلمها الحجاج لإرشادهم إلى الجمرات التي ترمى يوم النحر ؛ وهي جمرة العقبة ، والجمرات الثلاث التي ترمى في أيام التشريق الثلاثة .

ولقد لقيني ناس كثيرون فوجدتهم متحيرين بأي جمرة يبدأون أو أن يقوم بعض رجال التوعية الإسلامية الخاصة بالحج إلى إرشاد الحجاج إلى وقت الرمي ، وطريقة الرمي ، وعدد الجمرات التي ترمى كل يوم ، والتنبيه إلى المذاهب الفقهية التي تيسر الرمي على الناس ، ويا حبذا لو اجتمع الأمران : اللافتات المرشدة ، والتوعية المستمرة التي يتعاقب عليها رجال التوعية آناء الليل والنهار .

اقتراحات وتمنيات

١-ويأتي في مقدمة هذه الاقتراحات العمل على صيانة لحوم الهدي التي تذبح في يوم النحر ، وأيام التشريق ، وذلك بعمل مصنع لتجفيف هذه اللحوم وتوزيعها على الفقراء والمساكين طوال العام ولا سيما فقراء الحجاج ، والعمار ، إنها لأمنية تمنيتها من منذ ما يزيد عن ربع قرن ، ولا زلت أتمناها ، وألح في تحقيقها ، وليس تحقيق هذا بعزيز على المملكة العربية السعودية التي منحها الله جل جلاله من خيرات الأرض والسماء ما منحها ، والتي لا تهدف من وراء خدماتها إلى مال ، فعندها المال والحمد لله كثير ، وإنما تهدف إلى تيسير النسكين الحج والعمرة على ضيوف الرحمن ، ولا تقصد من وراء ذلك جزاء ولا شكورًا من أحد ؛ وإنما تقصد رضاء الرحمن ، وتأدية واجب المسلمين عليها باعتبارها القائمة على شئون الحرمين ، الحرم المكي والحرم المدني ، حتى أصبح من الشعارات الكريمة ، أن مليك هذه البلاد خادم الحرمين ، فأكرم به من شعار ، وأعظم به من شرف .

٢-عمل مراحيض صحية بقدر المستطاع في كل من عرفات ومنى ، وإن من الحجاج من لم يتعود قضاء حاجته بالعراء ، ويمنعه من ذلك الحياء ، ومنهم من يخشى التلوث في المراحيض التي لا تزيد عن حفرة تحيط بها قطعة من قماش لا تواري من فيها ولا تستره ، وهذا المراحيض تقوم بها الحكومة التي تضحي بألوف ألوف الريالات كل عام ، أو يلزم ببنائها المطوفون ، وكذلك عمل مغاسل وحمامات صحية ، وميضئات

يتوضأ منها الحجاج ، وليس من شك فيما لكل هذا من آثار في المحافظة على صحة الحجاج ، وراحتهم النفسية والجسدية ، وتفرغهم للعبادة في هذا الأماكن المقدسة ، وصيانتها عن الأقذار والأنجاس ، وهذه المراحيض والمغاسل والحمامات والميضئات ليست في حاجة إلى « نزح » لأن الأرض الرملية يفيض فيها الماء وغير الماء ، وأعتقد أن القائمين على شئون المشاعر المقدسة فكروا في هذا جديًّا ، بل وبدأوا بالفعل في بناء دورات مياه شاملة لكل ما ذكرت بالخرسانة المسلحة ، فقد وقع بصري على مبان لم تتم ، فسألت فقيل لي : إنها دورات مياه صحية وستكون على أحدث ما تكون ، وكنت أظن أن الحجاج سينتفعون بها هذا العام ولكنها لم تتم ، ونرجو أن تكون من المشاريع التي ستتم في العام القادم إن شاء الله تعالى .

٣-الإكثار من المرشدين الذين يقومون بإرشاد الحجاج التائهين إلى مطوفيهم مع العناية بحسن اختيارهم ومنحهم المكافآت المجزية على هذا العمل الإنساني الجميل ، وأشهد الله أني أردت الوصول إلى أحد أقربائي الحجاج عند أحد المطوفين يوم عرفة ، وكان معي رقم القطعة ورقم الشارع ومع ذلك لم أتمكن مع أنه قد عاونني في هذا أكثر من مرشد وكشاف ، وقد استعنا مرارًا بالخرائط التي معهم ، ومشوا معي أشواطًا بعيدة ، وكنت أشعر من الواحد منهم بالأسف والتألم لعدم نجاحه في الوصول إلى المقصود ، لذلك أرى أن تكون الخرائط أكثر تفصيلًا وتوضيحًا مما هي عليه ، وأن يذكر رقم الشارع بدقة وأهو شارع أصلي أم هو شارع فرعي ؟ وكذلك يكتب اسم المطوف على القطعة التي هي من نصيبه كل عام ، وينبغي أن يمرن الكشافون والمرشدون تمرينًا عمليًّا على معرفة الشوارع العامة ، والشوارع الجانبية ، قبل الموسم ولو بأسبوع ، وعلى الوصول إلى أية قطعة في عرفات ، ومنى ، وبذلك نضمن أن لا يضلوا هم أيضًا في الوصول إلى قطعة مطوف ما ، وأن يكونوا على درجة عالية من الكفاءة عند إرجاع الحجاج إلى مخيماتهم .

ويا حبذا لو اشتركت شرطة النجدة في هذا العمل الإنساني الكريم ، فإن الحاج قد يتيه ويبعد عن مخيمه بضعة أميال أو تزيد ، وحينئذ يكون في سيارات شرطة النجدة ما يدني البعيد وييسر العسير على أن تمر هذه الشرطة على كل درب من دروب عرفات

ومنى ، وأن تزود بالخرائط الدقيقة المفصلة لمنطقتي عرفات ومنى .

٤-الحيلولة بين الحجاج وبين استصحاب المواد السريعة الالتهاب كالغاز ، والبوتاغاز ، وصفائح البنزين ونحوها ، مما تسبب في حريق هذا العام ، هذا الحريق الذي شب بسبب بتوغاز ، ولولا لطف الله تبارك وتعالى ورحمته بحجاج بيته وضيوفه ثم يقظة حكومة هذه المملكة من الملك إلى الأمير إلى الوزير إلى الشرطي والجندي لكان الحريق ساحقًا ماحقًا ، ولكانت الخسائر أضعافًا مضاعفة .

وما بالك بحريق تجمعت له كل وسائل الالتهاب والاشتعال ، وتوافر للنيران فيه كل أصناف الطعام من أخشاب وخيام وبسط ، وحصير ، ونمارق ، ووسائد إسفنجية ، ثم يحصر في منطقة ضيقة ويقضى عليه في ثلاث ساعات ، إن هذا والله لعجيب .

ولكن لا عجب فقدرة الله فوق كل شيء ، ورحمته وسعت كل شيء ، وكرمه لضيوفه فوق كل كرم ، فلله الحمد والمنة أولًا وآخرًا .

وإذا كان ولا بد للحجاج من وقود فليكن من الحطب ، وما أكثره في البلاد ، أو من الفحم ، وما أكثره أيضًا .

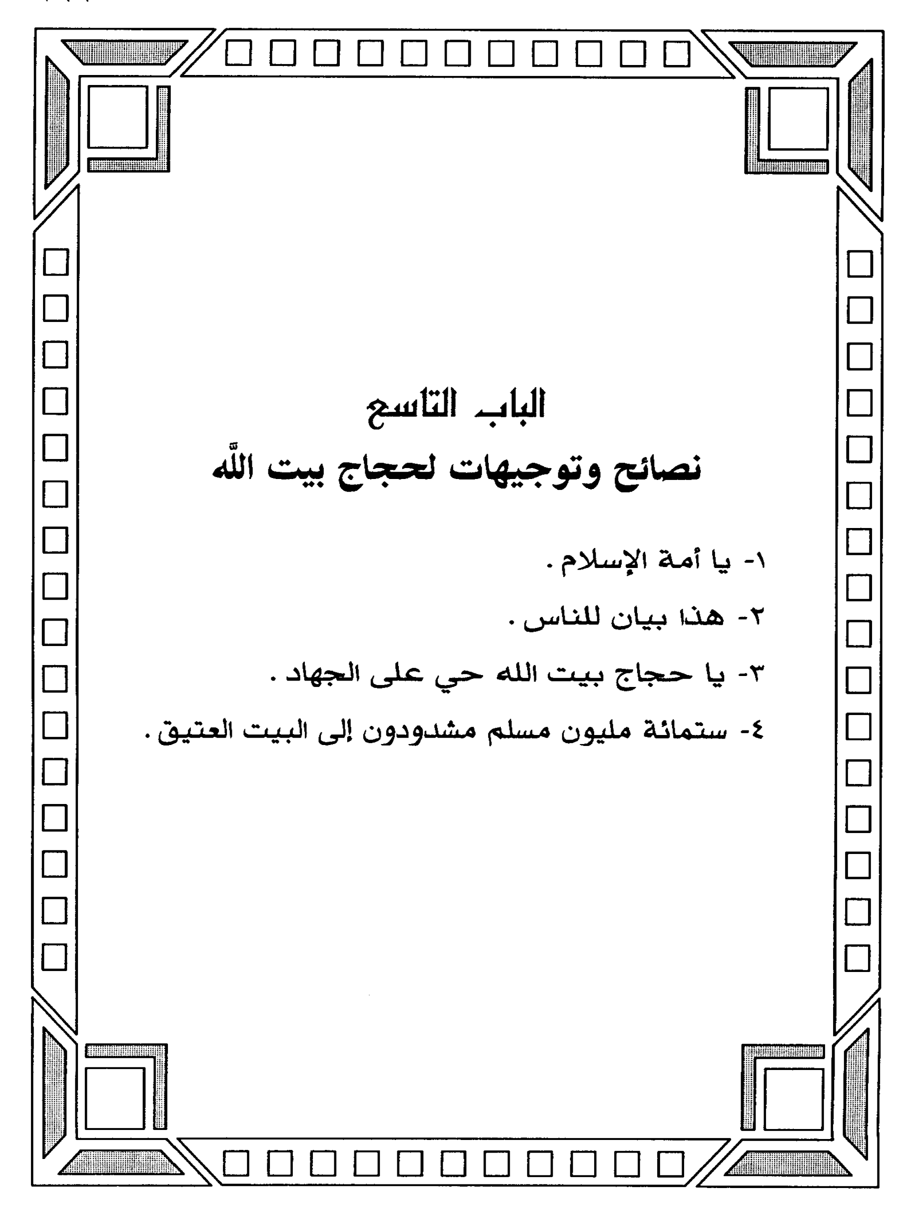
وأحب أن أقول لإخواننا الحجاج من كل قطر ومصر ، ومن كل جنس ولون : أن الكثرة الكاثرة من الحجاج لا هم لها إلا التوسع في المآكل والمشارب ، وشرب الشاي والدخان ، وكثرة القيل والقال ، مع أن هذه الأيام أيام عبادة وذكر ، وتلبية وتهليل وتكبير ، والقلة القليلة التي تريد الانتفاع بهذه الأيام انتفاعًا دينيًا لا تجد الجو الملائم ولا المناخ المساعد ، ولا تجد من يسمع لها ، ويستجيب .

كنت أحب من الحجاج في أيام منى أن ترتج خيمهم بالتهليل والتكبير ، والتلبية وقراءة القرآن ، وذكر الله ، وأن ترتفع منها سبحات من الأنوار بدل أن ترتفع منها سحب من الدخان ، وبدل أن يقضوا معظم وقتهم في إعداد الطعام والشراب ، نعم إن أيام منى أيام أكل ولحم ، ولكن لا يصل الأمر إلى هذا الحد من الإسراف في المآكل والمشارب ، وأن ننسى الله في هذه الأيام والليالي المباركة ، وأشهد الله أنه كان بجانبنا ليلة عرفة بعض الحجاج ، وقد كان معهم بالمخيم كل الوسائل الحديثة لإعداد الطعام والشراب وكل ألوان الطعام والشراب وأسباب الترفه ، وقد قضوا ليلتهم في أكل وشرب ،

وكلام ، ولم أسمع منهم كلمة تلبية واحدة ، ولا تكبيرة واحدة ، ولا تهليلة واحدة ، فقلت : يا سبحان الله .

إن أيام منى وعرفات أيام لا تعدو أصابع اليد الواحدة عدا ، فما على الحجاج لو أنهم تقللوا فيها من المطاعم والمشارب واغتنموها فرصة قد لا تعود في الدعاء ، والعبادة ، والذكر ، والاتصال بالله تبارك وتعالى ، حتى يرجعوا من حجتهم كيوم ولدتهم أمهاتهم صحائفهم بيضاء نقية وذنوبهم مغفورة ، ودرجاتهم عالية مرفوعة ، إن الحج يا حجاج بيت الله الحرام ليس رحلة ترفيه ، وإنما هو عبادة وتربية وتطهير ، وليس سوقًا لشراء غالي الثياب ، وفاخر الرياش والمتاع ، وإنما هو تجارة مع الله بالإيمان والعمل الصالح ، وصنوف البر والخير ، إن الحج ليس تدابرًا ولا تخاصمًا ، ولا تفاخرًا ولا تعاظمًا ، وإنما هو إخاء ومحبة ، وأمان ، وسلام ، وتواضع ، وتكافل ، فهل أنتم يا حجاج بيت الله لما أقول واعون ، غفر الله لي ولكم ، وهداني وإياكم إلى سواء السبيل .

* * *



الباب التاسع

نصائح وتوجيهات لحجاج بيت الله

١- يا أمة الإسلام .

٢- هذا بيان للناس .

٣- يا حجاج بيت الله حي على الجهاد .

٤- ستمائة مليون مسلم مشدودون إلى البيت العتيق .

(١)

يا أمة الإسلام[١]

يا أيها المسلمون الثاوون بالحرمين ، والحالون بالبلدين الطيبين : مكة وطيبة ، يا من جئتم من أقاصي البلاد وقطعتم الفيافي والقفار ، وشددتم الرحال لزيارة المسجدين الشريفين وأداء النسكين الموروثين من لدن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وفارقتم الأهل والمال ، والولد ، وآثرتم رضاء الله على متع الدنيا وزخارفها ، وتجردتم من كل زينة إلا من إزار ورداء يستران السوءة ويقيان الحر والبرد ، حققوا ما أراده الله وما قصد إليه الإسلام من هذا الاجتماع العام الكريم ، وهذا المشهد الإسلامي العظيم من تحقيق الألفة والمحبة والتآخي في الله والتواصي بالحق والصبر والخير ، والاعتصام بحبل الله ، ونبذ الفرقة والانقسام وتبادل وجهات النظر في كل ما يعرض للمسلمين من أمور دينهم ودنياهم في كل قطر ومصر ، واقتسام الآلام ، والمشاركة في السراء والضراء ، والتعاهد على تحقيق الآمال وعلى نصرة الإخوان ومحاربة الظلم أيًا كان ، والأخذ بيد الضعفاء والمظلومين .

يا مسلمون ، ويا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام ، ويا أحفاد الرعيل الأول من المسلمين الذين ضربوا مثلًا عليًا في الاتحاد وجمع الكلمة ، وترك الاختلاف والتنازع حتى ذهبت جميع محاولات أعدائهم عبثًا وبفضل اتحادهم وتماسكهم دالوا دولًا وورثوا ملكًا عريضًا ، وصاروا قادة في الحق والخير والهداية ، وصدق الله سبحانه مقررًا هذا المبدأ من قديم الزمان : ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص : ٥] ، وهذه سنة الله في الكون ، ولن تجد لسنة الله تبديلًا .

أين أنتم من قول الحق تبارك وتعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران : ١٠٠،

---

(١) مجلة الحج ، السنة التاسعة ، ج ١١.

١٠١] ، وقوله : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ الآية [آل عمران : ١٠٣] ، وقوله : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال : ٤٦] ، إن أعداء الإسلام قد استمرءوا دسائسهم في تفريقنا ، وكلما اتحدنا نفثوا سمومهم في إزالة وحدتنا ، وبذروا بذور الشقاق بيننا ، فهلا تعيدون سيرة أسلافكم الأماجد ، فتقضوا على دسائسهم ، وتردوا كيدهم في نحورهم ، وبذلك تبرهنون حقًّا على أنكم من سلالة المسلمين الأولين .

يا أمة الإسلام ، ويا أحباب محمد عليه الصلاة والسلام ، ويا من تحرصون على حب الله لكم ، ورضوانه ، وعلى أن تكونوا من المنضوين[1] تحت اللواء المحمدي ، هلا قرأتم قول الله : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران : ٣١] ، وقوله : ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء : ٨٠] .

وقوله : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر : ٧] .

وهلا جعلتم كتاب الله المبين وسنة رسوله الأمين وقدوتكم في أمور دينكم ودنياكم ؟

وهلا آثرتم رضاء الله ورسوله على رضاء بني الإنسان ، وآثرتم المجد الخالد ، والذكرى الباقية على العرض الزائل ، والسلطان الزائف ، وكيف تعدلون شريعة الرب بشريعة العبد ؟!

يا مسلمون ، ويا أحفاد أبي بكر وعمر وعلي ، وخالد وأبي عبيدة والمقداد ، وغيرهم من الصيد الأماجد ، والليوث الكواسر ، والعباقرة الفطاحل ، إن للمستعمرين في أقطار العرب والإسلام مهازل ومآسي يندى لها جبين الإنسانية ، ويقشعر من هولها جلد الحرية ، ولهم في كل قطر من أقطار الإسلام جراح وآلام ، فها هي فلسطين الشهيدة ، قد شُرِّدَ أبناؤها الأصليون ، وأهلها القاطنون بها من آلاف السنين ، وأحلوا محلهم شراذم من الأفاكين ، السفاكين للدماء ، المنتهكين للأعراض ، وبذلك خلقوا في جسم الدول

---

(١) أي المنضمين ، وفي « لسان العرب » : ضَوَى إليه ضَيًّا وضَوِيًّا : انضم ولجأ ، وضَوَيْتُ إليه - بالفتح - أَضْوِي ضُوِيًّا ، إذا أويت إليه وانضممتَ . [الناشر] .

العربية سرطانًا شرهًا مهلكًا ، وهي إسرائيل الطفل المدلل الذي لن يقف على قدميه إن شاء الله وسيلقى جزاءه إن عاجلًا وإن آجلًا ، وحينئذ سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، وها هي غاراتهم الطائشة على السكان العزل الآمنين في أطراف الجزيرة العربية لا تنقضي ، وها هي مذابحهم الهمجية البربرية في بلاد المغرب العربية الإسلامية تجل عن الوصف ، وتنم عن حيوانية ضاربة لا تراعي عهدًا ولا ذمة ، وكل هذا وذلك على مرأى ومسمع من العالم المتحضر الذي طالما يتشدق بالحرية والحقوق الإنسانية ، فإلى متى تتركون هؤلاء يعيثون في الأرض فسادًا ؟ وإلى متى السكوت وقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطُّبْيَيْن[1] ، وها هي أنات إخواننا في الدين والعروبة ، وشكاتهم ترتفع في كل وقت وحين ، ولا مجيب !!! وهل غاب عنكم قول المرشد الأعظم ، صلوات الله وسلامه عليه : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا »[2] ، وقوله : « ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[3] ، وقوله : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، ولا يسلمه »[4] ، أي : لا يخذله عند الاستنصار به ، ولا يسلمه إلى الأعداء ، وهل أتاكم – أيها المسلمون– نبأ أمير المؤمنين محمد المعتصم بن هارون الرشيد أحد خلفاء بني العباس فقد بلغه أن الروم قد أغاروا على بعض البلاد الإسلامية فقتلوا الرجال ومثَّلوا بهم ، وسبوا الذراري والنساء ، فاستعظم ذلك ، وكبر لديه ، وبلغه أيضًا أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم : وامعتصماه ، فانتفض انتفاضة الأسد الهصور وأجابها وهو جالس على سريره : لبيك لبيك . ونهض من ساعته ، وصاح في قصره : النفير النفير ، ودعا الناس إلى التعبئة العامة ، وتحركت النخوة العربية في نفوس الناس ، فاجتمع إليه عسكر كثير ، ثم سير أحد قواده إلى اللحاق بملك الروم ، فلم يدركه فقال لقواده : أي بلاد الروم أمنع وأحصر ، فقيل له : عمورية ، لم يعرض لها أحد منذ كان الإسلام وهي عين النصرانية ، وهي أشرف عندهم من القسطنطينية ، فأجمع أمره على

---

(١) مثل يُضرب عند تجاوز الأمر حدّه . وانظر « مجمع الأمثال » (١٦٦/١) . [الناشر] .

(٢) الحديث رواه البخاري ومسلم .

(٣) الحديث رواه رواه البخاري ومسلم .

(٤) الحديث رواه البخاري ومسلم .

فتحها ، وسار على رأس جيش لجب إليها ، ولم يهدأ له بال ، ولم يقر له قرار حتى فتح عمورية ، وفعل بالروم مثل ما فعلوا بالآمنين من المسلمين والمسلمات ، أو أشد ، وغنموا منهم غنائم كثيرة لا يحصيها العد ، وهكذا تكون الرجولة ، وتكون النخوة العربية ، ويكون الانتصار بعد ظلم ، فهل لنا مثل المعتصم يؤدب هؤلاء الذين سفكوا الدماء وانتهكوا الأعراض ، وبقروا بطون النساء ، ويريهم أن سلطان الله لا يزال مرهوبًا في الأرض ؟!

إن المسلمين لا يشكون من قلة فهم -والحمد لله- كثير ، ولكنهم كما قال المعلم الأعظم فيما أخبر به عما سيؤول إليه أمر هذه الأمة حينما تعدل عن هدي نبيها ، وسيرة سلفها الصالح : « غثاء كغثاء السيل » ، روى أبو داود في سننه عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن ، فقال قائل : يا رسول الله وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت » ، وصدق رسول الله ﷺ فقد خفَّ وزننا في ديننا ودنيانا ، وقلَّ خيرنا ، وكثر خبثنا ، وأحببنا الدنيا حبًّا ذهب بمقومات ديننا وأخلاقنا وإسلامنا ، وكرهنا الموت حتى صدفنا عن حب الجهاد ، والاستشهاد في سبيل الله والنفس والعرض والوطن ، فتجرأ علينا أعداؤنا وعرفوا مواطن الضعف فينا ، وأصبحنا لا يقام لنا كبير وزن في السياسة الدولية بعد أن كنا سادة الدنيا وأصحاب الكلمة فيها .

يا أمة الإسلام .. إن الإسلام لم يقم على الكثرة ، والتاريخ أكبر شاهد ، وإنما قام على العقيدة الحقة والمبادئ الأخلاقية القويمة ، قام على أناس كان الواحد منهم بألف ، كانوا رهبانًا بالليل أسودًا بالنهار ، حرصوا على الموت في سبيل الله والشرف والكرامة ، فوهب الله لهم الحياة الحرة العزيزة ، وصدق الصديق رضي الله عنه حيث يقول : احرص على الموت توهب لك الحياة ، ولما حانت وفاة سيف الله المسلول سيدنا خالد ابن الوليد رضي الله عنه قال قولته المشهورة : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها ، وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح ، وها أنا ذا أموت على فراشي كما

يموت البعير ، **فلا نامت أعين الجبناء** .

يا أمة محمد عليه السلام ، ألم يأن لنا أن نكون محمديين في ديننا وفي أخلاقنا وفي معاملاتنا ، وسياساتنا ، وأن نكون مُثُلًا صادقة للرعيل الأول من المسلمين ؟!

ألم يأن لنا أن نتجرد من العواطف والأهواء ونستجيب لدعوة الرحمن ونصم الآذان عن دعوة الشيطان – دعوة الفرقة والانقسام – ألم يأن لنا أن نفي بعهود الله ؟

بلى لقد آن الأوان ، ووجب العمل وحق الوفاء .

***

(٢)

هذا بيان للناس[1]

في هذا المجمع الأكبر، وفي هذا المشهد الأعظم، وفي هذا الموسم الكبير، وفي مكة بلد الله الحرام، حيث انبعث نور الإسلام الذي أضاء العالم، وقضى على الظلمات - ظلمات الشرك، والجهل، والتخلف، والفرقة - أذكركم بهذا البيان الذي فيه بلاغ للناس، والذي صغته من قلبي الذي كاد يتقطع أسى لما وصلت إليه حالة المسلمين، والعرب اليوم، ومن نفسي التي كادت تذهب حسرات.

أيها المسلمون في كل مكان:

إن بلاد المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها اليوم في محنة، فقد تكالب على المسلمين الأعداء من كل جانب، وتداعوا عليهم من كل مكان، كما تتداعى الأكلة على قصعتها، ليذلوا العباد، ويستنزفوا ثروات البلاد، وسَهَّل للأعداء النيل من المسلمين أنه بعد أن كانوا معتصمين بعروة الإسلام الوثقى التي لا انفصام لها، وبعد أن كانوا جميعًا لا يعتزون إلا بالإسلام، ولا ينتصرون إلا بالله أصبحوا شيعًا وأحزابًا متفرقة، هؤلاء يتبعون المعسكر الشرقي، وهؤلاء يتبعون المعسكر الغربي، ومنهم مذبذبون بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وقليل منهم من عصم الله وأصبحت السياسة البغيضة هي المتحكمة في اتجاهات دول الإسلام، والعلاقات السياسية الدولية لها سطوتها وسلطانها حتى ولو في ذلك التنكر للرباط المقدس الذي ربط الله بيننا، وهو الإسلام، وليس أدل على ذلك من أن دويلة لقيطة وهي إسرائيل، ابتلعت قطرًا إسلاميًا كبيرًا، وقطعة عزيزة من جسد بلاد الإسلام، وها نحن عاجزون منذ ربع قرن تقريبًا عن استرجاعه، على كثرتنا الكاثرة التي تعدو الستمائة مليون عدًّا، وعلى قلة العدو المغتصب الذي يعدو المليونين، ولا يبلغ الثلاثة !!

بل ما لي أذهب بعيدًا، وهذه دولة إسلامية كبرى شطرها الأعظم تحت سمع العالم كله وبصره، وعلى سمع الدول الإسلامية وبصرها، فما وجدنا أحدًا ساعد، ولا عاون،

---

(١) مجلة التضامن الإسلامي، الأجزاء ٤- ٦، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة ١٣٩١هـ.

لا بالرجال ، ولا بالمال ، ولا بالسلاح ، اللهم إلا بعض صيحات هنا ، وهناك ذهبت أدراج الرياح ، وهب أن السياسة الغاشمة الخرقاء كان لها ضلع كبير فيما جرى للدولة الإسلامية الكبرى « باكستان » أما كان ينبغي أن ترتفع أصوات المسلمين شعوبًا ، وحكومات في كل مكان ؟ !

أنا موقن أن الكثرة العظمى من المسلمين مر عليها هذا الحادث الجلل الذي أصاب المسلمين في عضو من أعضائه كما يمر بهم طيف الخيال !!

ثم أما كان ينبغي والمسلمون في جميع بقاع الأرض أسرة واحدة ومتكافلون في الخير ، ودفع الشر ، والظلم ، والفساد أن يقوم ولاة الأمور في البلاد الإسلامية بالنصح لرئيس هذه البلاد أن يلتزم بما أمر به الإسلام الولاة والأمراء من العدل بين الرعية ، والقسمة بينهم بالسوية ؟! .

أليس هذا الذي أدعو إليه هو مقتضى قول الله تعالى : ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ الآية [التوبة : ٧١] ، وقوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾ [الحجرات : ١٠] الآية ، وقوله تعالى : ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة : ٧٨، ٧٩] .

ووالله لو تناصحت الدول الإسلامية ، وتناهى المسلمون عن المنكر ، وتآمروا بالمعروف فيما بينهم ، وتواصوا بالحق والعدل ، وتواصوا بالصبر لما حلت النكبات ببلاد الإسلام ، ولما كانت المصيبة الكبرى التي حلت ببلد من بلاد الإسلام .

أيها المسلمون : لا خير في معسكر شرقي ، ولا في معسكر غربي ، وكلا المعسكرين عدو للإسلام ، والمسلمين ، وإذا كان منهم من يعاون ، ويناصر ظاهرًا بعض دول الإسلام ، فإنما هي سياسة وليس حبًّا ولا ودًّا ، وكيف وفي قلوبهم الحقد الدفين على الإسلام والمسلمين ؟! وأين كان المعسكر الشرقي حينما نكبت مصر وسوريا

والأردن ؟! بل أين كانت أمريكا يوم نكبت باكستان ، المسلمين في شطرها ؟! وماذا فعل أسطولها حينما ذهب يتبختر ، بل فرح بما جرى إلى خليج بنغال ؟ وماذا قدم من معونة لباكستان الشرقية المحاصرة من كل مكان ؟ أحب ، يا أيها الأخوة المسلمون أن تتفكروا ، ثم تتفكروا فيما أقول ، وفيما أستعرض من أحداث ، وستصلون كما وصلت بعد فحص ، ونظر إلى أن هؤلاء وأولئك أعداء للإسلام والمسلمين ، وأنهم كثيرًا ما يتواطئون على هذا ولا يرجى منهم كبير غناء .

إن لنا إخوانًا في الفلبين يقتلون ، ويذبحون بهمجية ، وبربرية ، لا نكاد نجد لها مثيلًا في عصور الجاهلية الأولى ، وإخوانًا في الهند يذبحون ويقتلون بسبب العصبية ، والطائفية العمياء ، فماذا فعلنا لهؤلاء ، ما أكثر ما كتبنا في هذا ، وما أكثر ما أرسلنا من برقيات احتجاج ، وما تجدي المقالات ، والبرقيات يا قومي المسلمين ؟ إن القوة تقابل بالقوة ، والحديد يُفَلُّ بالحديد ، ولا يجدي الصياح ولا العويل .

يا أيها المسلمون :

كلما نظرت إلى خريطة البلاد الإسلامية ، ورأيت سعتها ، وما أودعه الله في هذه البلاد من خيرات وثروات وثروة بشرية تفوق العد ، ونظرت إلى ما يسود معظم هذا العالم الإسلامي من ضعف وفقر وتخلف في النواحي الاقتصادية والزراعية والصناعية ، أسفت غاية الأسف ، لأن خيرات وثروات بلادنا كثيرة ، ولكنا لم نحسن استغلالها ، والاستفادة بكل ما فيها ، إن ديننا العظيم – الإسلام- برئ والله من هذا التخلف ، لأن الإسلام لا يرضى ذلك ، وإنما هو دين العلم والعمل ، لا دين الكسل ، والخمول ، والتواكل .

وكلما نظرت إلى رقعة بلاد الإسلام الفسيحة ، ونظرت إلى تدابرهم ، وتخاذلهم ، وعدم تناصرهم وتفرقهم ازددت حسرات وحسرات ، وكيف يتفق هذا يا مسلمون ويا حجاج بيت الله الحرام وتوجيه نبيكم الكريم حيث يقول فيما صح عنه : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يسلمه »[1] ، فالظلم بين المسلمين حرام ، وخذلان المسلم حرام ، والتخلي عنه وإسلامه للأعداء حرام ، فأين هذا مما نحن عليه الآن يا أمة محمد عليه الصلاة والسلام ؟!

(١) الحديث رواه البخاري ومسلم .

ويقول : « ترى المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه مسلم ، إن المسلمين يئنون في كثير من البلاد التي هم فيها قلة ، وإخوانهم عنهم لاهون ، وفي غيهم سادرون[1] ، لو أنك سرت في أي مدينة من مدن الإسلام على ما بالمسلمين والعرب اليوم من جراح ومآسٍ ، لوجدت شبابًا عابثًا لاهيًا مخنثًا مطيلًا لسوالفه ، متثنيًا في مشيته ، مقلدًا للنساء في شعره وملابسه حتى إنه قد يشكل عليك أذكر هذا أو أنثى ؟ ! وقد صارت هذه اللوثة والحماقة في معظم بلاد الإسلام ، وإذا كان شبابنا هكذا فهل نرجو منهم أن يكونوا رجال الغد والمستقبل ، وأن يكونوا عدة للوطن في محنته ؟

يا أيها المسلمون :

إن المسلمين اليوم في محن كثيرة ، ولا عاصم لهم من هذه المحن ، ولا منجى لهم من هذا البلاء ، إلا بالاعتصام بالإسلام فإنه حبل الله المتين ، وهو الصراط المستقيم ، من اعتصم به سعد في دينه ودنياه ، ومن تخلى عنه شقي في دينه ودنياه ، وكان مآله في الذلة والضعف والمهانة .

إننا –والله– معاشر المسلمين لو اعتصمنا بديننا وأخذنا به عقيدة وشريعة ، وعلمًا وعملًا ، وأخلاقًا وسلوكًا وسياسة واقتصادًا ، لكنا كتلة ثالثة في هذا العالم ، كتلة مؤمنة موحدة عالمة عاملة ، لها ميزاتها ، ولها تأثيرها ، ولها تقديرها في هذا العالم فهل أنتم فاعلون .

إن أعداءنا يحاربوننا بالعلم والسلاح ، فلنحاربهم – بعد عدة النصر الأولى وهو الإيمان – بالعلم ، والسلاح ، فلنقابل التقدم العلمي بالتقدم العلمي ، والتكنولوجيا بالتكنولوجيا ، والسلاح بالسلاح ، وصدق العلي العظيم حيث يقول : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال : ٦٠] ، وأقسم بالله قسمًا لا حنث فيه لو اهتدى المسلمون بهذه الآية وما أكثر غيرها من التوجيهات النبوية السديدة لكانوا أعز الأمم والشعوب ، وعندنا

(١) يقال : رجل سَادِرٌ : غير متثبت . والسَّادِرُ : المُتَحَيِّرُ . « لسان العرب » . [الناشر] .

من القوى البشرية والمال ما يهيئ لنا الأسباب إلى القوة ، والعالم اليوم عالم مستأسد ومتنمر ، فمن لم يتأسد أكلته الأسود والنمور ، ومن لم يكن يقظًا فطنًا غررت به الذئاب .

يا أيها المسلمون :

إن إخوانكم العرب اليوم مقبلون على معركة قادمة -إن شاء الله تعالى- معركة مريرة ، وطويلة وشرسة ، معركة سيستخدم فيها ما تمخض عنه العقل البشري من أسلحة مدمرة ، معركة عدونا فيها مستعد وماكر ، وغادر ، ومن ورائه الصهيونية العالمية ، وتسانده الولايات المتحدة الأمريكية ، وقوى الشر والبغي والعدوان .

فماذا أنتم فاعلون وقد سمعتم ما قاله الله سبحانه ، وما قاله الرسول ﷺ في حقوق الأخوة الإسلامية ، لا يسعني إلا أن أذكركم بهذا الحديث النبوي الشريف : « إذا ذل العرب ذل الإسلام » رواه أبو يعلى ، وأن أذكركم وأنتم في عرفات وفي المشعر الحرام ، وحول الكعبة البيت الحرام بأن تدعو الله بالنصر للإسلام والمسلمين ، ولإخوانكم العرب الذين كتب عليهم القتال ، فاللهم آمين .

* * *

(٣)

يا حجاج بيت الله حي على الجهاد[1]

يا حجاج بيت الله الحرام ، ها أنتم قد شددتم الرحال إلى أداء النسكين : الحج والعمرة ، وجئتم إلى بيت الله العتيق من كل فج ، ومن كل قطر ، ومصر ، تحدوكم الرغبة في أداء النسكين ، ورؤية بيت الله الذي هو أول بيت وضع للناس ، والتزمتموه كما يلتزم المشوق المحب ديار الأحبة الذين لقيهم بعد طول الغياب ، وقبلتم الحجر الأسود الذي هو يمين الله في الأرض[2] [3] ، وطفتم ما شاء الله لكم أن تطوفوا ، وصليتم ما شاء الله لكم أن تصلوا ، ودعوتم الله راجين أن يغفر لكم ذنوبكم ، ويغسل سيئاتكم ، ويحل عليكم رضوانه الأكبر ، الذي هو الغاية التي يؤملها كل مؤمن ، ولا سيما كل حاج ومعتمر .

وها أنتم التقيتم بألوف الألوف من إخوانكم المسلمين من الشام ، ومن اليمن ، ومن مصر ، ومن ليبيا ، ومن تونس ، ومن الجزائر ، ومن المغرب ، ومن موريتانيا ، ومن باكستان ، ومن الهند ، ومن الملايو ، ومن الفلبين ، ومن الصين ، ومن روسيا ، ومن اليابان ، ومن أفريقيا ، ومن آسيا ، ومن أوربا ، وأمريكا ، وماذا أقول بعد قول الله : ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج : ٢٧] ، إن العمق العميق يتجلى أكثر ما يتجلى اليوم فيمن يأتي من الهند ، ومن الصين ، ومن اليابان ، إن الله تبارك لما قال هذا القول لخليله ونبيه إبراهيم عليه السلام ، وعبر عن ذلك في قرآن عربي مبين ، وفي بيان معجز كان يعلم حق

---

(١) مجلة التضامن الإسلامي ، الجزء ٦، السنة ٢٥، ذي الحجة ١٣٩٠هـ، ١٦فبراير ١٩٧١م .

(٢) هو لفظ حديث رواه أبو عبيدة في غريب الحديث ورواه الحميدي في فضائل مكة بسنده عن ابن عباس ، وروى ابن ماجه نحوه ، قال الخطابي : يعني أن من صافحه في الأرض كان له عند الله عهد ، وقد جرت العادة بأن العهد يعقده الملك بالمصافحة لمن يريد موالاته ، والاختصاص به فخاطبهم بما يعهدونه ، وقال المحب الطبري : معناه أن كل ملك إذا قدم عليه الوافد قبل يمينه ، فلما كان الحاج أول ما يقدم يسن له تقبيله نزل منزلة يمين الملك ، ولله المثل الأعلى « فتح الباري ج ٣، ص ٣٧٠، وعمدة القاري ج ٤، ص٦٠٧ » .

(٣) قال الحافظ في « الفتح » : وقال المهلب : حديث عمر هذا - أي : حديث عمر لما قَبّل الحجر فقال : « ... إني أعلم أنك حجرٌ لا تضر ولا تنفع ، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك » - يرد على من قال : إن الحجر يمين الله في الأرض يصافح بها عباده ، ومعاذ الله أن يكون له جارحة ، وإنما شرع تقبيله اختبارًا ليعلم بالمشاهدة من يطيع ، وذلك شبيه بقصة إبليس حيث أُمر بالسجود لآدم ، وحديث الحجر الأسود يمين الله في الأرض . ضعفه الألباني في « السلسلة الضعيفة » (٢٢٣) وقال : منكر . [الناشر] .

العلم أنه سيأتي زمان يأتي فيه الحجاج من قارات الدنيا الخمس، فما أصدق قوله سبحانه: ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

إن هذا المؤتمر الأكبر لا نجد له مثيلًا في أي دين من الأديان الأخرى، ولا في أي نحلة من النحل، ولا في أي قانون من القوانين، وها هي الدول اليوم تعقد المؤتمرات تلو المؤتمرات ويجتمع لها من شرق الأرض وغربها ولكن أتساءل: أي اجتماع يماثل هذا الاجتماع في الباعث عليه، وفي شرف مقصده وغايته؟ بل أي مؤتمر يداني هذا المؤتمر الإسلامي الأكبر في ضخامته، وفي كثافة عدده؟

إن الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أسكن هاجر وابنها إسماعيل في مكان الكعبة البيت الحرام، وقفل إلى الشام راجعًا توجه إلى الله بهذا الدعاء: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

وقد استجاب الله الدعاء، فكان بناء البيت، وكان فرض الحج، وكان هذا المؤتمر الأكبر من قديم الزمان، وبلغ الذروة في شريعة خاتم الأنبياء، الذي أرسله الله إلى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا، ورحمة للعالمين.

إن من مقاصد الحج العظمى -يا حجاج بيت الله الحرام- التشاور في كل ما يهم المسلمين، وينزل بهم من الملمات، والتجاوب في الشعور ببث الآلام، وعقد العزم على تحقيق الآمال، وها أنتم حضرتم إلى الحرمين الشريفين وتقلبتم في المعاني المقدسة، والمنازل المشرفة في مكة وما حولها، وفي المدينة وما حولها، وفيما بين مكة والمدينة، وفيكم الملوك والرؤساء، والعلماء، والأمراء، وأهل الحل والعقد.

فهل استفاد المسلمون والعرب من هذا المؤتمر الإلهي الأكبر، وتشاوروا فيما نزل بهم من جهد البلاء، واغتصاب الديار، وتسلط هذه الشرازم اليهودية الصهيونية عليهم، واحتلالهم أجزاء كبيرة من الوطن العربي؟ وتماديهم في انتهاك الأعراض، وسلب الحريات، والأموال، وإذلال إخوانكم المسلمين والعرب في فلسطين، وفي الأجزاء المحتلة أيما إذلال.

يا حجاج بيت الله الحرام إن أجدادكم العرب -حتى في جاهليتهم- كانوا أعزة أحرارًا، يعافون الضيم، والذلة، ولم يرضوا بالهوان قط، حتى لقد صار من حكمهم وأمثالهم قولهم:

ولا يقيمُ على خسفٍ يرادُ بهِ إلا الأذلان عير الحي والوتد

وجاء الإسلام فنمى فيهم العزة ، وحب الحرية ، وإباء الضيم والذل ، والمسلم الحق لا يعرف الذلة ، ولا الاستخذاء ، ولا الضعف ، ولا المهانة ، ولا يركع على قدميه لعدو ، ولا يعرف الاستسلام ، ويسعى إلى الشهادة في سبيل الله ، ويحرص عليها حرصه على الحياة ، هكذا كان رسول الله ﷺ ، وكان الصحابة الأبطال ، حتى صار شعارًا لهم : « احرص على الموت توهب لك الحياة » .

يا حجاج بيت الله الحرام : إن الجهاد اليوم فرض عين محتم على جميع المسلمين عربًا وغير عرب ، حتى تتحرر الأرض المغتصبة ، ونعيد إلى الإسلام بلاد الإسلام ، وإلى العرب ديار العرب ، وحتى نغسل العار ، ونزيل آثار الهزيمة المؤسفة المؤلمة ، وإليكم ما قاله فقهاء الإسلام سلفًا وخلفًا ، واستنبطوه من كتاب الله وسنة رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، قالوا : يصير الجهاد فرض عين في أحوال ثلاثة :

الأولى : إذا التقى الجيشان وتقابل الصفان تعين على من حضر الجهاد ، ووجد في الميدان ، وحرم عليه الفرار ، قال عز شانه : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال : ١٥، ١٦] ، وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : ما هي يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

الثانية : إذا هاجم الكفار –سواء أكانوا يهودًا ، أم نصارى ، أم لا دين لهم – بلدًا من بلاد الإسلام ، أو نزلوا فيه تعين على أهله قتالهم ودفعهم بما استطاعوا ووجب على إخوانهم المسلمين في كل بلد وقطر إسلامي أن يخفوا إليهم ويمدوهم بالعون والمساعدة ، وفاء بحق الإخوة الإسلامية ، ففي الحديث الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ، ...» ، وفي رواية : « ولا يسلمه » ، أي لا يخذله إذا استنصر به ، ولا يسلمه ، أو يتركه لأعدائه ينالون منه .

الثالثة : إذا استنفر ولي الأمر -خليفة أو ملكًا أو رئيسًا- قومًا ، أو أقوامًا ، أو الأمة كلها لزمهم الخروج وتعين عليهم الجهاد ، وذلك لقوله تبارك وتعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة الآيات : ٣٨، ٣٩] ، وفي الحديث الصحيح المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » ، وفي معنى الاستنفار إعلان التعبئة العامة في العرف الحديث ، ودعوة الأمة للجهاد ، فما رأيكم بعد هذا يا حجاج بيت الله الحرام ؟

تعاهدوا فيما بينكم وعاهدوا الله أمام بيت الله الحرام على الجهاد والكفاح ، وكونوا -بعد رجوعكم- رسل كفاح وجهاد إلى أقوامكم ، وقولوا لهم : لقد غسلنا خطيئاتنا ، وأوزارنا ، وأصبحت صحائفنا بيضاء نقية ، ولكننا لم نغسل ما لحقنا من هزيمة ، وعار ، وها هي رقعة فسيحة من بلاد المسلمين والعرب داستها أقدام الصهاينة الأرجاس ، وها هو المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين ، قد دنسوه بأقدامهم ، وانتهكوا حرمته ، ثم كان أن أشعلوا فيه النار .

إن أطماع اليهود الصهاينة لا تقف عند حد ، إنهم يريدون ملكًا من النيل إلى الفرات ، ومن سوريا إلى الحجاز ، وها هم زعماؤهم لا ينفكون عن ترديد هذه الدعوى الظالمة الكاذبة .

إنهم لا يكتفون ببيت المقدس ، ولكنهم يحلمون بخيبر وبيثرب – أي المدينة المنورة–، ومن يدري فلعلهم يطمعون أيضًا في المسجد الحرام بل وفي اليمن واقرءوا « برتوكولات حكماء صهيون » فإنكم ستجدون فيها الأطماع التي لا تقف عند حدود ، فحي – أيها المسلمون والعرب– على الجهاد والكفاح ، فقد حق الجهاد ، وحق الفداء ، ودعوا الفرقة والانقسام ، وتناسوا حزازات النفوس ، واعقدوا العزم على استرداد الأرض المغتصبة ، وتطهير الوطن العربي من أرجاس اليهود الصهاينة ، والله معكم ، ولن يتركم أعمالكم .

* * *

(٤)

ستمائة مليون مسلم

مشدودون إلى البيت العتيق[١]

ستمائة مليون مسلم أو يزيدون مشدودون إلى البيت العتيق : بيت الله الكعبة البيت الحرام ، يتوجهون إليه في صلاتهم خمس مرات في اليوم والليلة ، ويتوافد إليه ألوف الألوف في أشهر معلومة حاجين ومعتمرين ، وفي جميع أيام السنة معتمرين وزائرين ، وقد حاولت وأنا أقوم بالتدريس ببلد الله الحرام بضع سنين أن أجد المطاف يخلو من طائف أو قائم ، أو راكع أو ساجد في جوف الليل وفي ليالي البرد القارس ، فما أمكن ذلك .

وكذلك حدثني كثير من أهل العلم بالبلد الحرام أنهم حاولوا هذه المحاولة ، فتأكد لهم ما تأكد لي من أن هذا البيت لا يخلو من طائف أو راكع ، أو ساجد ، أو عاكف ، وصدق الله حيث يقول : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

أليس من أحكم التشريع ، وأعجب العجب أن تتوجه هذه الملايين التي لا تحصى إلى بيت واحد ، وأن تكون قبلتهم واحدة ، ووجهتهم واحدة ، ومقصدهم واحدًا ؟ أليس هذا تأكيدًا لوحدانية الله التي هي أولى العقائد في الإسلام ، وترسيخًا لعقيدة الوحدانية في قلوب المسلمين بطريق عملي متكرر ، حتى تصير ملكة من ملكات النفس؟ فالمسلمون إلههم واحد ، وقبلتهم واحدة ، وغايتهم واحدة ، وهي طاعة الله ، والفوز برضوانه ، والتمتع بجنانه ، ونعيمه الأبدي الذي لا يفنى ولا يزول .

إن هذه الوفود التي تتوافد على البيت الحرام منذ بضعة آلاف عام ، من يوم أن بنى الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام الكعبة البيت الحرام يعاونه ابنه الذبيح إسماعيل عليه السلام ، داعين الله بقلوب مؤمنة مخلصة أن يتقبل الله عملهما ويبارك زرعهما ، وأن

---

(١) مجلة رابطة العالم الإسلامي – العدد العاشر – السنة العاشرة – ذو الحجة ١٣٩٢هـ – ١٩٧٣م .

يجعلهما مسلمين منقادين له ، ومن ذريتهما أمة مسلمة ، موحدة مؤمنة ، وأن يبعث في هذه الأمة رسولًا منها تعرف نسبه ، ونشأته ، وفضائله ، وأخلاقه ، يتلو عليها آيات الله ، ويعلمها الكتاب ، والحكمة ، ويزكيها من الأرجاس ، وفاسد العقيدة والأخلاق ، والتقاليد والعادات .

وقد تقبل الله منهما الدعاء ، فكانا أول مسلمين في هذا الزمن السحيق ، وكانت الأمة المسلمة هي الأمة المحمدية ، التي هي خير أمة أخرجت للناس ، وكان النبي المبعوث لها هو النبي المبعوث رحمة للعالمين ، وخاتم الأنبياء والمرسلين ، وهو سيدنا محمد ﷺ ، وصدق الله حيث يقول : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة : ١٢٧- ١٢٩] .

إن هذه الوفود تتوافد على هذا البيت منذ بضعة آلاف سنة ، يوم أن فرغ الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام من بناء البيت ، فأمره الله سبحانه أن ينادي في الناس داعيًا للحج قائلًا : « يا أيها الناس إن الله فرض عليكم الحج فحجوا » ، فقال : يا رب ، وما يبلغ صوتي ؟ ، فقال الرب جل وعلا : « يا إبراهيم ، أذن وعلي البلاغ » فقام الخليل على جبل أبي قبيس[١] فنادى بهذا النداء ، فأجابه كل من كتب الله له الحج ، وهم في أصلاب الرجال ، وأرحام الأمهات[٢] ، ومن يومها ومن يجيء البيت حاجًا أو معتمرًا يقول من ساعة أن يحرم بالحج أو العمرة :

« لبيك[٣] اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » .

نعم ، نجيبك يا ربنا ، إجابة بعد إجابة ، من غير حصر ولا عدد ، لنقضي لواعج

(١) جبل بمكة مشرف على الكعبة .

(٢) الحديث رواه ابن أبي حاتم في تفسيره .

(٣) أي إجابة لك بعد إجابة ، فالتثنية في « لبيك » ليست على بابها ، بل المراد التكثير .

الشوق إليك والحب لك بزيارة بيتك في الأرض، ومهبط رحماتك، ورضوانك، نرجو غفران ذنوبنا، ورفعة درجاتنا، ونحن يا ربنا حينما نطوف حول بيتك لا نشرك بك أحدًا، لأنك لا شريك لك في ذاتك، ولا في صفاتك، ولا في أفعالك، ولك يا ربنا الحمد، والشكر، وكل نعمة فهي منك وإليك، والكون كله ملك لك تتصرف فيه كيف تشاء؛ لأنك لا شريك لك.

وهذه التلبية ترد على أعداء الإسلام، ومتابعيهم، من افترائهم، وادعائهم زورًا وكذبًا أن في مناسك الحج وثنية وتعظيمًا للحجارة، ولا أدري كيف يتفق ما زعموه وما ذكرناه من معنى التلبية، إن الطائف حول البيت، والساعي بين الصفا والمروة لا ينفك عن التهليل والتكبير، والتعظيم لرب البيت، وأفضل الحجاج من لا ينفك عن التهليل والتكبير.

وقد ذكر الله قصة التأذين بالحج على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَائِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٧- ٢٨].

إن الحج -يا أيها المسلمون- شريعة قديمة من لدن أبيكم الخليل إبراهيم، الذي سماهم المسلمين من قبل، ولم يحافظ العرب على شريعة من شرائع الخليل مثل ما حافظوا على شريعة الحج، وقد شَابُوهُ ببعض الأعمال غير المشروعة، حتى جاء الإسلام الحنيف فأعاده إلى ما كان عليه في عهد الخليل، وكما شرعه الله نقيًا لا تشوبه وثنية، ولا يختلط فيه الحق بالباطل بفعل أهل الجاهلية.

إن شريعة الحج فيها تذكير بعبودية خليل الله إبراهيم وابنه إسماعيل، وكيف قاما وحدهما ببناء هذا البيت، الأب يبني والابن يبحث عن الحجارة ويناول أباه، وفيه تذكير بقصة نبع زمزم لتكون سقيا للغلام الصغير إسماعيل، وهو يتلوى من شدة العطش، وأمه السيدة هاجر لا تنفك عن السعي بين الصفا والمروة، وتنظر هنا وهناك عسى أن تجد ماء لفلذة كبدها الذي كاد أن يشرف على الهلاك، فلم تجد شيئًا فاتجهت بوجهها إلى ربها قائلة: هل من غواث؟ وإذا برحمة الله تتداركها وينزل جبريل فيضرب الأرض بجناحه أو

بعقبه ، فإذا الماء يفور ، وإذا بها تحوط حولها ، و تقول لها : زمي زمي ، ومن يومها والألوف بل وألوف الألوف تشرب منها ، فلا يفور ماؤها ، ولا يغيض .

إن في كل نسك من المناسك حكمة ، وفي كل شعيرة عبرة ، فلتتفهموا أيها المسلمون الحكمة ، ولتستفيدوا بالعبرة ، ولا تقفوا بأفعال الحج ومناسكه عند الظواهر ، بل غوصوا على الحكم ، وتعرفوا الأسرار ، وحينئذ ستشعرون بلذة الحج وحلاوته ، وحينئذ ستهون عليكم المشاق والمتاعب ، إن في الحج تعميقًا لمعاني حب الله وطاعته في القلب ، وتعميقًا لمعاني الإخاء ، والمحبة ، والمودة ، والرحمة ، والتواضع ، وخفض الجناح للناس ، والبذل ، والإنفاق في نفس المسلم .

إن من مقاصد الحج الكبرى أن يحدث هذا اللقاء السنوي الأكبر في خير بلاد الله وأحب بلاد الله إلى الله ، وهي مكة المكرمة ، حتى يتدارس المسلمون أحوالهم : أحوالهم الدينية ، والدنيوية ، من سياسية واقتصادية واجتماعية وأخلاقية وعمرانية .

وإن من ثمرات هذا اللقاء أن يعملوا على وحدتهم ، وأن يكونوا كما قال رسول الله ﷺ : « كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » . وكما قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا » رواهما الشيخان .

إن أحوال المسلمين اليوم لا تسر ، فهناك فرقة وانقسام ، وهناك من ينتمي إلى المعسكر الشيوعي ، وهناك من ينتمي إلى المعسكر الرأسمالي ، وهناك من هو مذبذب لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء .

وقد سولت هذه الفرقة وذاك الانقسام إلى أعدائهم أن ينالوا منهم فهنالك تقتيل وتذبيح للمسلمين في الفلبين ، وها هم يستجيرون ولا مجير ، وهنا في الشرق الأوسط هجوم من إسرائيل على بلاد العرب والإسلام ، وأصبح شعب بأسره -وهو شعب فلسطين- مشردًا في الصحراء وفي الخيام ، وهنالك حركات ضد العرب والمسلمين في أوربا وهنالك حركات ضدهم في أفريقيا .

أيها الحجاج المسلمون : إنه لا عاصم لنا اليوم إلا بالوحدة ، والاعتصام بحبل الله : الإسلام والقرآن ، ويوم أن كان المسلمون لا يعتزون إلا بالإسلام ، ولا يحتكمون إلا بشريعة القرآن ، كانوا أعز الأمم وأقواها ، وكان سلطانهم مرهوبًا في الأرض ، إن امرأة

مسلمة أسرها الروم في موقعة فصاحت : « وَامعتصماه » ، وبلغت الصيحة الخليفة المعتصم بالله ، فما كان منه إلا أن جرد جيشًا وأسرع به حتى التقى بالروم ، فهزمهم ، ورد الأسيرة إلى قومها ، وها نحن اليوم نسمع صيحات الألوف من الكهول والنساء والأطفال ، فهل من معتصم بالله اليوم ، يلقن المتجبرين دروسًا ويفك أغلال ألوف الأسارى ، ويرد البلاد إلى أهلها ؟

ذلك ما نرجو وما ذلك على المسلمين والعرب – لو اتحدوا – بعزيز .

* * *

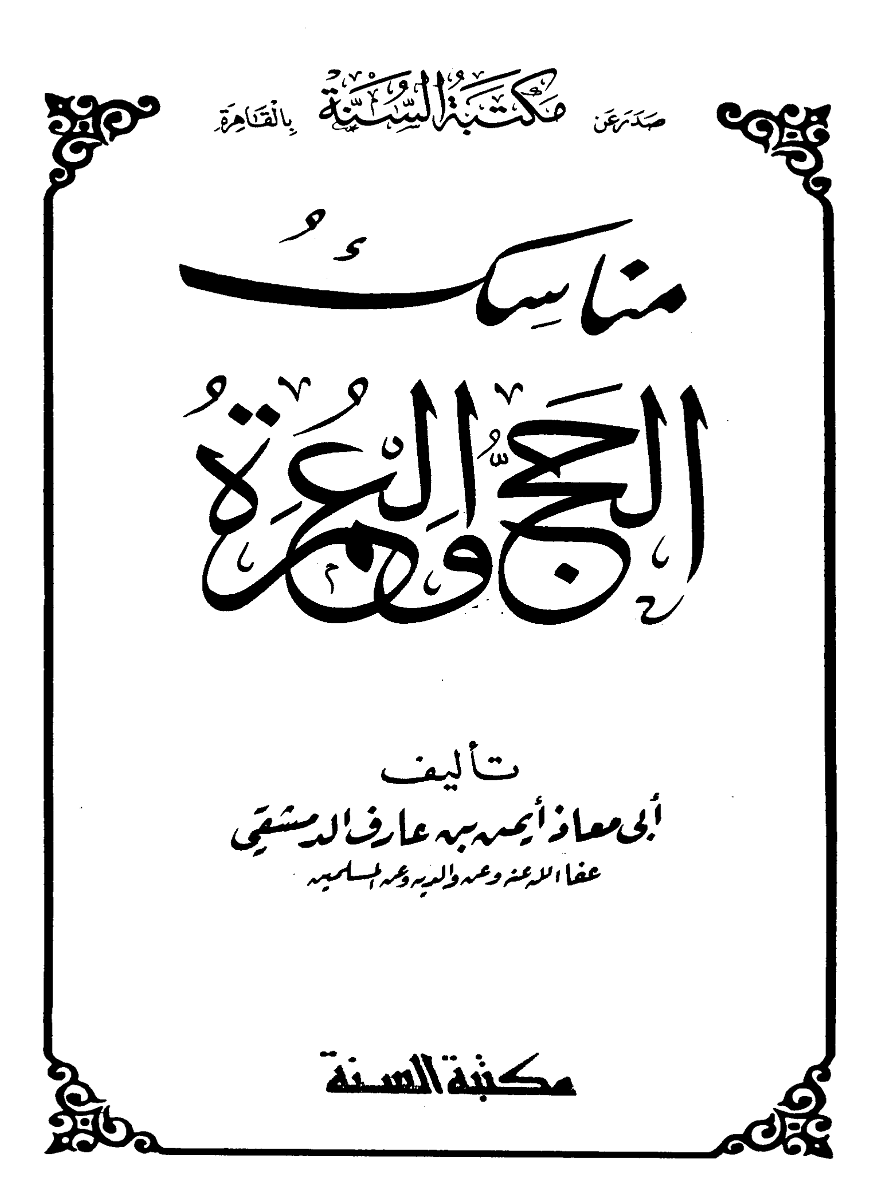
فهرس الكتاب

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

* * *


صدر عن مكتبة السنة بالقاهرة
مناسك
الحج والعمرة
تأليف
أبي معاذ أيمن بن عارف الدمشقي
عفا الله عنه وعن والديه وعن المسلمين
مكتبة السنة